مكتبة
Telegram Network
2019

ويلَ باردينورپر
WILL BARDENWERPER

صدّام حسين
حرّاسه الأميركيين وما لم يسجّله التاريخ

سجين في قصره

THE PRISONER IN HIS PALACE

«يقودنا ويل عبر صفحات هذا الكتاب للاطلاع على الأيام الأخيرة لصدام حسين وفق ما رواه حراسه، الذين يروون قصة خالدة عن معنى الواجب، والشرف، والقسوة وقبل كل ذلك الرحمة».

ديڤيد فينكل، مؤلف كتاب «الجندي الطيب» فائز بجائزة بوليتزر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سجين
في قصره
THE PRISONER IN HIS PALACE

صدّام حسين
حرّاسه الأميركسسن وما لم يسجّله التاريخ

سجين
في قصره
THE PRISONER IN HIS PALACE

ويلّ باردينوربر
WILL BARDENWERPER

ترجمة
بسام شيحا

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

:The Prisoner in His Palace

Saddam Hussein, His American Guards, and What

History Leaves Unsaid by Will Bardenwerper

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف عبر وكالة:

c/o The Zoë Pagnamenta Agency, LLC

Main Street, Suite 850 45

Brooklyn, NY 11201

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2017 by Will Bardenwerper

All rights reserved

Arabic Copyright © 2019 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر 2019 م – 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3759-9

جميع الحقوق محفوظة للناشر

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أب-جد غرافيكس،** بيروت – هاتف (+961-1) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم،** بيروت – هاتف (+961-1) 786233

المحتويات

ترجمة 7

ملاحظة المؤلف 9

الشخصيات 11

مقدمة 15

الجزء الأول

الفصل الأول: أوكالا، فلوريدا -11 أيلول 2001 21

الفصل الثاني: بغداد، العراق -آب 2006 25

الفصل الثالث: بغداد، العراق -صيف العام 2006 28

الفصل الرابع: بغداد، العراق –صيف العام 2006 35

الفصل الخامس: العجوة، العراق –أواخر الثلاثينيات 42

الفصل السادس 45

الفصل السابع: بغداد، العراق –صيف العام 2006 50

الفصل الثامن: قاعة الخلد للمؤتمرات، بغداد –22 تموز 1979 59

الفصل التاسع: بغداد، العراق –صيف العام 2006 63

الجزء الثاني

الفصل العاشر: الدُور وتكريت، العراق –13 كانون الأول 2003 71

الفصل الحادي عشر: أوماها، نبراسكا –20 كانون الثاني 2004 75

الفصل الثاني عشر: بغداد، العراق –الأشهر القليلة الأولى من العام 2004 81

الفصل الثالث عشر: بغداد، العراق –نيسان 2004 91

الفصل الرابع عشر: بغداد، العراق –ربيع العام 2004 96

الفصل الخامس عشر: بغداد، العراق –أواخر حزيران 2004 99

الجزء الثالث:

الفصل السادس عشر: عمّان، الأردن –خريف العام 2005 105

الفصل السابع عشر: المحكمة العراقية العليا، بغداد، العراق –صيف 2005 109

الفصل الثامن عشر: المحكمة العراقية العليا، بغداد، العراق خيف 2005 114

الفصل التاسع عشر: بغداد، العراق – 2006 124

الفصل العشرون: المحكمة العراقية العليا، بغداد، العراق 21 كانون الأول 2005 130

الفصل الحادي والعشرون: بغداد، العراق – 2006 133

الفصل الثاني والعشرون: بغداد، العراق –أوائل الثمانينيات 140

الفصل الثالث والعشرون: بغداد، العراق – 2006 145

الفصل الرابع والعشرون: بغداد، العراق – 2006 157

الفصل الخامس والعشرون: بغداد، العراق – 2006 164

الفصل السادس والعشرون: بغداد، العراق – 2006 170

الفصل السابع والعشرون: بغداد، العراق – 2006 182

الفصل الثامن والعشرون: بغداد، العراق –صيف العام 2006 188

الفصل التاسع والعشرون: بغداد، العراق –صيف العام 2006 195

الفصل الثلاثون: 202

الفصل الحادي والثلاثون: بغداد، العراق –5 تشرين الثاني 2006 212

الفصل الثاني والثلاثون: بغداد، العراق –خريف العام 2006 217

الفصل الثالث والثلاثون: بغداد، العراق –كانون الأول 2006 221

الفصل الرابع والثلاثون: بغداد، العراق –30 كانون الأول 2006 227

الفصل الخامس والثلاثون: بغداد، العراق –30 كانون الأول 2006 233

الفصل السادس والثلاثون: بغداد، العراق –30 كانون الأول 2006 237

خاتمة 245

ترجمة

في عصر ذلك اليوم نفسه، جاءت إلى «المصطبة» مجموعة من السيّاح. وبينما كانت إحدى السيدات تتأمّل الشاطئ المليء بصفائح الجعة الفارغة وأسماك الباراكودا الميتة، رأت عموداً فقرياً ضخماً طويلاً أبيض اللون ذا ذيل هائل يرتفع ويتمايل مع المدّ، في حين كانت الريح الشرقية تدفع البحر بثبات من خارج المدخل إلى الميناء.

سألت السيدة نادلاً وهي تشير إلى العمود الفقري الطويل للسمكة العظيمة، التي انتهى بها المطاف لتصبح مجرد نفاية تنتظر المدَّ ليحملها إلى عرض البحر:

«ما هذا؟»

-إرنست هيمنغواي، «الشيخ والبحر».

ملاحظة المؤلف

كان محظوراً على الجنود الأميركيين الذين حرسوا صدام حسين في أيامه الأخيرة -الملقَّبون ذاتياً بـ «السوبر اثنا عشر (*Super Twelve*)»- كتابة مذكِّراتهم أو حتى ذكر طبيعة مهمتهم في تواصلهم مع أحبائهم في الوطن، لذا فليست هنالك أية أدلة توثيقية تثبت التاريخ الدقيق لبعض الأحداث المذكورة هنا. نتيجة لذلك، اضطررتُ عند بناء التسلسل الزمني للكتاب إلى الاعتماد على ذكريات الجنود التي أطلعوني عليها خلال ما يقرب من ستين ساعة من المقابلات (هذه المقابلات من بين نحو مائة مقابلة أجريتها مع مسؤولين حكوميين –أميركيين وعرب- إضافة إلى باحثين وجواسيس ومحامين، وآخرين يتمتعون بنظرة ثاقبة على نحو فريد).

إن وُضع مقطع ما بين علامتي اقتباس، فهذا يعني أنني حصلت عليه من مقابلة أو مادة منشورة في مكان آخر.

معظم الحوار المذكور في هذا الكتاب لم يُسجَّل أثناء حدوثه، ولهذا فهو غير متضمَّن ضمن علامتي اقتباس. أما التعليقات فتمثِّل بأمانة ذاكرةَ الأشخاص المشاركين في الحوارات وكذلك –في حالة استجواب صدام- روايات الإف بي آي التي نُزعَت عنها صفة السرية.

ستجدون في طيّات الكتاب، عند استخدام المصادر المرجعية، أنني أجريتُ بعض التغييرات النحوية لصالح الوضوح إضافة إلى تعديلات ثانوية بهدف الإيجاز.

رغم أن هذا الكتاب عمل واقعي، إلا أنني تصرَّفتُ بقدرٍ معين من الحرية السردية، خصوصاً في ما يتعلق بترتيب ونسق المشاهد. غير أنني واثق كل الثقة

بأنني نقلتُ بأمانة جوهر ما حدث.

لقد بحثتُ وكتبتُ كصحفي حول الأحداث المرويّة في هذا الكتاب. ورغم أنني كنت ضابطَ مشاة في محافظة الأنبار في العراق حين أُعدم صدام، إلا أنني لم أشارك في، أو أمتلك أي معرفة مباشرة بالأحداث المتصلة بهذه المسألة. إضافة إلى ذلك، لم تُستمَدّ أي من المواد المذكورة في هذا الكتاب من عملي اللاحق كمدني في وزارة العدل.

أخيراً، جميع الشخصيات في هذا الكتاب حقيقية. ولكن، بغرض حفظ الخصوصية في بعض الحالات، استخدمتُ الأسماء المستعارة التالية: أندرو جاكسون، لوك كوارلز، توم فلاناغان، كريس باتاغليا، آرت بيركينز، جيف برايس، جيمس مارتن، تَكَر داوسون، جوزف، أماندا.

الشخصيات

السوبر اثنا عشر

الملازم أول أندرو جاكسون.

الرقيب أول لوك كوارلز.

الرقيب كريس باتاغليا.

الرقيب توم فلاناغان.

المتخصص ستيف «هَتش» هتشينسون.

المتخصص آرت «الختيار» بيركينز.

المتخصص آدم روجرسون.

المتخصص كريس تاسكر.

المجند مرتبة أولى تَكَر داوسون.

المجند مرتبة أولى جيمس مارتن.

المجند مرتبة أولى جيف برايس.

المجند مرتبة أولى بول سفار.

لاعبون رئيسيون آخرون

رمزي كلارك: نائب عام سابق للولايات المتحدة الأميركية ساعد في الدفاع عن صدام.

روبرت «دوك» إليس: رقيب أول قدَّم الرعاية الصحية لصدام.

رغد حسين: ابنة صدام الكبرى.

جعفر الموسوي: المدّعي العام الأول في المحاكمة.

الدكتور نجيب النعيمي: وزير العدل القطري السابق، استعانت به ابنة صدام وانضم إلى فريق الدفاع.

رؤوف عبد الرحمن: أصبح رئيساً للقضاة في محاكمة صدام وتابع سير الإجراءات حتى إصدار الحكم.

التسلسل الزمني

28 نيسان 1937: ولادة صدام في قرية العوجة العراقية.

7 تشرين الأول 1959: صدام البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً يشارك في محاولة اغتيال فاشلة لرئيس الوزراء العراقي في حينه، عبد الكريم القاسم.

17 تموز 1968: يستولي حزب البعث على السلطة في انقلاب أبيض بقيادة أحمد حسن البكر، الذي يتولّى الرئاسة في حين يكون صدام نائباً له.

16 تموز 1979: يُجبر صدام بكر على الاستقالة ويستولي على الرئاسة رسم

2 آب 1990: يحتل العراقُ الكويت.

2 آب 1990-28 شباط 1991: تقود الولايات المتحدة تحالفاً يضم أربعة وثلاثين بلداً ضد العراق.

11 أيلول 2001: يهاجم تنظيم القاعدة مركز التجارة العالمي والبنتاغون، الأمر الذي يدفع الكثير من أفراد «السوبر اثنا عشر» للانضمام إلى الجيش.

20 آذار 2003: تشنُّ الولايات المتحدة حملة قصف، معلنةً بداية الحرب العراقية.

13 كانون الأول 2003: القبض على صدام بواسطة القوات الأميركية.

كانون الأول 2003-حزيران 2004: استجواب صدام.

19 تشرين الأول 2005: بدء محاكمة صدام بارتكابه جرائم ضد الإنسانية.

آب 2006: يبدأ السوبر اثنا عشر مهمّتهم.

5 تشرين الثاني 2006: المحكمة العراقية العليا تجد صدام مذنباً بالتهم المنسوبة إليه وتحكم عليه بالإعدام شنقاً.

30 كانون الأول 2006: إعدام صدام.

مقدمة
بغداد، العراق -30 كانون الأول 2006

حان الوقت.

لبس الرجل العجوز معطفه الأسود، ثم وضع بعناية قبّعة الفرو الداكن على رأسه لحمايته من برودة ما قبل الفجر.

كانت تلك الليلة من شهر كانون الأول واحدة من أبرد الليالي التي اختبرها الجنود الأميركيون في العراق. ستة منهم كانوا يقفون خارج القصر الذي سبق له أن قصف قبل أن يستخدم بعد أسر الرئيس السابق سجناً له. كان بوسعهم رؤية البخار المنبعث من تنفسهم في هواء الليل. كانوا يرتدون لباسهم القتالي الكامل، في الوقت الذي أخذت فيه صدريات كيفلر المضادة للرصاص والخوذ المزوّدة بنظارات الرؤية الليلية تصدر أصواتاً، وكل واحد منهم كان يحمل ذخيرة قتالية كاملة مكوَّنة من مئات الطلقات. بينما كانوا يمسحون المحيط بأنظارهم بحثاً عن أي شيء غير عادي، قاد ستة آخرون السجين إلى الخارج باتجاه عربة هَمفي مستعدة للانطلاق في الرحلة القصيرة نحو منطقة الهبوط.

تعمَّدَ الرجل الكهل ذو اللحية الفضية المشي بطريقة شبه متغطرسة، محاولاً الحفاظ على استقامة جسده بالرغم من ألم الظهر الذي كان يشتكي منه غالباً. كانت ذراعاه تتأرجحان بحرية على جانبيه، وعلى مقربة منهم كانت هناك مروحيتان من نوع بلاك هوك تنتظرانهم، وكانت شفراتهما قد تحوَّلت مسبقاً إلى دوّامتين ضبابيتين تثيران بعنف غيوماً من الرمال والحصى. وكان الوهج الأخضر لنظارات الرؤية

الليلة للجنود يكثِّف الأثر المشوّش للخليط الهائج من الصوت والضوء ودرجة الحرارة. لم يعتد الجنود الشبّان أبداً على الخروج من الدفء الشبيه بدفء الشرنقة لمنطقة السجن والاقتراب من مروحية تنتظر نقل الرجل الذين جاؤوا من أجله.

تَحلَّقَ أفراد الشرطة العسكرية الستة حول الرجل العجوز بينما كانوا يقودونه نحو إحدى المروحيتين، قبل أن ينحنوا تحت الشفرات الدوّامة ويصعدوا إليها بحذر شديد خشية أن يتعثّروا –كانت نظارات الرؤية الليلية تُضعف من قدرتهم على الرؤية. وكان أحد الجنود يقظاً على نحو خاص ذلك أنه أُمر بأن يُبقي رقابة لصيقة على السجين تحسُّباً لـ «أي شيء مثير للريبة». وانضمَّ إلى الجنود مسعفان عسكريان ومترجم أضافوا حرارة جسد مرحَّب بها إلى متن المروحية الضيق. حالما أصبحت المجموعة الأولى داخل المروحية الأولى، صعد الجنود الستة الآخرون واحداً تلو الآخر على متن البلاك هوك الثانية.

عندما هبطت المروحيتان بشكل مترنِّح نحو السماء في بداية رحلتهما القصيرة إلى قاعدة عسكرية عراقية تقع في حي الكاظمية الشيعي في بغداد. ارتسمت نظرة خوف وجيزة على وجه الرجل العجوز حين اهتزّت المروحية قليلاً بتأثير مطبّ هوائي -كان دائماً يبدو عليه التوتر في الجو. فيما عدا ذلك، ظل صامتاً ومتماسكاً.

عند هبوط المروحيتين، قاده الجنود إلى «راينو» –(Rhino) حافلة مصفّحة ضخمة- كانت في انتظارهم. جلس الجنود الأميركيون جانباً، إضافة إلى المترجم الأميركي من أصل لبناني، الذي كان يجد دائماً مشقة في حشر جسده الضخم داخل العربات.

كان الصمت مخيفاً عندما بدأت الراينو، البالغ وزنها ثلاثة عشر طناً، مسيرها الهادر في أرجاء المجمَّع في ساعات ما قبل الفجر الباردة. لم يكن هناك أي من الدعابات المعتادة التي كانت تصاحب تلك المهمات عادةً؛ النكات المألوفة التي كان الأصدقاء -الذين أصبحوا يعرفون جيداً سمات بعضهم بعضاً- يتبادلونها فيما بينهم. صمتٌ وحسب.

وبعد مسير قصير، حان الوقت لتسليم السجين. نهض عن كرسيّه بالقرب من

مؤخرة «الراينو» وعدَّل بحرص معطفه الأسود بعد أن اطمأن بأن الجولة القصيرة لم تجعِّده. كان أحد الجنود قد مشَّطه بحرص بواسطة مشط وبر قبل مغادرتهم زنزانته. وبعد ذلك بدأ الرجل المشي نحو الباب الأمامي للعربة خافتة الإضاءة، متوقِّفاً في طريقه لمعانقة كل واحد من الأميركيين الشبان الاثني عشر، وهامساً لبضع أفراد منهم بكلمات وداعية خاصة.

اغرورقت أعين بعض الجنود بالدموع.

وعندما وصل الرجل العجوز إلى المقدمة، التفت إليهم للمرة الأخيرة، وقال: «ليكن الله معكم». وبعد ذلك انحنى قليلاً ثم استدار نحو الباب.

الجزء الأول

السوبر اثنا عشر

هل الشر جزء من طبيعتك؟ أم أنه شيء تفعله؟

– بريت إيستون إليس، (معتوه أميركي)

الفصل الأول
أوكالا، فلوريدا -11 أيلول 2001

رنَّ الهاتف موقظاً ستيف هتشينسون من نوم غير هانئ على أريكةٍ في بيت ابن عمه. كان رأسه يؤلمه بشدة، وفمه جافاً كورقة صقل، وجسده الضخم ممدّداً باسترخاء على الأريكة. أحسَّ كأنه لم يمضِ سوى بضع ساعات منذ أن غفا هناك بعد عودته من ليلة عمل طويلة كحارس أمني في حانة ميدنايت روديو الرخيصة في مدينة أوكالا الواقعة في وسط ولاية فلوريدا. كان صداعه الشديد ناجماً عن علب البيرة التي شربها بعد انتهاء نوبته حوالي الساعة الرابعة صباحاً. حاول تجاهل الهاتف، إلا أنه لم يتوقف عن الرنين، وكل رنّة كانت ترسل شعاعاً حاداً من الألم في رأسه المتوجِّع سلفاً. ضغط على زر الميكروفون، إذ لم يكن قادراً على حمل الهاتف إلى أذنه من شدة الإنهاك، لكنه أوقع الهاتف على الأرض بحركة خرقاء منه.

كانت زوجة ابن عمه تتحدث من موقع عملها، وكان الهلع واضحاً في نبرة صوتها: «شغِّل التلفاز».

فسألها: «أية قناة؟»

«أية واحدة منها».

كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحاً بقليل في يوم 11 أيلول 2001. شغَّل هتشينسون التلفاز في الوقت المناسب ليرى الرحلة 175 تصطدم في البرج الجنوبي من مركز التجارة العالمي، بعد أقل بقليل من عشرين دقيقة على اصطدام الرحلة 11 في البرج الشمالي.

حتى تلك اللحظة، كان هتشينسون يتبع مساراً مهنياً متقلِّباً. فبعد أن كان لاعباً بارزاً مفتول العضلات في فريقي كرة القدم وكرة القاعدة في مدرسة جورجيا الثانوية، بات يعمل لصالح إدارة الطرق المحلية خلال النهار وفي حانة روديو في الليل، لكن صور النيران المشتعلة في مانهاتن الجنوبية حسمت أمراً في داخله، «لم أكن أسير نحوه بالسرعة الكافية»، بحسب تعبيره لاحقاً -مشيراً إلى قراره بالانضمام إلى الجيش والذهاب إلى ما وراء البحار.

بغداد، العراق -آب 2006

بعد خمس سنوات، كان ستيف هتشينسون، المعروف بين أصدقائه باسم هتش، يجر حقيبته الكبيرة على الأرض شديدة الحرارة لمطار بغداد الدولي. أنه أحد أفراد المجموعة 551 من الشرطة العسكرية المتمركزة خارج قاعدة فورت كامبل، في كنتاكي، وكان يعرف الروتين جيداً. كحال الكثيرين الذين انضموا إلى الجيش عقب هجمات 11 أيلول، لقد وجد نفسه منخرطاً في وتيرة عملياتية منهكة. فبحلول العام 2006، كان قد أمضى مسبقاً سنةً في العراق خلال الغزو الأولي في 2003، وسنة أخرى في أفغانستان. وكان واحداً من بين الأكثر خبرة في مجموعته المكوَّنة من أحد عشر فرداً آخر من الشرطة العسكرية الأميركية –معظمهم في عقدهم الثاني وقد وصلوا لتوّهم إلى منطقة قتالية. لم يكن أصغرهم سنّاً -المجند تَكَر داوسون- قد بلغ الحادية والعشرين بعد، أما أكبرهم سنّاً –المتخصص آرت بيركينز- فكان في منتصف عقده الثالث. مع مضي نحو خمس سنوات على انطلاق «الحرب على الإرهاب»، كان نحو نصفهم قد أُرسلوا سابقاً في مهمات قتالية إلى الخارج، أما بالنسبة للنصف الآخر فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي ينزلون فيها من طائرة إير فورس C-130 إلى منطقة قتالية. كان الملازم المسؤول عنهم، أندرو جاكسون، متخرجاً حديثاً من برنامج تدريب الضباط الاحتياط (ROTC). وقد جاء مرؤوسوه من المجندين الشبان والضباط غير المفوّضين من مختلف أنحاء الولايات المتحدة، لكن الجزء الأكبر منهم أتوا من مجتمعات عاملة متناثرة في مناطق مختلفة مما يُسمَّى «حزام الصدأ» –مصطلح يُطلَق على مناطق صناعية تدهور اقتصادها بسبب تراجع قطاعها الصناعي بعد أن كان مزدهراً سابقاً.

كانوا يجهلون أنهم خلال بضعة أشهر سيلعبون دوراً محورياً في دراما

تاريخية ما كان بوسعهم تخيُّلها.

لقد اكتسب الرجال –لم تكن هناك نساء في الفريق- صلابة جيدة خلال الأشهر التي سبقت نقلهم، ذلك أنهم أنجزوا عدداً لا يُحصى من المهمات التدريبية في قاعدة فورت كامبل استعداداً لهذه المهمة، التي توقعوا أنها ستكون مألوفة بالنسبة لرجال من الشرطة العسكرية –على سبيل المثال، حراسة محتجزين وتوفير الأمن للمواكب. وخلال فترات الاستراحة ما بين التمارين، كان العازبون منهم يمضون بعض الوقت عند البار في حانة كيكرز أو لودج في مدينة كلاركسفيل القريبة، التابعة لولاية تينيسي، في حين كان المتزوجون منهم يقومون بأعمال أكثر أُسَرية، مثل التناوب على الاهتمام بأطفال بعضهم بعضاً كي يتمكّنوا من تناول عشاء ممتع مع زوجاتهم في مطعم الستيك الياباني الشهير ياماتو.

كان ذلك الروتين مألوفاً بالنسبة لمن خدم خارج البلد من قبل، مثل هتشينسون وآرت بيركينز وتوم فلاناغان وكريس تاسكر، أما بالنسبة لتكر داوسون وآدم روجرسون وبول سفار، فقد كانت تلك مغامرة جديدة كلياً. لم يُسمَح لسفار بالالتحاق بهذه المهمة إلا بشق النفس، بسبب مشكلة وزنه المتعنّتة، ما اضطُّر الرقيب كريس باتاغليا لـ «إخراج براز الكلب» من سفار كي ينحت منطقة وسطه الضخمة في الأشهر التي سبقت سفرهم إلى العراق. لكن المجند الشاب كان يتميَّز عن الآخرين بشيء آخر غير وزنه، وهو أنه كان يبدو أكثر ملاءمة لمنتزه تزلج أو حلقة رقص في حفلات الروك من ملائمته لميدان استعراض عسكري، بسبب الوشوم التي كانت تغطي جسده -كان فخوراً بامتلاك شبه «قميص كامل» منها.

وصل الجنود إلى العراق بعد رحلة ماراثونية نقلتهم من قاعدة فورت كامبل إلى ولاية مين فالكويت، وأخيراً، إلى مدرج مطار بغداد الدولي. ومع بقاء درجات الحرارة في ثلاثيناتها حتى بعد مغيب الشمس، أصبحت ملابس الرجال منقوعة كلها بالعرق قبل انتهائهم من تفريغ محتويات حقائبهم. كان ذلك الوضع بمثابة مُذَكِّر قاسٍ بحقيقة أنهم كانوا بعيدين جداً عن الوطن.

الفصل الثاني
بغداد، العراق -آب 2006

لدى وصولهم إلى مطار بغداد الدولي، أُعطي كل جندي من الجنود الاثني عشر مخزناً أولياً يحوي ثلاثين رصاصة من عيار 5.56. وبينما كان الرجال يُنقَلون بواسطة «باصات الحجي» –حافلات متداعية لن تكون غريبة أبداً في هافانا الشيوعية- إلى «قرية الحرية»، أي مجموعة الوحدات السكنية الجاهزة (المصنوعة من حاويات الشحن)، التي ستكون منازلهم الجديدة، لاحظوا كثرة حواجز هيسكو والجدران الإسمنتية المصممة لتأمين غطاء من قذائف الهاون والصواريخ الساقطة.

إن الخطر المحتمل الذي توحي به تلك التحصينات كان أمراً مثيراً ويدعو للتأمُّل في آن واحد. كان الرجال، في حقيقة الأمر، يدخلون مرجلاً من العنف ترتفع درجات حرارته باضطراد منذ بداية الغزو وخلع صدام حسين في 2003. إنه صيف 2، وفي ذلك الحين كان القادة الأميركيون قلقين بشدة من تصاعد العنف السنّي الشيعي في بغداد لدرجة أنهم كانوا يدفعون باثني عشر ألف جندي إضافي إلى المنطقة. قبل أيام فقط من وصول هتش والآخرين إلى العراق، فجَّر انتحاري سنّي نفسه خارج أحد الأماكن الإسلامية الشيعية الأكثر قداسة – مرقد الإمام علي في النجف- ما أدى إلى قتل 35 وجرح 122 شخصاً. ظل المتطوعون بعد ذلك ساعات يعملون على مسح الدماء وجمع أشلاء الضحايا.

على أي حال، كانت مواجهة الوضع الأمني المتدهور تمثِّل عمل يوم آخر، ففي ذلك الحين كانت الإثارة المُدوِّخة تُسيطر على أولئك الذين كانوا يشهدون منطقة حرب للمرة الأولى، لكن الجميع –وليس الأغرار السذَّج فقط- هرعوا لوضع أيديهم على وسائل الراحة التي كانت غير قابلة للتصوُّر في نزاعات سابقة. بطريقة غريبة،

ذكَّرَ طقس الاستملاك هذا المتخصصَ آدم روجرسون بمشاهد من برنامج «العالم الواقعي» على قناة MTV، عندما كان شركاء الغرف الجدد يصلون إلى منزل مجموعتهم ويتنافسون بجنون على امتلاك أماكن السكَن المرغوبة. أما في حالة روجرسون ورفاق مجموعته فكان التنافس على البرّادات والتلفزيونات المباعة برخص من وحدة الحرس الوطني التي كانوا يحلّون محلّها. رغم أن الظروف لم تكن مرفّهة وفق مقاييس الوطن، لكن أولئك الذين سبق لهم أن خدموا في ظروف أشد تقشُّفاً كانوا يعرفون أن وضعهم بات أفضل بما لا يُقاس.

أمضت الفرقة أسبوعها الأول في مرافقة وحدة الحرس الجمهوري المغادرة بهدف التعلُّم منها. دائماً ما تكون مثل هذه العمليات الانتقالية خرقاء ومربكة، ذلك أن الجنود الموشكين على الرحيل يكونون منهكين، بل سئمين إلى حد ما، ومتشوّقين للعودة إلى الوطن، في حين أن الوحدات الآتية تكون مفعمة بالحماس –وخصوصاً أولئك الجنود الأصغر عمراً المتلهفون لتطبيق ما تدرَّبوا عليه عملياً.

في البداية، أُوكل للجنود القادمين من قاعدة كامبل مجموعة متنوعة من المهام، بعضها يشبه تلك التي تدرّبوا عليها، وبعضها الآخر سقط في أحضانهم بالتزكية، بما أنهم وحدة إسناد قتالية حسنة التدريب من اللواء 101 الشهير المحمول جواً في الجيش الأميركي. كان الجيش الأميركي في القرن الواحد والعشرين ما يزال في نواحٍ عديدة مؤسسة قَبَلِيّة، وضمن مستويات تراتبية سلطته كان اللواء 101 يُعتبَر بلغة الجيش «*squared away*»، أي «كفوءاً ومحترفاً».

قال آدم روجرسون لاحقاً بافتخار: «كانت مجموعتنا جيدة في ما كنا نقوم به. لقد تدرّبنا بشدة، وتعلَّمنا كيف نستدعي فرق الإخلاء الطبية بطريقة الأسطر التسعة *(nine-line medevac)* وكيف نغرز الإبر الوريدية لبعضنا بعضاً، وقمنا بالكثير من المسيرات بالعتاد الكامل لمسافة 12 ميلاً». كانت هذه الأشياء مهمة بالنسبة لروجرسون، وبالتأكيد لمعظم أفراد المجموعة، التي كانت تُبدي اعتزازاً يلامس الغرور؛ من النوع المألوف في الوحدات التي تتميز بمهارات قتالية فائقة.

الفصل الثالث
بغداد، العراق -صيف العام 2006

أُمر أفراد الشرطة العسكرية الاثنا عشر بالإشراف على الأمن في مستشفى يديره طاقم طبي أميركي مسؤول عن معالجة قوات التحالف وكذلك المتمردين العراقيين المصابين في عمليات القتال. كان المبنى كئيباً ومقرفاً ويقع ضمن «المنطقة الخضراء» في بغداد. وكان الأطباء يُغمَرون بأمواج متلاحقة من الإصابات الإسعافية، ويعملون لساعات طويلة على إنقاذ الأرواح في مبنىً متداعٍ تتجمَّع الدماء فيه أحياناً على شكل برَك على الأرض ويشكِّل الذبابُ فيه تهديداً دائماً. كان يجب تقييد بعض المشتبه بكونهم متمردين إلى أسرَّتهم خلال تلقيهم العلاج. وذات مرة اضطُّر كريس تاسكر - الذي صمَّم، مثل هتشينسون، على الالتحاق بالجيش بعد هجمات 11 أيلول- لتثبيت متمرّد مصاب بطلقة في رقبته كان يتخبّط على نقّالته. جهدَ الأطباء، غير عابئين بولاء الرجل، لإعادة لحمه المتمزّق وعلاج جرحه النازف بشدة.

في بعض الأيام، لم تكن المجموعة تغادر المستشفى أبداً، وفي مثل تلك الأيام كانوا يساعدون الممرضات في استبدال الضمادات لنفس المتمردين الذين كان الجنود الأميركيون يعتقدون أنهم جاؤوا إلى هذا البلد لاعتقالهم وقتلهم. وقد أحسَّ العديد من أفراد المجموعة بالإحباط لأنهم كانوا –جوهرياً- «يعتنون بالأشرار»، الذين كان بعضهم لا يزال في بداية مرحلة المراهقة لكنهم مع ذلك كانوا يبصقون على الأميركيين الذين كانوا يجهدون لرعايتهم. مستذكراً تلك التجربة، قال روجرسون فيما بعد: «لم يكونوا يحبوننا ولم نكن نحبهم، لكنهم كانوا مضطرين لرؤيتنا كل يوم وكنا مضطرين لرؤيتهم أيضاً».

وكان يُوكَل للمجموعة أيضاً مهام دورية لحماية المواكب، الأمر الذي كان على الأقل يُخرجهم من المستشفى، ويشبه إلى حد ما، ما كانوا يتخيَّلون أنهم سيفعلونه في العراق. لكن كل جولة «خارج السلك» -بحسب تعبير الجنود للدوريات خارج المحيط الآمن لقواعد عملياتهم- كانت تستتبع درجة من الخطورة؛ وهو أمرٌ كان مرحَّباً به بالنسبة لبعض الجنود الأقل خبرةً والأشد حماسة. لكن المتخصص آرت بيركينز لم يكن منهم. كان بيركينز في منتصف عقده الثالث حينئذ، وكان قد ترك الجيش سابقاً وتزوّج امرأة التقى بها حين كان يخدم في ألمانيا، لكنه عاد والتحق بالجيش مجدداً بعد سنوات. وكان بيركينز، الذي يضع نظارة طبية ويملك اطلاعاً على مجموعة متنوعة من المواضيع، يذكِّر روجرسون بالكاتب المثقف والممثل الكوميدي بن ستاين، بفطنته الجافة وأسلوبه المضايق. وقد اعتاد بعض الجنود على مناداة بيركينز باسم «سنابل» –نسبةً لزجاجات العصير «Snapple» والأسئلة السخيفة داخل سداداتها- لأنه كان يتطوَّع بذكر الكثير من الحقائق العشوائية. بالنسبة لهتش، كان «بيركينز الختيار» يبدو «مثل أستاذ جامعي غير ناجح رث المظهر يمتلك الكثير من المعرفة العشوائية»، ويتّسم بأسلوب متحدٍّ يناقض تماماً نوع الحماس («*hooah*»، وهي اختصار لكلمات مسموع، مفهوم، مسلَّم به) الذي يغرسه الجيش في المجندين الشبّان.

ذات يوم، طُلب من المجموعة مرافقة موكب متجّه إلى السفارة الأميركية – مهمةٌ مرحَّب بها إلى أقصى الحدود بما أنها كانت توفِّر فرصة للتمتع بكافتيريا وزارة الخارجية. بينما كانوا يعبرون شوارع بغداد، التي كانت تعجُّ بالفوضى في أغلب الأوقات، وقف روجرسون مع رشاشه الآلي (إم 240) بيقظة شديدة على برج الهمفي تحت الشمس الحارقة، ماسحاً الطريق بناظريه بحثاً عن أية قنابل جانبية محتملة، وملوِّحاً في الوقت نفسه للسيارات العراقية للتنحّي جانباً. كان يتطلَّع للراحة الآتية عند وصولهم إلى السفارة أخيراً، حيث سيصبح بإمكانه خلع درع جسده. تخيَّل استرخاء عضلات ظهره الملتهبة بعد ساعات من التوتُّر الإجباري. بدا الجنود عند وصولهم إلى السفارة كما لو أنهم خرجوا لتوّهم من بركة سباحة. لذا سارعوا إلى خلع ألبسة الحماية الخانقة التي كان يتوجب عليهم ارتداؤها خارج السلك فور ترجُّلهم من عربات الهمفي. جميعهم إلا واحد، وهو بيركينز الذي أبى مغادرة عربته، متطوّعاً للبقاء خلفهم، رغم أن ذلك لم يكن ضرورياً، بما أنهم كانوا في المنطقة الخضراء الآمنة. أُصيب الجنود بالحيرة فسألوه عن سبب عدم رغبته في الانضمام إليهم، ومن

ثم لاحظ روجرسون أن الجزء العلوي من بذّة بيركينز لم يكن وحده المنقوع بالعرق، كما هو حال معظمهم، وإنما كانت هناك بقعة كبيرة أيضاً حول منطقته التناسلية –لقد تبوَّل على نفسه.

تختلف الروايات بشأن السبب الذي أدى إلى ذلك الأمر المؤسف، حيث قال بعضهم إن بيركينز ببساطة وصل إلى مرحلة لم يعد بوسعه فيها تحمُّل حصر بوله مدةً أطول، في حين قال آخرون إن انفجاراً بعيداً أو اندلاع رصاص من أسلحة صغيرة أفزع «الختيار» وجعله يفقد السيطرة على مثانته. على أي حال، أياً تكن الصحيحة من هذه الافتراضات، فإن بيركينز سيُذكَّر بذلك بلا رحمة لأسابيع تالية. وسيكون المتخصص روجرسون والمجند داوسون أبرز المضايقين، حيث كانا يشيران باستمرار إلى الفيلم الكوميدي «ليالي تالاديغا»، الذي يقول فيه صبي صغير «وأنا لم أغيِّر بنطالي المبلّل بالبول طوال اليوم –أنا جالس الآن في بنطالي الملوَّث بالبول». كان داوسون (وهو شاب فتي موفور الصحة في العشرين من العمر، ويبدو كأنه خارج لتوّه من كتالوغ محل الألبسة أبيركرومبي آند فيتش) يذكِّر بول سفار، الأقل تناسقاً جسدياً وملاءمةً للتصوير، ب- «الفتى الجديد في المدرسة الذي يحاول جاهداً إثارة إعجاب الفتيان المحبوبين من الأيام الأولى». وكان روجرسون - الرياضي المحبوب الذي لم يكن قد مضى وقت طويل على إبعاده عن التجوُّل في أروقة مدرسة ريدجفيل الشمالية خارج كليفلاند مرتدياً قميص فريق رينجرز لكرة القدم- حليفهما ومكمِّلهما المثالي، الأمر الذي كان يثير إحباط بيركينز على الدوام.

بعد دورية حارّة وطويلة على نحو استثنائي، انهمك روجرسون في تنظيف رشاشه الآلي M240، في حين انصرف البقية إلى تأدية واجباتهم الاعتيادية اليسيرة التي يقومون بها بعد المهمات الرسمية. وتَصَادَفَ أن بيركينز «الختيار» كان يُلقي مواعظه في ذلك الوقت –أو هذا ما ظنّه روجرسون- فهجم عليه الأوهايوي (نسبةً لولاية أوهايو) الوسخ المتعرِّق وثبّته على الأرض ثم لفَّه بحزام رشاشه. سيقول روجرسون لاحقاً، بشيء من الندم، حول هذه الحادثة: «كان شريكي في الغرفة، وكنتُ أحبه، لكنني اكتفيت وحسب».

في تلك الأثناء، تَوَاصَلَ إيقاعُ الحياة النمطي في العراق –تحميل شاحنات الأسلحة، والخروج في مواكب، والعودة إلى القاعدة لاقتناص قسط من الراحة. لكن

هذا النمط من الحياة لم يكن ينطبق على مجموعة الشرطة العسكرية هذه فحسب، فالجنود الأميركيون في مختلف أنحاء العراق كانوا يقومون بمئات الدوريات، المشابهة تقريباً لدورياتهم، في كل يوم.

يتذكَّر هتشينسون اللحظة التي تغيَّر فيها كل شيء.

بدأ انتقالهم من مجموعة عادية من الشرطة العسكرية إلى «السوبر اثنا عشر»، كما سيعتادون على تسمية أنفسهم، عندما عاد هتشينسون ذات ليلة من إحدى المهام متطلِّعاً لنيل قسط من الراحة. كان أباً لبنتين صغيرتين وصبي واحد، وكان يحاول زيارة خيمة الترفيه والرعاية الاجتماعية (MWR) قدر استطاعته بغية الاتصال بالمنزل وسماع «قصص أطفاله المجنونة الصغيرة». كان روتيناً اعتاد عليه خلال السنوات الخمس السابقة، بما أن الوقت الذي كان يمضيه في الخدمة أطول من ذاك الذي كان يمضيه في المنزل. صحيح أن خيم الترفيه كانت خالية من أي جاذبية لكنها، مع ذلك، كانت ثمينة. كانت تحوي رفّاً من الهواتف وبعض وصلات الإنترنت، يفصل بينها ألواح من الخشب الصفائحي (الخشب المعاكس)، وكان الجنود يصطفُّون أمامها للاتصال لفترة وجيزة بموجات الحياة في الوطن. غير أن هتش لم يستطع في تلك الليلة التحدث مع زوجته لأنه استُدعي لاجتماع مع قائد مجموعته، الرقيب لوك كوارلز.

قال كوارلز -الذي كان يأمل بأن يصبح مؤهَّلاً للانضمام إلى القوات الخاصة في الجيش عند عودته إلى الوطن، ولتحسين فرصه كان ينفق أوقات استراحته في العراق في اتباع نظام لياقة بدنية شاق- لفريقه المجتمع: لدينا تغيُّر في المهمة يا شباب. لا مزيد من حماية المواكب. لا مزيد من مراقبة حجاج ضئيلي الشأن. قد لا يعجبكم الأمر، وقد يعجبكم، لكن أهم ما فيه هو أننا سنقوم به. لقد عُهِدَ إلينا معتقلٌ رفيع المستوى.

لم يشكِّل هذا الخبر، رغم أنه كان مثيراً للاهتمام، صدمةً للجنود، بما أن «عمليات المعتقلين» كانت من بين المهام العادية بالنسبة لعناصر الشرطة العسكرية. بيد أن الخبر التالي لم يكن عادياً على الإطلاق.

كان المعتقل صدام حسين.

أخذ الجميع نَفَساً جماعياً لوهلة، ومن ثم بدأت التعليقات الساخرة. قال أحدهم نصف ساخر: «يجب أن نقتله!» في حين قال هتش في داخله: اللعنة عليه، فليحترق.

أحسَّ كريس تاسكر بالاستياء عندما سمع الخبر: «لقد انزعجت لأنني كنت أريد الخروج في دوريات خارج السلك، وليس حراسة أشخاص».

كل شخص انضم إلى الجيش يعلم أن «الاشتباك مع العدو وقتله» يمثِّل هدفاً جوهرياً تعززه المؤسسة بصورة مستمرة. يُغرَس هذا المبدأ بطرق متنوعة، من تدريب الجنود على بلوغ درجة إتقان الرماية عبر إطلاق مئات الرصاصات على صور ظلِّيّة بالحجم الحقيقي، إلى القيام بتدريبات بالحربة مع إنشاد «ما الذي يجعل العشب الأخضر ينمو؟ دم، دم، دم!» كل ذلك يهدف إلى إضعاف نفور الإنسان الفطري من سلب روح إنسان آخر، كي لا يتردّد الجندي في الضغط على الزناد عندما يحين وقت التنفيذ العملي في المعركة.

مع ذلك، بعد أشهر من إذكاء حماسة الجنود للاشتباك مع «الأشرار» خارج السلك، يوكِل إليهم الجيشُ مهمة حراسة سجين في زنزانة سجنه.

لما استشعر كريس باتاغليا إحباط تاسكر وبعضاً من زملائه من المجموعة، حاول رفع معنوياتهم بالقول: يا رفاق، سوف تحرسون صدام حسين، هذا أمر رائع جداً.

فأجابه تاسكر قائلاً: أجل، أظن أنك محق، ليس الأمر بهذا السوء. لكنه لم يكن مقتنعاً بحصوله على الكثير من المعلومات بشأن المهمة. كانت معرفته بخصوص صدام تقتصر على الأمور الأساسية، مثل الحربين اللتين شنهما العراق على إيران والكويت، وبصورة أعم، أن صدام كان «رجلاً متوحشاً يقتل شعبه».

وهتش أيضاً كانت لديه تحفظات بشأن المهمة الجديدة، حيث قال فيما بعد: «في البداية كنتُ متردداً حقاً حيالها. لا أحد يستيقظ ذات يوم ويريد إمضاء وقت مع شخص متهم بكل الأشياء التي كان صدام متهماً بها». حتى أنه فكَّر في طلب نقله قبل أن يُذكِّر نفسه بأنه لم يتراجع عن أي شيء من قبل، ويقرّر بأنه لن يبدأ بالتراجع حينئذ.

أما العضو الأصغر في المجموعة، تَكَر داوسون، فكان مندهشاً في داخله: من بين جميع الأشخاص في الجيش، كيف وقع الاختيار عليَّ للقيام بذلك؟

الفصل الرابع
بغداد، العراق -صيف العام 2006

عاد ستيف هتشينسون إلى العمل في الليل من جديد، لكن عمله كان بعيداً كل البعد عن الاستماع إلى الموسيقا الريفية وتفريق المتشاجرين الثملين في حانة ميدنايت روديو في وسط فلوريدا. بدأت نوبته الأولى لحراسة صدام في منتصف الليل.

وجد هتش نفسه في أعماق المحكمة العراقية العليا –المحكمة التي أُنشئت لمحاكمة صدام ورفاقه المتهمين السبعة الآخرين على جرائم بحق الإنسانية. خلال الأيام التي كانت تجري فيها جلسات المحاكمة، كان صدام ورفاقه المتهمون يمكثون في زنازين تحت أرضية –أقفاص زجاجية بصورة رئيسية- تقع أسفل قاعة المحاكمة، لمدة تصل إلى أسبوع في كل مرة.

أُنشئت المحكمة العراقية العليا في مقر سابق لقيادة حزب البعث، وهو مبنى ضخم ذو أعمدة بارزة يشبه الكثير من قصور صدام. كان الأميركيون هم من أنشأ المحكمة العراقية العليا، وقد صمموها على غرار محاكم جرائم الحرب التابعة للأمم المتحدة. اختارت المحكمة محاكمة صدام على قتل 148 شيعياً من سكان بلدة الدجيل العراقية، رداً على محاولة اغتيال فاشلة حدثت عندما زار صدام البلدة في أوائل الثمانينيات. وكان انتقاء حملة قمع بلدة الدجيل لتكون الجريمة الأولى التي يُحاكَم صدام عليها اختياراً غريباً، نظراً لوجود عمليات قتل أكثر شهرة يُعتقَد أنه كان مسؤولاً عنها أيضاً، وعلى الأخص منها الهجمات الكيماوية على الكرد العراقيين خلال الحرب العراقية الإيرانية.

كانت الأيام السابقة مشوّشة على نحو مرهق بالنسبة لهتش. لقد مُنع وبقية

السوبر اثني عشر من إخبار أي شخص بمهمتهم الجديدة. ولم يكن محظوراً عليهم إخبار أحبّائهم بما كانوا يفعلونه فحسب، بل كان محظوراً عليهم حتى كتابة مذكِّرات حول تجاربهم. قيل لهم إن مراسلاتهم عبر البريد الإلكتروني ستكون مراقَبة، وإنهم سيتعرّضون لعمليات تفتيش عشوائية للتأكد من أنهم لم يكونوا يكتبون أية ملاحظات حول ما كانوا يرونه.

جلس هتش على كرسي معدني عتيق خارج زنزانة صدام المصنوعة من مادة البليكسيغلاس المضادة للكسر (مادة شفافة شبيهة بالزجاج)، ورأسه ما يزال يضج بتلك التحذيرات. بدا الدكتاتور بأنه نائم بعمق وارتياح في منزله المؤقت الكائن في نهاية الممر –آخر الزنازين الأربع. الرجل الذي كانت قصوره مبعثرة في شتى أنحاء البلد في الأعلى كان محتجزاً آنذاك في قبو يملك كل السحر الذي تملكه غرفة مرجل. كان مخيفاً ومثيراً لرهاب الأماكن المغلقة. حتى زنزانته نفسها كانت تبدو إلى حد ما مثل حاضنة مستشفى للمواليد الجدد -جدار إسمنتي حتى مستوى الخصر تقريباً يعلوه حاجز من البليكسيغلاس الشفاف من أجل مراقبة السجين من الخارج.

بعد فترة، بدأ السوبر اثنا عشر يسمُّون مسكنهم المؤقت أسفل قاعة المحاكمة في المحكمة العراقية العليا بـ «السرداب» لأن مقر إقامتهم، الكائن في نفس الممر قرب السجناء، كان مظلماً أربعاً وعشرين ساعة في اليوم -بما أن بعضاً منهم سيكون نائماً في أي وقت. كانت الحياة في المحكمة العليا مقسَّمة إلى نوبات من ثماني ساعات، لكن نوبة هتش الليلية تلك كانت خالية من أي صوت على الإطلاق، وفقاً لما سيقوله لاحقاً: «كان الهدوء يصمُّ الآذان لدرجة أن الصمت كان مدوّياً».

كان هتش يلعب دور «الصرَّاخ» في مهمات سابقة في مراكز الاحتجاز، ويتمثَّل عمل الصرَّاخ في إبلاغ السجناء عند وصولهم بأن أي هراء منهم لن يكون محتمَلاً، أو بحسب تعبير هتش: «تعطيهم تلك الصدمة الأولية، حيث تكون واقفاً أمامهم –ربما على بعد سنتمترين من وجوههم- وتبلِّغهم، صراخاً، بالقواعد والتعليمات الخاصة بالمخيّم... يقتضي عملك إرساء مبدأ مفاده أن الحرّاس يملكون السلطة المطلقة في العلاقة ما بين السجين والحارس».

رغم أن هتش كان قد تعهَّد لنفسه بالتعامل مع تلك المهمة على أنها مجرد مهمة أخرى، إلا أنه تساءلَ في وقت متأخر من تلك الليلة، بينما كان جالساً يراقب

صدام، إن كان الشخص المناسب لتلك المهمة الفريدة. رجعت به أفكاره إلى حرب الخليج الأولى، حين كان ولداً صغيراً وأرسل رسائل إلى الجنود في العراق وتلقّى من بعضهم ردوداً تضمّنت دنانير عراقية –تحمل وجه صدام- كتذكار. الرجل الذي تصوَّره دائماً كوحش غريب كان يشخر أمام عينيه.

طُلب من الجنود الحفاظ على اتصال بصري مع صدام طوال الوقت لضمان عدم امتلاكه القدرة على إيذاء نفسه، أو عدم تعرُّضه للأذى بواسطة آخرين. بعد فضيحة إساءة معاملة السجناء في سجن أبو غريب، أدركت الولايات المتحدة بقوةٍ كارثةَ العلاقات العامة التي يمكن أن تنجم عن أية ادعاءات بإساءة المعاملة. كان يوجد مع هتش في تلك النوبة الليلية حارسان آخران؛ ضابط غير مفوَّض مكلَّف بمراقبة صدام عن بُعد بواسطة كاميرا تلفزيونية مغلقة الدارة، وحارس «جوّال» يجوب المنطقة على أهبة الاستعداد تحسُّباً لحدوث أي أمر طارئ. منذ مدة ليست بطويلة، كانت هذه المهمة غير قابلة للتصوُّر بالنسبة لبعض الجنود الشبّان الذين نفَّذوا في التدريبات الأساسية حراسةً جوّالةً مشابهةً، مسلَّحين ببنادق مطاطية.

كانت المحكمة العراقية العليا عبارة عن مبنى ضخم يتكون من عدة طوابق تتضمّن قاعة المحاكمة وغرفة «كالمسرح الروماني» شبيهة بمركز «التحكم بالبعثات [الفضائية] في هيوستن» يراقب فيها موظفون أمنيُّون عدداً من الشاشات التلفزيونية التي تُظهر الزنزانات في القبو.

حول تلك الغرفة يقول وليام وايلي –محام كندي وُكِّل للمساعدة في الدفاع عن صدام- بسخرية: «كان بوسعك الجلوس في غرفة التحكم ومشاهدة السجناء يتغوَّطون إن كنت شديد الاهتمام».

جلس هتش على كرسيه غير المريح وراح يتصفّح بقلق رواية مصوّرة بعنوان «شرٌّ مقيم: الشيفرة: فيرونيكا» لتمضية الوقت. خلال المدة التي استغرقتها تلك المهمة، سيتمكّن هتش في نهاية المطاف من قراءة كتب «هاري بوتر» وسلسلة «ألعاب الجوع» كلها، ربما ليكون لديه شيء ما يناقشه مع ابنتيه عند اتصاله بالبيت.

فجأةً، انقطع الصمت مع شروع علي حسن المجيد «الكيماوي»، أحد أبرز معاوني صدام، في الصلاة في زنزانة قريبة. كان علي متهماً بالمساعدة على

التخطيط لحملة إبادة جماعية باستخدام أسلحة تقليدية وكيماوية معاً في محاولة للقضاء على الكرد العراقيين، الذين كانوا يُعتبَرون تهديداً لحكم صدام. بحسب سجلات حزب البعث، كان هذا الرجل الذي نهض فجأةً من سريره القابل للطي للصلاة بصوت عالٍ قد وقَّع ذات مرة على أوامر تطلب من الجيش العراقي «تنفيذ عمليات قصف عشوائية باستخدام المدفعية والمروحيات والطائرات في جميع أوقات النهار والليل لقتل أكبر عدد من الأشخاص الموجودين في تلك المناطق المحظورة». كما طلبت الأوامر من القادة الميدانيين في الشمال «احتجاز جميع الأشخاص المعتقلين في تلك القرى واستجوابهم من قبل الأجهزة الأمنية وإعدام كل من كان عمره بين سن الخامسة وسن السبعين بعد استخلاص أية معلومات مفيدة منهم».

بشكل إجمالي، قد يكون علي حسن المجيد مسؤولاً عن مقتل ما يزيد عن مائة ألف إنسان.

أيقظت صلاة علي صدامَ، الذي كان يشخر، وبدوره شرع الأخير، بتعب، في تمتمة صلوات خاصة به مع البقاء مستلقياً على بطنه في سريره. بدا كأنه كان يقوم بذلك بصورة ميكانيكية –كما لو أنه كان يحاول الانتهاء منها بأسرع وقت ممكن. رغم أن حزب البعث، تحت زعامة صدام، كان علمانياً من الناحية النظرية، إلا أنه أطلق «حملة إيمان» في التسعينيات تهدف إلى دفع العراق نحو مزيد من التقوى. بل إنه كان يتبرَّع بالدم على فترات منتظمة من أجل كتابة نسخة من القرآن بالسائل الأحمر القاتم. في الحقيقة، كانت درجة إخلاص صدام في إيمانه الديني مثار جدل كبير، لكن هتش لم يكن ينفق طاقة ذهنية في التساؤل إن كانت صلاة صدام الباردة صادقة أم لا، فذهنه كان مشغولاً بأفكار كانت ستبدو قبل أسبوع فقط مضخَّمة، مثل إمكانية اقتحام المتمردين السنّة للمنطقة الخضراء شديدة التحصين بغية تحرير زعيمهم المخلوع.

وبَّخ هتش نفسه للسماح لمخيّلته بالجموح كثيراً، ولكن مع ذلك، كان هناك شيء مخيف بشأن الوجود في تلك الممرات السفلية في وقت متأخر من الليل، محاطاً برجال ملطَّخة أيديهم بالكثير من الدماء. إن الرجل الذي كان ينام على بُعد أمتار قليلة فقط منه قال ذات مرة: «أتمنى أن تجلب أميركا جيشها وتحتل العراق. أتمنى أن تفعل ذلك لأننا حينئذ سنتمكّن من قتل جميع الأميركيين. سوف نشويهم ونأكلهم». وجد هتش نفسه يساوي بين صدام وهانيبال ليكتر –القاتل التسلسلي الشهير في فيلم

«صمت الحملان»- «إنه الشرير الأعظم على الأرض –شخص قادر على قتلك على الفور».

لما وجد نفسه أشد توتراً مما كان يتوقع، عزم هتش على البقاء متيقظاً وعدم التخلي عن حذره في حضور صدام. فبالإضافة إلى احتمال أن يشن المتمردون بطريقة ما هجوماً من أجل تحرير صدام، طُلب منه أيضاً الانتباه إلى إمكانية أن يحاول جندي مختلّ إيذاء الرئيس السابق، إما بهدف تطبيق العدالة بدون سلطة قانونية (vigilante justice) أو تحقيق الشهرة.

في تلك اللحظات، سمع ضجة آتية من الظلال في آخر الممر. رغم أنه لم يكن يريد مبارحة موقعه، إلا أنه كان مضطراً لمعرفة سبب تلك الضجة، لذا تقدَّم على مهل، وبقلب متسارع، في اتجاه الصوت، قائلاً في داخله: سيكون حظي غريباً إن حدث شيء مجنون في ليلتي الأولى. وبينما كان يدنو ببطء نحو مصدر الصوت، خاشياً من الأسوأ، فإذا بقطة تثب فجأة من الظلال وتندفع مسرعةً بجانبه. فقال هتش في داخله: لابد أنكِ تمازحينني. أحسَّ بالارتياح لوهلة، ولكن سرعان ما تحوَّل هذا الشعور إلى شعور بالحرج حين أدرك توتره.

مضت بقية الليلة دون حدوث أي شيء. غطَّ صدام في النوم مجدداً، وساد الصمت مرة أخرى إلا من شخرة تصدر منه بين الحين والآخر. وعاد هتش إلى روايته المصوّرة بعد أن استطاع أخيراً تخفيف جموح مخيّلته إلى مستوى قابل للسيطرة.

يقول المجند سفار، الذي نفَّذ بدوره نوبات ليلية مشابهة، إن صدام في أوقات كهذه كان يبدو في نومه مثل أسد في حديقة الحيوانات: «كان يبدو مهيباً ومسالماً، لكنك إن أزلت الزجاج، فسترى حيواناً مختلفاً». خلال الأيام والليالي العديدة التي سيتفاعل فيها السوبر اثنا عشر مع الزعيم العراقي السابق ويرون جوانبه المختلفة، سيتساءل الكثيرون منهم عن جذوره. وفي هذا الشأن، يصف الدكتور جيرولد بوست، مؤسسُ وحدة التصنيف النفسي في السي آي إيه، صدام حسين بقوله إنه «أكثر الزعماء الذين درستهم تعرُّضاً لصدمات نفسية».

الفصل الخامس
العوجة، العراق -أواخر الثلاثينيات

العوجة تعني «الانعطافة»، وقد سُمِّيت القرية بسبب انعطافة حادة في نهر دجلة حيث تقع. تشير النخبة في بغداد إلى المنطقة أحياناً مثلما يمكن أن يصف عضوٌ بارزٌ في مدينة هامبتون عاملاً ريفياً ساذجاً من قرية صغيرة في فيرجينيا الغربية. كانت العجوة، بحسب جميع الروايات، قرية منعزلة مخيفة؛ مكاناً أَكسَبَهُ عنفُه شهرةً حتى ضمن مجتمع أكبر كانت النزاعات الدموية فيه شائعة. كانت القرية تعجُّ بقطاع الطرق الذين وجدوا موقعها مثالياً –كانت قوارب الشحن العابرة، في طريقها من الموصل إلى بغداد، معرَّضةً بشكل خاص للقرصنة، وإن على مستوى بسيط، بما أنها كانت مضطرة لإبطاء سرعتها لتجاوز المنعطف الحاد في النهر.

كانت العجوة مدقعة الفقر، يقطنها سكان محليون يتحدثون بلهجة قاسية تفتقر إلى اللباقة، ويشتهرون بميلهم لحل نزاعاتهم بالعنف. يُقال إن سكان تكريت، التي تبعد بضعة كيلومترات فقط عن العجوة في الاتجاه المعاكس لمجرى نهر دجلة، كانوا يغلقون أكشاكهم في السوق عند مجيء رجال أشداء من العجوة إلى المدينة، لمعرفتهم بإمكانية حدوث سرقة ومواجهة عنيفة. كانت المنطقة تشبه «الأراضي الوعرة المجدبة في أفلام الغرب الأميركي»، وكانت عشيرة البوناصر معروفة بكونها «مجموعة قاسية من الناس المخادعين والمتحفظين».

يخبرنا باحث من الشرق الأوسط يُدعى أماتزيا بارام قصة عائلة فيلخا اليهودية من تكريت في الثلاثينيات. كانت هذه العائلة، التي تعمل في التجارة، ميسورة وفق المقاييس المحلية وكانت تعرف امرأة حاملاً تُدعى صبحة من قرية العجوة القريبة. سمع آل فيلخا أن ابن صبحة البالغ من العمر اثني عشر عاماً كان

مريضاً جداً وأنه كان يعاني من نوبات صداع وإقياء، ولعلمهم بأن الأم والصبي كانا بحاجة للوصول إلى المستشفى في بغداد، عرضوا إيصالهما بسيارتهم السيدان السوداء، بما أن شقيقتهم كانت تعيش في بغداد وتسكن قبالة المستشفى على الشارع نفسه.

هرعوا إلى المستشفى واستخدموا علاقات العائلة لضمان الكشف على الصبي بسرعة. بيد أن الوقت كان قد فات، إذ مات الصبي على طاولة العمليات، ربما بسبب ورم في الدماغ، ووقعت صبحة في حالة هيستيرية. كانت صبحة بطبيعتها امرأة غريبة ومختلفة عن بقية القرويين –كانت تعتقد أنها عرّافة- ويبدو أن موت ابنها زاد من اضطرابها وسلوكها الغريب، إذ قيل إنها حاولت ضرب بطنها الحامل بالباب في طريق خروجها من المستشفى -نتيجة شعورها باليأس لموت ابنتها وفقدان زوجها، الذي اختفى قبل عدة أشهر- آملة بزهق روح الجنين البالغ من العمر ثمانية أشهر، قبل أن ترمي نفسها تحت أحد الباصات.

أعادت عائلة فيلخا صبحة الحزينة إلى منزلها في العجوة، وبحسب زعم امرأة من عائلة فيلخا، صرخت صبحة قائلة: «إنني أحمل الشيطان في بطني. هذا الجنين قتل والده وشقيقه ويريد أن يكون الرجل الوحيد في العائلة». على أي حال، رغم اضطراب صبحة الذهني، إلا أنها أنجبت في نهاية المطاف «صبياً وسيماً وذكياً وعذباً، وشقياً ومثيراً للمشاكل إلى حد ما». وأسمته صدام، أي «الشخص الذي يواجه».

يُرجَّح أن صدام نشأ في بيت طيني مكوَّن من غرفة واحدة ضيقة بدون كهرباء وماء جارٍ، وكان ينام على أرض مفروشة بالتراب المرصوص. تعرَّض صدام الصغير لمضايقات قاسية من فتيان القرية لأنه كان يتيم الأب -قيل إنه قُتل في عمل سلب ونهب- وبلا شقيق أكبر يمكن أن يحميه من الإساءات. وبما أنه كان مجبراً على التجوال في الأزقة المغبرة للقرية المنعزلة المحاذية للنهر، يُحكَى أنه اعتاد حمل قضيب حديدي للدفاع عن نفسه من الهجمات. وهكذا تعلَّم بسرعة ما يحتاجه المرء للبقاء في ذلك العالم العدواني، وأصبح ما يُسمّيه العرب «ابن أزقّة».

لم يحظَ صدام بطفولة قط. عندما كان صبياً صغيراً، كان زوج أمه –وكان رجلاً متوحشاً يُعرَف محلياً باسم «حسن الكذاب»- يهجم عليه ملوِّحاً بأنبوب كبير

منقوع طرفه بالقطران المغلي، ناعتاً الصبي بـ «ابن الكلب»، وكان يضحك على نحو مهدِّد حين كان صدام الصغير يحاول تفادي الضربات. حول تلك الطفولة، بدأت محللة في السي آي إيه قصتها بالقول: «عندما كان صدام طفلاً»، قبل أن تصحِّح لنفسها وتقول: «إن كان في أي يوم طفلاً». لقد أُرغم صدام على البقاء اعتماداً على دهائه وقوته منذ نعومة أظفاره.

كان مجتمع العجوة، وما يزال، بطريركياً (أبوياً) بعمق. إن الأعراف القَبَلية والعشائرية في العراق مُهيمنةً في المناطق الريفية، مثل العجوة، أكثر من هيمنتها في المدن الأشد تنوُّعاً. ويسيطر الزعماء المحليون –الشيوخ- على إقطاعياتهم مثل أسياد المافيا، مستخدمين سياسة العصا والجزرة معاً بهدف الحفاظ على الزعامة وضمان بقاء عشائرهم قوية بالنسبة للمنافسين.

بعد أن تربَّى صدام على نمط الحكم الوحشي وغير المتسامح الذي كان سائداً في العجوة عندما كان طفلاً، سيكبر ليصبح أحد أبرع ممارسيه.

الفصل السادس

ما كان بالإمكان أن تكون القرية التي أنجبت صدام حسين أشد اختلافاً عن الحدائق الخلفية الخلابة لبلدة أميرست، في أوهايو، حيث كان كريس تاسكر وأصدقاء طفولته يعيدون تمثيل معارك الحرب الأهلية بواسطة بنادق دمى مدَّعين أنهم الضباط والجنرالات الذين قرؤوا عنهم في كتب التاريخ. كان الفتيان يلتقون بعد المدرسة، ويرتدون بحماس أجزاء غير ملائمة لقياسهم من أزياء حقبة الحرب الأهلية –لم تكن عائلة تاسكر تملك ما يكفي من المال لشراء زي مناسب له- ويتدرَّبون على التشكيلات العسكرية. بل إن صديقه استطاع العثور على طريقة إعداد بسكويت الهاردتاك -(*hardtack*) مكوّن غذائي رئيسي لجنود المشاة خلال الحرب الأهلية- وكان يعدُّها لهم ليتناولوها أثناء تظاهرهم بإنشاء مخيّم.

لم تتغيَّر أميرست كثيراً منذ أيام الطفولة تلك. الفرق الكبير هو أن تاسكر، عندما كان يعود إلى المنزل بين المهمات، لم يعد يتجوّل في البلدة مرتدياً زياً اتحادياً أو كونفدرالياً لا يناسب قياسه، بل كان وأصدقاؤه الراشدون يمضون أوقات فراغهم في التنقُّل بين حانات كابتن كلَب وبور هاوس وزيغي في جادة بارك أفينيو وسط البلدة، التي كان عدد سكانها يبلغ أكثر بقليل من اثني عشر ألفاً في ذلك الحين، حيث كان السمك المقلي ما يزال رائجاً في مطعم «بوست 1662 لمقاتلي الحروب الخارجية» في ليالي الجمعة خلال فصل الربيع –بقعة وطنية على نحو ظاهر على خارطة ولاية أوهايو، إذ غالباً ما كانت تُغطَّى بالأعلام الأميركية؛ ذلك النوع من الأمكنة التي تحتفي بها مرثيات بروس سبرينغستين بشأن الطبقة العاملة في حزام الصدأ.

قبل توجهه إلى العراق، كان تاسكر يتكتّم دائماً بشأن الوقت الذي أمضاه في

أفغانستان خلال ارتياده البارات في بلدته. كان يجيب بتهذيب على الأسئلة إن سُئل، لكنه لم يكن يبادر من تلقاء نفسه لسرد القصص، لأنه لم يشأ أن يكون من أولئك الذين يُوصَفون على سبيل التهكُّم بـ «أبطال مسقط الرأس» –أولئك الذين يخدمون كموظفي إمداد في المهمات الخارجية ومن ثم يعودون بقصص ملأى بالدماء والشجاعة.

وكان تاسكر يحاول أيضاً الاستمتاع بكل لحظة تجمعه بحبيبته أماندا، لأنه كان يعلم من تجربته الشخصية كيف يكون الحال عندما يمضي الشاب عاماً كاملاً بدون صحبة أنثى. كانت أماندا شقيقة أحد أصدقاء طفولته وكان يعرفها منذ سنوات طويلة، لكن وقوعه في حبها لم يبدأ إلا عندما ذهب لحضور حفلة عيد ميلادها خلال إجازة في مرحلة التدريب العسكري الأساسي. وتنامت قوة علاقتهما النظرية خلال مهمته التالية في أفغانستان.

عندما عاد إلى الولايات المتحدة، كانت المسافة التي تفصل بينهما ما تزال بعيدة، ولكن ليست بعيدة جداً -كانت أماندا في ولاية أوهايو وهو في فورت كامبل. حاول قطع تلك المسافة، التي تستغرق ست ساعات بالسيارة، من أجل زيارتها أكبر عدد ممكن من المرات. لكنه كان يشعر ببعض الغرابة أحياناً في أثناء تجواله مع أماندا وأصدقائها ضمن حرم الجامعة، لأنه فعل أشياء في أفغانستان تفوق تصوُّر معظم الطلاب الذين كانت حياتهم محدّدةً بفريق الولاية لكرة القدم وحفلات الأخويّات. في تلك اللحظات، كان تاسكر يشعر بالفخر وبقليل من الحزن في آن واحد.

وخلال وجوده في العراق، بذل تاسكر قصارى جهده للبقاء على تواصل مع عائلته في أوهايو. كان يتذكَّر كم كانت أمه تشعر بالقلق خلال وجوده في أفغانستان، وكان يعلم مدى أهمية طمأنتها. بالنسبة للجنود الأميركيين، كانت إمكانية الحفاظ على هذا التواصل الوثيق مع الوطن من الميزات الفريدة لحروب القرن الواحد والعشرين. بصورة عامة، كان يُنظَر إلى سهولة التواصل على أنه أمر جيد، رغم أن كون الجندي على بُعد إيميل فقط يعني وجود احتمال دائم بأن يسبب له مشكلة عويصة.

عندما كان تاسكر يستخدم أحد الكمبيوترات المشتركة بين السوبر اثني عشر للتواصل مع الأصدقاء والعائلة، كان يحرص على عدم تكرار خطأ ارتكبه مؤخراً حين بدأ إيميلاً موجهاً إلى والده، يخبره فيه بأن موكبه تعرَّض لإصابة بواسطة عبوة

ناسفة يدوية الصنع (IED)، بعبارة «لا تخبر أمي». لم يكن يعلم أن والديه كانا يتشاركان كلمتي سر بريديهما الإلكتروني، وأن أمه قرأت الرسالة أولاً، مع ما يمكن توقعه من تأثير على مستوى قلقها. ولم يكن قلقها، في الواقع، بلا داعٍ، ففي تلك المرحلة من العام 2006، كانت الشبكات الإخبارية في أميركا منشغلة في بث مقاطع مصورة مروّعة حول العنف في شوارع بغداد وتتحدث عن ما يقرب من مائة عراقي يفقدون أرواحهم في كل يوم.

عندما فتح تاسكر صندوق بريده الإلكتروني، وجد إيميلاً من أمه تبلغه فيه بأنه تلقى رسالة من قسم السلامة العامة في أوهايو، وأنه كان بحاجة لدفع غرامة قدرها مائتا دولار بسبب مخالفة السرعة القانونية. بعد انتهائه من قراءة الإيميل، تنفَّس تاسكر الصعداء لأن الأمر لم يكن أسوأ.

قبل فترة قصيرة من مهمته الأخيرة، ارتكب تاسكر وصديقه آدم روجرسون أمراً غبياً، مع أن ذلك، مثل معظم الأشياء التي يفعلها الشبّان، لم يكن يبدو لهما بأنه غبي في حينه –أو على الأقل، ليس غبياً تماماً بقدر ما كان واضحاً أنه كذلك.

كان الجنديان، المثبَّتان بحزامي الأمان في سيارة تاسكر الموستانغ الفضية القوية، يأملان بقطع مسافة الساعات التسع التي تفصل قاعدة فورت كامبل -على الحدود بين تينيسي وكنتاكي- عن بلدة تاسكر، أميرست، في أوهايو، في سبع أو ثماني ساعات. كان الشرطيان العسكريان يتطلّعان لاستغلال الحرية التي ستمنحها لهما واحدة من عطل نهايات الأسبوع الأخيرة إلى أقصى مدىً ممكن. كانا ما يزالان يرتديان الزي الرسمي، وذلك مخالف للقوانين عملياً، لكنهما لم يكونا يريدان إهدار أية ثانية بعد خروجهما من القاعدة. كان سقف السيارة مُنزَلاً، وكانت حرارة النهار الجنوبي الطويل تفسح المجال ببطء لليلٍ أكثر برودة. كان الطريق فارغاً في كلا الاتجاهين، وبعد أسبوع طويل من التعرُّض للصراخ من الضباط غير المفوَّضين والضباط المتوترين، كانا مستمتعين بالحرية في الطريق المفتوح فارتفعت الإبرة على مقياس السرعة شيئاً فشيئاً.

وفجأةً، شاهدا وميض سيارة شرطة تسير في الاتجاه المعاكس. مرَّت بضع ثوان طويلة محبوسي الأنفاس، آملين بأن لا تقطع صفارة إنذارها هدوء شفق كنتاكي الناعم. وبعد ذلك شاهدا أضواء مكابح سيارة الشرطة تومض.

اللعنة، لابد أنه يستدير ليعتقلنا؛ هذا ما خطر في ذهن كليهما في وقت واحد.

قال روجرسون لتاسكر: «زد السرعة. يمكننا أن نسبقه». مما يدعو للسخرية أن روجرسون كان يريد أن يصبح شرطياً بعد خروجه من الجيش. حول هذه الحادثة سيقول روجرسون لاحقاً: «لا أعلم بماذا كنا نفكر. شرطيان عسكريان شابان يتطلّعان إلى تلك الإثارة الأخيرة، كما أظن».

استجابت الموستانغ لدعسة قدم تاسكر وزمجرت فوق الطريق السريع. كان مقياس السرعة قد تجاوز مؤشر الـ 100 ميل في الساعة بكثير عندما شاهدا الأضواء الزرقاء تومض في مرآة الرؤية الخلفية. ولعدم وجود أية خيارات حقيقية، خفض تاسكر السرعة مُكرَهاً وأوقفها على كتف الطريق.

بينما كان شرطي سَير ولاية كنتاكي يقترب منهما، خطر في بال كلا الجنديين أنهما كانا بلا شك يبدوان سخيفين جداً. شارتا الشرطة العسكرية الكبيرتان ظاهرتان على ذراعيهما ويقودان السيارة بسرعة فائقة على الطريق كأنهما كانا في مشهد من ذلك الفيلم القديم «سموكي واللص». نظر الشرطي إليهما باستغراب.

وقال: «أنتما محظوظان لأنكما ترتديان هذا الزي وإلا كنتما الآن منبطحين على الإسمنت وفي طريقكما إلى السجن».

فأجابه تاسكر بهدوء، رغم جريان الأدرينالين في جسده: «في الحقيقة، أنا مسرور أيضاً لأنني أرتدي هذا الزي».

بحلول ذلك الوقت، كانت قد وصلت سيارة شرطة أخرى إلى المكان وترجَّل الشرطي منها –وأُنير شفق كنتاكي بمزيد من الأضواء الزرقاء. قال الشرطي الثاني: «خيراً فعلتما بالتوقف. كنت جالساً عند المخرج التالي مع شريط مسامير ممدود عبر الطريق. وهنالك مروحية في طريقها إلى هنا أيضاً».

تُرك تاسكر يمضي في سبيله مع غرامة كبيرة واستدعاء للحضور إلى المحكمة في نفس اليوم المقرر لسفرهما الوشيك للالتحاق بمهمتهما الجديدة. أدرك كلاهما حينئذ بأنهما كانا بحاجة للنضج قليلاً.

لم يكونا يعلمان أنهما سينضجان بسرعة في العراق في 2006.

الفصل السابع
بغداد، العراق -صيف العام 2006

مع تلاشي ذكريات أوقات اللهو التي سبقت إرسالهم إلى العراق، وجد السوبر اثنا عشر أنفسهم غارقين كلياً في مهمة حراسة الرجل الذي كان معظم الناس في الوطن يعتبرونه وجه «محور الشر». في الأوقات التي لم يكن خلالها صدام ينتظر جلسات المحاكمة في «السرداب» أسفل المحكمة العراقية العليا، كان الشرطيون العسكريون الاثنا عشر يحرسونه في قصر سابق تعرَّض للقصف قيل أنه كان يخص ابن صدام، عدي. يقبع القصر فوق جزيرة صغيرة لا يمكن الوصول إليها إلا عبر جسر متحرك. وكان صدام قد نُقل إليه خلال الصيف الذي تلا اعتقاله واستجوابه اللاحق في معتقل كروبر. وأُبقي سرُّ نقله إلى هذه الجزيرة التي كانت تخضع لإجراءات أمنية مشددة -مخفياً ضمن «معسكر النصر» الأكبر التابع للجيش الأميركي- طي الكتمان الشديد.

أطلق السوبر اثنا عشر على القصر الذي أصبح سجناً اسم «الصخرة» تيمُّنا بالفيلم الذي يتحدث عن سجن ألكاتراز. كان الوضع يبدو كما لو أن الدكتاتور كان مُخبَّأً، ولكن أمام أعين الجميع، فقد كان السجين الوحيد هناك وكان مُحتجَزاً داخل زنزانة وحيدة مجهزة بمعدات مراقبة فائقة التطور. من الخارج، لم يكن المبنى يبدو بالنسبة لأي ناظر أكثر من قصر متداعٍ. ورغم أن الجنود الذين كانوا يحتجزون صدام حاولوا منعه من معرفة موقعه، لدرجة أنهم استخدموا بطانيات لتغطية نوافذ العربات عند نقله إلى المحكمة، إلا أنه استنتج مكانه بدقة بعد فترة وجيزة. وهذا ليس غريباً، في الواقع، لأنه ساعد بنفسه على تصميم بعض المباني، والحرفان الأوليان من اسمه منقوشان على أعمدة وأسقف الكثير منها.

يقع «الصخرة» بالقرب من قصر صدام «الفاو»، الكائن ضمن ما كان في السابق منتجعاً فاخراً خاصاً بعائلة صدام وكبار الشخصيات في حزب البعث، ويبعد عشرة كيلومترات عن المنطقة الخضراء في بغداد، مركز الحكومة العراقية السابقة ومقر الاحتلال الأميركي حينئذ. كان المبنى الذي أطلقوا عليه اسم «الصخرة» واحداً من مجموعة من المنازل الكبيرة والفيلات التي تنعَّمت بها نخبة الحزب سابقاً. وكان موقع المجمَّع الاستراتيجي بقرب المطار الدولي أحد أسباب اختيار الأميركيين له ليكون مركزاً لوجيستياً أساسياً يؤوي آلاف الجنود.

في هذ المكان، كان صدام ووزراؤه الأثيرون يستمتعون، قبل عدة سنوات فقط، برحلات الصيد وما يعقبها من عشاءات فاخرة، وكان ابنه عدي ينغمس في حفلاته الجنسية الجماعية الساديّة المُغَذَّاة بالكحول والمخدرات، لكنه تحوَّل، مع إنشاء «معسكر النصر» عليه، إلى ما يشبه بقعة مصغَّرة من أميركا. كان يحوي مطعم «بيرغر كينغ» ونفقاً، واستضاف مجموعة واسعة من نجوم الفنون الترفيهية، من مغني الريف الأميركي توبي كيث إلى نجوم المصارعة الحرة الترفيهية -حظيت المصارِعات (WWE Divas) شبه العاريات بشعبية خاصة.

طُلب من السوبر اثني عشر تجنُّب التفاعل مع الزعيم المخلوع، مع بذل قصارى جهدهم لإبقائه سليماً وسعيداً خلال خضوعه للمحاكمة. لم يكن بوسع القيادة الأميركية تحمُّل تبعات حتى أبسط التلميحات إلى إساءة معاملته، وكانت ترى أنه كلما ازداد شعور صدام بالرضى، كلما سارت محاكمته بسلاسة أكبر. في البداية، حرص جنود الشرطة العسكرية على عدم الدخول في حوار معه، مقتصرين في تفاعلهم معه على «أجل يا سيدي» و«لا يا سيدي». لكن الجنود كان يمضون 24 ساعة في اليوم معه -مقسَّمة إلى ثلاث نوبات من ثماني ساعات- وعليه فإن بعض الدفء من كلا الطرفين كان أمراً محتوماً.

بين الحين والآخر، كان صدام ينقل طلباته إليهم عبر مترجمه، جوزيف – وهو أميركي لبناني ضخم الجسم أُلحق بالدكتور السجين قبل عام- كأن يطلب من الجنود تعديل منظِّم درجة الحرارة أو جلب بعض الشاي. واستمر هذا الوضع لبعض الوقت –تفاعلات مرتبكة في الغالب. وبعد أشهر، دخل تكر داوسون، أصغر الاثني عشر، في لعبة قط وفأر –تكاد تكون طفولية- حاول صدام فيها الإمساك بتَكَر عند

تحديق الأخير فيه. حول هذا الأمر، يقول تكر: «كنت مثل طفل صغير. لقد رأيته على التلفاز يلوّح بـ Ak (بندقية كلاشينكوف) في الهواء وأشياء من هذا القبيل. وها هو ذا قابع في زنزانة. وأنا كنت أنظر إليه فقط. ومن ثم نظر إلي، فأشحتُ بنظري عنه بسرعة ... بعد ذلك نظر إلي بسرعة أكبر. كان يمازحني. وأخيراً نظر إلي بسرعة كبيرة حقاً وقال: 'أمسكتك!' ثم شرع بالضحك. كان لسان حالي يقول: 'أجل يا سيدي'، وكان لسان حاله يقول: 'أأنتَ جديد؟'، 'أجل سيدي'. وضحك. 'هه هه هه هه'. هكذا ضحك. كانت لديه ضحكة صغيرة مجنونة».

وكان هتش -المخضرم الذي أُرسل في مهمات متنوعة كشرطي عسكري والمدرك لمزالق الاقتراب كثيراً من المحتجزين- عازماً على التعامل مع المهمة الجديدة على أنها لا تختلف عن أية مهمة أخرى، وعلى اعتبار مسؤولية حماية الرئيس السابق «لا أكثر ولا أقل من حرق البراز في البراميل» –أحد الواجبات الأشد وضاعةً التي كانت تُوكَل أحياناً لذوي المراتب الدنيا من الجنود في أفغانستان والعراق. وكان مرتاحاً لحقيقة أنه في البداية لم يكن «موجوداً في عيني صدام». لقد حافظ على حذره من السجين، مذكِّراً نفسه دائماً بأن الرئيس السابق كان يُعتبَر بصورة عامة «أحد أعنف الأشخاص في العالم».

على هذا الأساس، كانت الأسابيع القليلة الأولى من مراقبة صدام بالنسبة للسوبر اثني عشر مزيجاً من الخوف واليقظة المتوترة والضجر. كان الوضع بالنسبة لأولئك الجنود الشبان يشبه زيارة حديقة حيوانات وأن تكون مجبراً على مراقبة مخلوق قاتل، لكنه نادراً ما يفعل أي شيء سوى الجلوس، والتكرُّم بين الحين والآخر بالمشي في القفص لإثارة المشاهدين المجتمعين.

وبشكل بطيء، بدأ الوضع يتغيّر. ذات ليلة في أواخر الصيف، بعد مرور بضعة أسابيع على بدء مهمتهم، وجد هتش وبول سفار نفسيهما جالسين قبالة الرئيس السابق في منطقة الاستراحة الخارجية المفتوحة، والقريبة من زنزانته في «الصخرة». كانت غرفة بطول خمسة أمتار وعرض مترين ونصف تقريباً، ذات جدران إسمنتية مرتفعة تعلوها أسلاك شائكة. رغم افتقارها إلى أي شيء مميز، إلا أنها كانت توفِّر شيئاً قيّماً بالنسبة لسجين يمضي معظم وقته في زنزانة بلا نوافذ؛ إطلالة نهارية على سماء بغداد الزرقاء عموماً، وإطلالة ليلية على سمائها الصافية

غالباً.

كان المترجم، جوزيف، يجلس بجوار الرئيس السابق، مشكِّلاً رباعياً غريباً - هتش، حارس الحانة السابق، وسفار، عامل البقالة السابق الضخم والمليء بالوشوم، وجوزيف، الأميركي اللبناني ذو الوقار الغامض، وأخيراً، الرجل الذي كان يبدو مقدَّراً عليه بأنه سيُحكَم كواحد من أسوأ المجرمين في التاريخ.

في قاعدة فورت كامبل، كان من النادر بالنسبة لجنود من الرتب الدنيا، مثل هتش وسفار، مقابلة شخص رفيع المستوى مثل كولونيل في الجيش، وفي المناسبات التي قد يحدث فيها ذلك، مثل حفلة راقصة لأحد الألوية العسكرية، من الممكن أن يكون جَسرُ الهوّة في الرتب مربكاً إلى حد فظيع. لكن الشرطيين العسكريين كانا جالسين على بُعد بضعة أقدام فقط من رئيس دولة سابق -يُحاكَم بناءً على تهم تتعلق بارتكاب جرائم حرب وجرائم بحق الإنسانية.

كان سفار، بصفة خاصة، يشعر بتنافر معرفي. لقد تربّى في أسرة مفكَّكة في مجتمع أورلاند الزراعي الصغير، في كاليفورنيا، حيث كان يمضي أوقاته مع «الأولاد المشاغبين» سعياً وراء شقاوات غير مؤذية مثل التسلل إلى مواقع إنشائية وأبنية مهجورة. كما هو حال معظم البلدات الصغيرة، كان الجميع في أورلاند يعرفون بعضهم. حول تنشئته هذه، سيقول سفار لاحقاً: «لم يخطر في بالي قط الدراسة في الجامعة». انضمّ سفار إلى الجيش بدافع وطني -سيراً على نهج جده الذي كذب بشأن سنِّه من أجل الالتحاق بالحرب العالمية الثانية –ولكن أيضاً لأنه لم يشأ إمضاء بقية حياته في العمل وراء طاولة المحاسبة في متجر البقالة وتكديس عربات التسوُّق.

وها هو ذا جالس مع هتش على كرسيين بلاستيكيين ضعيفين، ضمن «مسافة وثبة» آمنة، قبالة صدام حسين، الذي كان يجلس على كرسي بلاستيكي أحمر ذي مسندين للذراعين أُلصقت عليهما وسائد مطاطية كي يكون مريحاً لظهر الرجل الكهل. كانت هناك طاولة بلاستيكية صغيرة تفصل بينهما وبين صدام والمترجم. عند الزاوية البعيدة من منطقة الاستراحة، مقابل باب، كانت هناك بقعة من التراب نمت فيها بعض الأعشاب، وكان صدام يسقيها يومياً كما لو كانت ورداً جميلة، مع أنها كانت مجرد أعشاب قبيحة.

كان صدام وجوزيف يدخنان سيجارين من نوع كوهيبا ويدردشان بحميمية، كأنهما متقاعدان يلتقيان على العشاء للتحدث حول الأحداث الراهنة، ولم يكن باستطاعة هتش وسفار، بالطبع، فك شيفرة كلماتهما العربية. وبينما كانا ينظران إلى السماء المرصّعة بالنجوم، محاولينِ التزام الهدوء كي لا يزعجا الرئيس السابق، وجد الجنديان نفسيهما أحياناً يفكران في تدريبات ليلية متأخرة في قفار تينيسي، ويتخيلان شرائح اللحم التي كانوا يلتهمونها في مطعم آوتباك ستيكهاوس فور عودتهما إلى منزليهما.

في ليالٍ كهذه، كان صدام يبدو بأنه يستمدُّ سعادة هائلة من متع بسيطة، مثل تدخين سيجاره. كان يسحب سيجار الكوهيبا بعناية فائقة –وبطريقة تكاد تكون مسرحية- من علبة المناديل الرطبة الفارغة التي كان يستخدمها لحمل سجائره، ومن ثم كان يشعلها ويستمتع بكل استنشاق قبل أن يزفره. كان الجنود مستغربين بشأن المكان الذي كان يحصل منه على مخزونه –غير المحدود في ما كان يبدو- من السيجار.

فجأةً، التفت جوزيف إليهما، محوّلاً انتباهه من حواره مع صدام، وقال لهتش: يريد أن يعرف من أين أنت، قوميتك.

تَفاجَأ هتش لوهلة، فحتى تلك اللحظة بدا له بأن الرئيس السابق لم يكن يعتبره أكثر من كرسي فناء إضافي، فإذا به يريد أن يعرف شيئاً ما عنه. قال هتش لجوزيف: أخبره بأنني أميركي.

فقال جوزيف: لا، لا، قبل ذلك.

فأجاب هتش: حسناً، أعتقد أنني أوروبي.

وهنا دخل صدام بشكل مباشر إلى الحوار قائلاً: لا، لا، هناك المزيد –ما يعني أنه كان يتابع المحادثة بأكملها بين هتش وجوزيف باللغة الإنكليزية. كانت تلك أولى الإشارات المدهشة إلى لغته الإنكليزية الجيدة. وسيعلم السوبر اثنا عشر بأن صدام كان يستخدمها بشكل استراتيجي للتواصل مع الأشخاص الذي يريد التحدث معهم.

لم يكن هتش متأكداً مما كان صدام يقصده، لذا سأل جوزيف: ماذا يقصد؟ ماذا يريد مني؟

فقال جوزيف: يريد فقط أن يعرف أصلك.

هممم، حسناً، جزء مني أميركي أصلي أيضاً.

لعل صدام كان يتساءل بشأن عرق هتش، لأن بشرته اسمرَّت كثيراً بفعل التعرُّض لشمس العراق القاسية. فجأةً، وضع الرئيس المخلوع يداً على شكل ريشة خلف رأسه واليد الأخرى أمام فمه مقلِّداً صرخة حرب هندية، وعندئذ انفجر هو وهتش بالضحك.

كان راديو صدام البدائي يبث موسيقاه بهدوء في الخلفية. لقد عُرض عليه الحصول على أداة ترفيهية أكثر عصريةً، مثل قارئة دي في دي محمولة، لكنه فضَّل الراديو القديم بهوائيّيه الباحثين عن إشارات في السماء الصحراوية. كان يتنقل أحياناً بين الأغاني العربية والأغاني الأميركية الرائجة. ومما يدعو للاستغراب أنه كان دائماً يتوقف عن البحث عندما يصادف أغنية لماري ج بليج.

دخل سفار لتحضير القليل من شاي ليبتون –كان صدام يشربه على الفور ويستمتع به بالعسل والسكر، وإذا لم يكن الماء مغلياً، كان يطلب من الحراس غليه مجدداً. عندما عاد سفار مع الشاي، أشار صدام له ولهتش بالاقتراب منه؛ أمر لم يحصل من قبل. اقتربا من الرئيس السابق بقلق، كأنهما كانا يقتربان من دب بري ظهر فجأةً أمامهما على درب كانا يسلكانه.

فتح صدام كتاباً كان مستلقياً على الطاولة البلاستيكية، وراح يقلِّب في صفحاته بينما كان الجنديان ينظران من فوق كتفيه. كان يتمعَّن فيه بعناية من خلال نظارته الخاصة بالقراءة، متوقفاً بين والحين والآخر عند صورة كانت تبعث في نفسه، فيما يبدو، ذكرى خاصة.

وأخيراً، أشار إلى صورة له عندما كان طفلاً في المدرسة. في الحقيقة، لقد صنع حزب البعث من مسألة تمكُّنه من ارتياد المدرسة أسطورة، إذ تقول القصة إن صدام الصغير، مدفوعاً بالطموح واللهفة للخلاص من إساءة معاملة زوج أمه ومن

مستقبل كئيب كمزارع يعيش على الكفاف في قرية العجوة، تسلّل من كوخ أمه الطيني في منتصف الليل وشق طريقه وحيداً عبر دروب موحشة ملأى بقطاع الطرق متوجهاً نحو بيت خاله خير الله طلفاح في تكريت. كان خير الله ضابطاً سابقاً في الجيش ووطنياً عراقياً أمضى وقتاً في السجن لمشاركته في ثورة ضد البريطانيين.

قال صدام لهتش وسفار باللغة الإنكليزية دون أن يرفع عينيه عن الصور في الصفحة: لقد طردني المدير عندما كنت صغيراً!

أخبر صدام الجنديين -بعينين تبرقان استمتاعاً باهتمام جمهوره المتحمس- كيف غضب خاله من المدير عندما طرده من المدرسة. لقد اعتبر خاله ذلك إهانة للعائلة بأكملها.

قال صدام: دفع المدير ثمن هذه الإهانة. عندما سمع بخبر طردي، أعطاني مسدساً وطلب مني التأكد من أنه سيسمح لي بالعودة!

توقف صدام ليشرب من شايه ويسحب نَفَساً من سيجاره، ثم أنهى القصة بإسناد ظهره على الكرسي والابتسام، تاركاً مصير المدير التعس لمخيّلة الجنديين.

سيبدأ هتش بملاحظة اختلاف في سلوك صدام اعتماداً على من كان يتولى مهمة الحراسة. وإدراكه بأنه كان واحداً ممن يستحسن صدام صحبتهم، ويستمتع بها من الجنود، بعثَ في نفسه شعوراً غريباً بالإثارة. ولم يكن هذا الشعور مقتصراً على السوبر اثني عشر، إذ تصف امرأة عراقية -كانت عائلتها جزءاً من الدائرة الداخلية لصدام لفترة من طفولتها- قدرتَه الغريبة على دفع الناس لإرضائه: «عندما كنتَ تفعل شيئاً يثير إعجاب عمو [صدام]، كانت عيناه تشرقان عليك. كنا جميعنا نعرف تلك النظرة البرّاقة ونسعى إليها. كانت مثل الجائزة، الوديعة التي تضعها في البنك تحسُّباً لفترة جفاف».

وكان مساعدو صدام يشعرون بالشيء نفسه حين كان على رأس السلطة، بيد أن عواقب السقوط من دائرة المقرَّبين يمكن أن تكون مميتة.

الفصل الثامن
قاعة الخلد للمؤتمرات، بغداد -22 تموز 1979

كان صدام حسين جالساً على منصة مرتفعة في قاعة الخلد للمؤتمرات، مرتدياً بذة أنيقة وبيده سيجار ضخم يسحب منه أنفاساً عميقة بين الحين والآخر. وقد حضر في الصالة الحارة أمامه نحو ألف قيادي في حزب البعث، يتململون بقلق على كراسيهم ويقومون بتهوية أنفسهم بأيديهم من شدة الحر. أما صدام فكان يبدو مرتاحاً تماماً، بل غير مكترث في بعض الأوقات. كان آنذاك رئيساً للعراق –في عمر الثانية والأربعين- وقد فاز بالمنصب من خلال قسوته ودهائه وبراعته التكتيكية الاستثنائية في المؤامرات الحزبية الداخلية.

بدأت الجلسة مع طه ياسين رمضان –نائب صدام لمدة طويلة- الذي أعلن بحزن اكتشاف مؤامرة مؤلمة وبشعة، وقال إن المتآمرين موجودون بين الحضور وستُكشَف أسماؤهم بعد دقائق.

وبعد ذلك قِيدَ السكرتير العام للحزب، محيي عبد الحسين مشهدي، إلى المسرح. كان مشهدي قد ارتكب خطأ الاعتراض علناً على الاستقالة الغامضة لسَلَف صدام، أحمد حسن البكر -الاستقالة التي دفعت صدام إلى الرئاسة. قيل إن مشهدي خُيِّر بين أمرين، إما الاعتراف علناً بالمشاركة في مؤامرة تضم اثنين وعشرين عضواً آخر في الحزب يُشتَبَه بمشاطرتهم اعتراضَه، أو أن يكون آخر ما تشهده عيناه هو اغتصاب زوجته وبناته أمام عينيه قبل قتله. اختار مشهدي الخيار الأول، ربما مع بصيص أمل بإنقاذ حياته.

كان مشهدي يرتجف بوضوح حين بدأ كلامه، وكان صوته مضطرباً وجافاً.

وكان صدام يقاطعه بين الحين والآخر بأسئلة توجيهيه، لتخفيف مظهر التلقين قدر الإمكان ولضمان سردِ مشهدي للقصة بكامل تفاصيلها الملفّقة. لقد حُوِّل مشهدي إلى ممثِّل مثير للشفقة -علَّ أداؤه ينقذ حياته. ولأن صدام كان يريد أن تخرج كلمات مشهدي بسلاسة أكبر من أجل توريط الأشخاص المناسبين، نهض عن كرسيه على المنصة ودعا مشهدي للجلوس مكانه ليكون مرتاحاً عند الدخول في التفاصيل.

وبعد عودته إلى المنصة، أَخرَجَ صدام قائمةً بأسماء المتآمرين المزعومين وقال ببرود باللهجة العاميّة: «اللي رح أقرا اسمه يقوم يردد الشعار ويلحق ربعَه». ثم بدأ بقراءة الأسماء على مهل، ومع كل اسم يُعلَن، كان أحد الأشخاص يقف ويخرج لمواجهة مصيره. اقتيد بعضهم بواسطة رجال الأمن في حين خرج آخرون من تلقاء أنفسهم بعد ذكر أسمائهم، مع الحرص على عدم الدوس على أصابع الآخرين خلال خروجهم. وقف شخص بذعر واضح وسأل صدام إن كان اسمه قد ذُكر، فتوقف صدام وكرّر الاسم وحينئذ خرج الرجل متوجهاً بانصياع إلى حتفه المعلوم لديه حتماً. كان العدد الإجمالي للمتآمرين المزعومين ستة وستين.

وثب بعض الوقحين وصرخوا: «يعيش صدام»، كأنهم يريدون بذلك إبعاد أي احتمال بأن يذكر الزعيم أسماءهم على سبيل الاستطراد لاحقاً. وراح الحشد يصفِّق بشدة، بطريقة تذكّر المرء بحكايات –لعلها ملفّقة- حول جمهور ستالين الذي كان يقف ويصفِّق إلى أن يسقط بعضهم مَغشيّاً عليه، خوفاً من أن يكونوا أول من يتوقف عن التصفيق فيوصَموا بأنهم أعداء الدولة. في حين بكى آخرون، ربما لشعورهم بالارتياح لخلاصهم من التعذيب والموت. كان صدام، في الواقع، تلميذاً مخلصاً لستالين، إذ يُحكَى أنه كان يحتفظ بمكتبة شخصية تعجُّ بدراسات حول شخصية الطاغية النموذجية.

بل لقد تمكَّن صدام من ذرف بضع دموع مسحها بمنديل، كما لو أنه تأثَّر، هو أيضاً، بتلك الخيانة المؤلمة.

ظهرت على وجهه نظرة اشمئزاز خاطفة بينما كان ينظر إلى المسؤولين المرعوبين والجمهور الذي صاح مطالباً بالدم بصرخات كانت تعلو بشكل تدريجي مثل الكريسندو في الموسيقا. صرخ أحد المتملقين قائلاً: «نطالب بإعدام الخونة». فتفاعَلَ صدام مع تعطُّش الحشد المتصنِّع للدم، متسائلاً: «ماذا نفعل مع الخونة؟ أنتم

تعرفون كيف سنتعامل معهم؛ لا شيء سوى السيف».

صُوِّرت الإعدامات بواسطة جهاز الأمن التابع لصدام. عُصبت أعين المدانين وأُرغموا على الركوع على ركبهم وهم مقيدو الأيدي خلف ظهورهم. قيل إن صدام قاد العملية بينما كانت الكاميرا تُقرِّب الصورة لتُري سلسلةً وحشيةً من البنادق تُصوَّب على رؤوس «المتآمرين»، وزنادات تُجذَب، وطلقات تنفجر في الأدمغة، وأجساداً تنهار على الأرض، وآخر زفرات الحياة تُلفَظ على التراب. وبعد ذلك وُزِّع الشريط على الحزب وقيادة الجيش.

لم يسلم حتى أقرب أصدقاء وأصحاب صدام الشخصيين من التطهير، إذ تضمَّنَ المدانون مساعداً كثيراً ما كان يشارك صدام وزوجته، ساجدة، طعام العشاء على مر السنين. قيل إن زوجة الرجل كانت في رحلة تسوُّق في باريس مع ساجدة عند إعدامه.

إن الصبي الصغير الذي نشأ في قرية العوجة العنيفة والعدوانية، والذي اضطُّرَ مراراً لتعلُّم كيفية السيطرة على خوفه، أصبح هو نفسه خبيراً في استغلال الخوف على نحو استراتيجي. لقد تمكَّن في نهاية المطاف من استئصال أية إمكانية لأن يقوم منافسون محتملون بمعارضته بعد أن باتت غريزة الحفاظ على الذات هي التي تقودهم، مثل قطيع من الحيوانات دفعهم الخوف من حيوان مفترس إلى الفرار.

الفصل التاسع
بغداد، العراق -صيف العام 2006

جلس كريس تاسكر يشاهد الرئيس السابق للعراق وهو يضع بحذر صينية الفطور على طاولة سريره الجانبية ويقرّب نفسه إلى حافة سريره. تناول صدام بحرص سكيناً وشوكة واستعدَّ للبدء بفطوره المكوَّن من عجّة بالخضروات وبعض الكعك الدائري والفواكة الطازجة. كان تاسكر يراقب من مكان قريب خارج زنزانة الرئيس السابق في «الصخرة»، وراء منضدة صغيرة وُضعت هناك كي يستخدمها الجنود. رغم أن تاسكر كان يدرك على نحو مجرَّد ما يقدر عليه صدام من عنف، لكنه لم يكن أبداً قادراً على الشعور –على المستوى الغزيزي الداخلي العميق- بما أحسه مسؤولو حزب البعث الذين استُدعوا إلى قاعة الخلد في ذلك اليوم الحار من شهر تموز في 1979. كان العراقيون تحت سلطة صدام يمتلكون إدراكاً حدسياً لفيزيولوجية الرعب بطريقة يصعب على الجنود الأميركيين فهمها تماماً، أياً تكن عدد الساعات التي أمضوها مع الحاكم المخلوع.

كان تاسكر في بعض الأوقات ما يزال غير قادر على التصديق بأنه قبل بضع سنوات فقط استُدعيَ ورفاقه المجندون خلال مرحلة التدريب الأساسي للاستماع إلى إعلان هام.

كان قد بقي على تخرُّج تاسكر من التدريب الأساسي بضعة أيام فقط حين دعا الرقيبُ، المسؤولُ عن التدريب، المجندين إلى إحدى قاعات الاستراحة في قاعدة فورت ليونارد وود. كان الثلج يغطي القاعدة مترامية الأطراف، ناشراً طبقة من الضباب فوق هضاب ميزوري المتموّجة ومُثيراً في الذهن خواطر حول الكريسمس الذي كان يبعد أسبوعين فقط. بيد أن هدية الكريسمس المبكرة التي تلقوها كانت

مختلفة كلياً عن أي شيء يمكن توقّعه. بدا المذيع الإخباري على شاشة تلفاز قاعة الاستراحة مبتهجاً أكثر من العادة قبل إعلانه خبر القبض على صدام حسين. كان ذلك في 13 كانون الأول 2003.

أطلق تاسكر والمجندون الآخرون صرخات تهليل وفرح، وأحسَّ بجسده يقشعرُّ. لكنه وبعض المجندين الآخرين كانوا يخشون من انتهاء الحرب قبل أن تسنح لهم الفرصة للمشاركة فيها وتطبيق ما تدرّبوا عليه. كان ذلك الحافز القوي الذي دفعه للالتحاق بالجيش بعد 11/9 ما يزال يضطرم في داخله، ولهذا السبب لم يشأ أن يُوضَع على الخطوط الجانبية في الولايات المتحدة في وقت كان يبدو فيه أن الحرب تسير نحو خاتمة سريعة وحاسمة في العراق. هل كان هناك فرصة لحدوث ذلك؟ كان وزير الدفاع الأميركي دونالد رمسفيلد قد تنبّأ بثقة بأن الحرب يمكن أن تستغرق «خمسة أيام أو خمسة أسابيع أو خمسة أشهر، لكنها بالتأكيد لن تستغرق مدة أطول من ذلك».

غير أن الخاتمة السريعة المتوقَّعة لم تتحقق، فبعد نحو ثلاث سنوات من ذلك اليوم كان تاسكر ما يزال موجوداً في العراق، إلى جانب ما يقرب من 140,000 جندي أميركي. شرع صدام بتناول فطوره على شكل حصص، بدءاً بالعجّة (التي كان يرفضها ويعيدها من أجل الحصول على واحدة جديدة إن كانت «ممزّقة» بأية طريقة)، ومن ثم الكعكة الدائرية قبل أن يختم بالفاكهة الطازجة.

لاحظ تاسكر أن صدام كان يحب الحلويات. كان الجندي الشاب قد بدأ بملاحظة السلوكيات البشرية الخاصة بالرئيس السابق –بعضها تافه وبعضها الآخر موحٍ- لكنه لم يكن يعلم ما يمكن أن يستنتجه منها. لقد افترضَ أن انجذاب صدام للإغراء الخطِر للكعك -مثلما يمكن أن يحدث مع أي شخص آخر- كان يجعله أقل إرعاباً.

بعد ذلك، أشعل صدام سيجاراً وقال إن نكهة السيجار تكون أفضل بعد تناول الفاكهة.

وبعد الاستمتاع بفطور صحي، وجَّه صدام نفسه نحو علامة وضعها الجنود على جدار زنزانته للإشارة إلى وجهة مكة، وشرع في أداء صلاته الصباحية. بدا

سعيداً على نحو ملحوظ، ربما لأنه للمرة الأولى خلال عقود كان قادراً على الاسترخاء دون خوف من أن يقوم –بحسب تعبير أحد السوبر اثني عشر- «شخصٌ ما من فريقه الأمني بقطع رقبته في منتصف الليل».

قُطعت مراقبة كريس الهادئة لصدام بوصول المسعف الذي كان يؤدي جولته الصباحية. أنهى صدام صلاته وارتدى دشداشته –أو «ثوب الرجال» كما كان الجنود يسمّونها- ثم توجَّهَ نحو دراجة التدريب المخلخلة.

وقال بحيوية: حان وقت ركوب حصاني الصغير.

لم يكن حصانه الصغير، في الحقيقة، أكثر من «دراجة عتيقة مهترئة من النوع الذي يمكن أن تجده في متجر بيع الهبات للأعمال الخيرية»، على حد تعبير بول سفار لاحقاً.

ثم ثبَّتَ صدام نظره على تاسكر ورسم ابتسامته الشيطانية العريضة.

فتساءل تاسكر في داخله: ماذا الآن؟

ربَّتَ صدام على إحدى ساقيه وقال: «هذه الساق غزال»، ثم ربَّتَ على الساق الأخرى وأردف قائلاً: «هذه الساق ليست غزالاً». وبعد ذلك صمتَ لوهلة قبل أن يختم كلامه بالقول: «عندما أصبح أقوى، وأكون غزالاً كاملاً، سأقفز فوق ذلك السياج في الخارج وأهرب». ثم أطلق ضحكته العميقة المميزة التي ذكَّرت تاسكر بـ«شخصية دراكيولا من شارع سمسم»، وركب الدراجة وبدأ بالدوس.

ظل يدوس على الدراجة لمدة عشر دقائق تقريباً كي يتمكن المسعف من فحص ضغط دمه بعد الجهد المعتدل. وبعد التحقق من مؤشراته الحيوية، توجّهَ الرئيس السابق إلى كدسة كتبه وأوراقه الملقاة على منضدته. كانت الأوراق مبعثرة في كل مكان تقريباً، لكنه بدا دائماً بأنه يعرف أين يجد ما يريد.

يتذكَّر عضو آخر في السوبر اثني عشر، تكر داوسون، أن صدام أشار إليه، بعد واحدة من هذه التمارين الصباحية على دراجة التدريب، وقال له: تعال إلى هنا.

كان اهتمام صدام بهم شيئاً جديداً. في البداية، كان صدام بالكاد يميِّز بين

الجنود، مع أنه كان يبدو بأنه يتفحّصهم -كأنه كان يقيّمهم. فقال داوسون لنفسه: من الأفضل أن تكون حذراً.

قال صدام مرة أخرى للجندي الشاب: تعال إلى هنا يا صديقي.

ثم قال بلغتة الإنكليزية المكسَّرة: لقد هربتُ من السجن من قبل –كانت نبرته تلمّح إلى أن احتمال قيامه بذلك مجدداً كان قائماً. بعد أن حاولتُ قتل قاسم، أُصبتُ بطلقة في الساق. ازدادت حيويته مع تذكُّر محاولته الفاشلة في 1959 لاغتيال رئيس الوزراء العراقي آنذاك عبد الكريم قاسم.

وهكذا أخذتُ حصاناً وركبته عبر الصحراء، لكنني بعد ذلك احتجتُ لاستبدال الحصان بحمار، كي لا يعرف أحد من أكون. ثم سبحتُ عبر النهر وتابعت طريقي حتى وصلت إلى سوريا.

وفقاً للضابط السابق في السي آي إيه، تشارلز دويلفر، إن فكرة وجود نُبل في جهدٍ شجاعٍ -حتى لو كان هناك احتمال بأن يكون عبثياً- كانت تروق لصدام. عندما كان شاباً مسجوناً للتآمر ضد الحكومة، استمتع صدام برواية هيمنغواي، «الشيخ والبحر»، التي تحكي قصةَ صياد مسن، يُدعى سانتياغو، يجازف بكل شيء من أجل جلب سمكة مارلين لم يسبق لأحد أن اصطاد أكبر منها، ويواظب بعناد على محاولة جرّها إلى الشاطئ. لعل ذلك المسعى المحكوم بالفشل ذكَّر صدام بصراعاته الشجاعة التي استطاع تحمُّل وطأتها لوقتٍ كافٍ لتفادي الهزيمة.

يتذكَّر الفريق الركن رعد الحمداني، أحد أكثر الضباط حصولاً على الأوسمة في العراق، كيف أن صدام كان يعود إلى قصره في تكريت، على ضفاف دجلة، بعد بعضٍ من المناسبات العديدة التي نجا فيها من مواجهات مع الموت، ويرتدي سروال السباحة القصير، ويعيد أداء سباحته عبر النهر عندما كان شاباً هارباً يحاول باستماتة التملُّص من السلطات، بعد محاولته الفاشلة اغتيال رئيس الوزراء عبد الكريم قاسم. بل أصبح هذا التقليد الغريب نوعاً من الطقس الجالب للحظ بالنسبة لصدام المؤمن بالخرافات. لا عجب أن «ابن الأزقّة»، عندما اضطُرَّ للهرب من بغداد إثر الغزو الأميركي، لجأ مجدداً إلى القرى الفقيرة الممتدة على ضفاف نهر دجلة، التي لطالما اعتبرها موطنه.

الجزء الثاني

آس البستوني

إنه لا ينام. بل يرقص، ويرقص.

يقول إنه لن يموت أبداً.

- كورماك مَكارثي، 'ذروة الدم'

الفصل العاشر
الدُور وتكريت، العراق -13 كانون الأول 2003

«اسمي صدام حسين. أنا رئيس العراق، وأنا مستعد للتفاوض».

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء بقليل من يوم 13 كانون الأول 2003 عندما سحبت مجموعة من القوات الخاصة، التابعة لقوة الدلتا في الجيش الأميركي، الرئيسَ السابقَ من «حفرة العنكبوت» سيئة الصيت –مخبأ يشبه القبر بعمق متر ونصف المتر وعرضٍ يكفي للاستلقاء فيه فقط. رغم أنه كان مسلَّحاً بمسدس، إلا أنه رفع يديه مستسلماً. قبل أن أقل من سنة، كانت سلطته تمتد على مساحة 169,000 كيلومتر مربع، لكنها تقلصت وأصبحت محصورة في حفرة ترابية بالقرب من بلدة الدور التي تبعد 15 كيلومتراً جنوب شرق الكوخ الطيني الذي نشأ فيه.

بدا ضعيفاً ومضطرباً ووسخاً، في دشداشته السوداء البالية -مظهرٌ مناقضٌ تماماً لصورة الرجل الأنيق والعصري التي كان دائماً يحرص على الظهور بها. قاوم لفترة وجيزة قبل أن يغلبه بسرعة جنود النخبة، مما أدى إلى شق شفته. وبما أنه لم يُقهَر جسدياً منذ عقود، فقد بدا بأنه انكفأ إلى حالة من الحيرة المصدومة عقب اعتقاله. بيد أن حالته الراضخة لم تدم طويلاً.

كانت القوات الأميركية تبحث عنه منذ فصل الربيع. لكنه، حتى قبل ذلك، كان يعيش في عالم مسكون بالأعداء، الحقيقيين والمتخَيَّلين. لقد نجا من محاولات اغتيال متعددة، وشنَّ ثلاث حروب، ونادراً ما كان ينام في المكان نفسه أكثر من بضع ليال. ولم يكن الهرب من العراق أمراً قابلاً للنقاش، فبحسب محللة الشرق الأوسط السابقة في السي آي إيه، جودث ياف، «لن يغادر صدام العراق أبداً، ففي

ذهنه، هو كان العراق». كانت هناك تقارير تتحدث عن تخفِّيه في مكان ظاهر للعيان قرب تكريت، منتحلاً جميع الشخصيات التي تخطر في البال، من سائق تاكسي إلى راعي أغنام. وفي هذا الخصوص، قال الكولونيل ستيف راسل، التي كانت كتيبته الأولى التابعة لفوج المشاة الثاني والعشرين، مسؤولة عن المنطقة: «كان موجوداً في كل مكان، وفي الوقت نفسه لم يكن موجوداً في أي مكان». كانت وحدة راسل تسمِّي هذه المشاهدات بمشاهدات إلفيس (نسبةً للمغني الراحل إلفيس بريسلي).

وكانوا يقولون على سبيل المزاح: «لعله يستخرج الغاز في العجوة».

كان صدام قد توجَّه إلى بلدة الدور لأن جذوره القَبَلية ضاربة بعمق في تلك المنطقة، ولأن السكان المحليين موالون له بشدة. كانت ما تزال بلدة فقيرةً بعيدةً عن أروقة السلطة في بغداد مثلما كانت قبل أكثر من أربعين عاماً عندما فرَّ إليها بعد محاولة الاغتيال الفاشلة لرئيس الوزراء آنذاك، قاسم.

كان جنود قوات الدلتا مميَّزين بسبب غياب بطاقاتهم التعريفية –غالباً ما تكون البطاقات الاسمية غائبة عن زيهم العسكري- وبسبب لحاهم وأسلحتهم ومعدات اتصالهم المتطورة. وضعوا صدام في مروحية منتظرة ونقلوه إلى مجمَّع قصره في تكريت، الذي يبعد بضع دقائق فقط والذي حُوِّل إلى قاعدة أميركية.

كان مجمَّع القصر -الذي يتألف من أكثر من تسعين مبنىً ويشغل قطعة أرض تمتد مسافة ثلاثة كيلومترات على امتداد النهر- يبدو مثل منتجع صحراوي ضخم لكنه غير مستخدَم. بُني المجمَّع بين التلال المطلّة على نهر دجلة، تحيط به أشجار نخيل متأرجحة تطوّق بحيرةً صناعية. كان هذا المكان منزلَ صدام المفضَّل؛ ملاذ يلجأ إليه من ضغوطات بغداد. وحيث كان صدام يسبح ويصطاد السمك برفقة عائلته وأصحابه ذات يوم، بات الجنود الأميركيون يقصدونه أحياناً للتزلج على الماء.

كان لواء المشاة الرابع يشغل الكثير من الأبنية، مخصِّصاً منزلاً كان يُستخدَم كمضافة ذات يوم ليكون قاعدة عمليات لقوات الدلتا. بينما كان جنود القوات الخاصة ذوو الأجسام الضخمة والقوية يقودون صدام إلى غرفة إضافية لاحتجازه فيها مؤقتاً، مرُّوا بقاعات الاستقبال الفخمة المزخرفة باللون الذهبي والمقاعد الفاخرة التي كان الرئيس السابق يتباهى بها أمام ضيوفه. أمضى صدام الساعتين التاليتين محتجزاً في

الغرفة الإضافية التي كانت تُستخدَم سابقاً إما كخزانة أو كمخزن للمؤن، وعلى الأرجح لم تكن تُلمَس إلا من قبل خَدَم صدام. عُيِّنَ مسعف عسكري للإشراف عليه في تلك الفترة، وقد رافقه مرةً عبر الممر إلى الحمام. كان صدام في منزله –أمرٌ غريب يشبه الحلم.

وبعد فترة وجيزة، أصبحت مجموعة الدلتا مستعدة لتسليمه إلى منطقة احتجاز أكثر أمناً في بغداد. وبينما كانوا يقودونه من قصره، توقَّف صدام عند الدَرَجة العليا ونظر إلى أضواء مدينة تكريت، مسقط رأس مَثَله الأعلى -القائد الأسطوري صلاح الدين- ومركز عالمه سابقاً. التفَتَ صدام على مهل إلى يمينه، ثم إلى يساره، وسحبَ نَفَساً عميقاً، كأنه كان يحاول على نحو واعٍ امتصاصَه كله. بدا كما لو أنه كان يلتقط صورة ذهنية ليحملها معه إلى المجهول.

وبعد أن همَّ أخيراً بالنزول على درج القصر، توقَّف صدام مرة أخرى ليعترض على الدشداشة السوداء المهترئة التي اعتُقل فيها، قائلاً: انظروا إلي. أنا صدام حسين، رئيس العراق. هل تريدون أن يظن العالم أن الولايات المتحدة تعامل رؤساء الدول بهذه الطريقة؟

فقال له أحد الجنود مُطَمئناً: «سنجعلك تبدو مثل نجم روك». وهرع إلى الداخل لجلب ثياب أخرى.

قبل أن يُدخل فريق القوات الخاصة صدام إلى المروحية وضعوا قناعاً على رأسه كي لا يتمكّن من رؤية المعدات التقنية فائقة السرية داخل قمرة القيادة وهيكل المروحية. جلس عدد من جنود الدلتا بمحاذاة صدام وكان تِكس –وهو جنوبي مفتول العضلات- جالساً بجانبه تماماً. بينما كانت المروحية تشق طريقها جنوباً نحو بغداد فوق وادي دجلة، أحسَّ بصدام يربِّت برفق على ساقه.

بالنسبة للدكتاتور الماكر، كانت هنالك دائماً لعبة أخرى ليلعبها.

الفصل الحادي عشر
أوماها، نبراسكا -20 كانون الثاني 2004

كان رود ميدلتون –موظف مخضرم في الإف بي آي (مكتب التحقيقات الفدرالي)- في منزله في عصر يوم سبت شديد البرودة، بعد أكثر من شهر بقليل على اعتقال صدام. كانت درجة الحرارة تبلغ 10° تقريباً في الخارج، لكن ميدلتون كان ممتناً لتمتُّعه بالدفء في الداخل بينما كان يقوم بطلاء غرفة نوم منزل عائلته الجديد باللون الأصفر –لون زوجته باربرا الأثير. كانا يشعران بالسعادة لتمكُّنهما أخيراً من امتلاك منزل على أرض ملعب غولف، بعد تكاليف العيش الباهظة على نحو غير منطقي في واشنطن العاصمة، حيث كان ميدلتون يخدم في مقر قيادة الإف بي آي. كان ميدلتون قد أمضى صيفه الأول في أوماها، مشرفاً على فريق مشترك، ومستمتعاً في الوقت نفسه بمزيد من أوقات الفراغ مع عائلته -بل إنه تمكَّن أيضاً من إنزال عدد ضربات «الهاندي كاب» في الغولف إلى 12.

رن جرس الهاتف مقاطعاً عمله في الطلاء. كان المتصل من قيادة الإف بي آي يحمل سؤالاً واحداً فقط: هل تود المشاركة في استجواب صدام حسين؟

استغرق ميدلتون لحظة لاستيعاب السؤال. رغم أنه كان عدّاء ماراثون ذا نزعة تنافسية، ورغم إثارة حس الفضول لديه، إلا أنه كان بحاجة لمناقشة الأمر مع زوجته أولاً. فبعد أكثر من عشرين عاماً من العمل مع مكتب التحقيقات الفدرالي، تخلَّلها وقت طويل في التنقُّل في أرجاء المعمورة لإجراء تحقيقات تتعلق بالإرهاب، كان ميدلتون يتطلَّع بشوق لتغيير إيقاع حياته المهنية مع مهمته الجديدة الأكثر هدوءاً في أوماها. وكانت زوجته، بالطبع، أشد تلهُّفاً منه لهذا النمط الجديد من العيش.

ومع ذلك، قالت باربرا ميدلتون، أجل، وبعد أسبوعين، قرأ خلالهما كل ما تمكَّن من إيجاده حول العراق وصدام، وجد ميدلتون نفسه على متن طائرة C-5 متوجهاً إلى بغداد برفقة المشرف على استجواب الإف بي آي جورج بيرو -وهو أميركي لبناني يتحدث العربية- والمحلل السلوكي من الإف بي آي توم نير، ومحلِّلين استخباريين، وخبير باللغة العربية.

بغداد، العراق -الشهور القليلة الأولى من العام 2004

على أرض القاعدة الأميركية الشاسعة في مطار بغداد الدولي، أنشأ ميدلتون وبيرو وبقية فريق الاستجواب مركز عمل لهم في حاوية شحن بحرية جُهِّزت بأدوات اتصالات مؤمَّنة تمكِّنهم من البقاء على اتصال دائم مع مقر قيادتهم في واشنطن العاصمة، ومع موظفين آخرين من الأجهزة الاستخباراتية والأمنية المتمركزة في مناطق مختلفة حول العالم.

فور استقرارهم في موقعهم الجديد، أُطلع فريق الإف بي آي على سير التحقيقات مع صدام حتى ذلك الحين. كان قد مضى أكثر من شهر بقليل على اعتقال الزعيم العراقي، الذي استُجوب من قبل السي آي إيه نحو خمس وعشرين مرة. كان تركيز الوكالة الرئيسي منصبّاً على تحديد حالة برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقي، بما أن القوات الأميركية لم تفلح في العثور على شيء بعد ما يقرب من عام من البحث، وكان صبر القادة في واشنطن قد بدأ ينفد. إضافة إلى ذلك، كان المحققون مهتمين بجمع معلومات استخبارية حساسة للمساعدة على اعتقال كبار شخصيات النظام السابق واحتواء التمرُّد الذي كان يزداد شراسةً، فقد قُتل في الشهر السابق 48 جندياً أميركياً يخدمون في العراق.

لكن فريق السي آي إيه لم يحرز الكثير من التقدُّم، ولهذا السبب اتُّخذ القرار في واشنطن لتسليم مهمة الاستجواب إلى الإف بي آي، بما أن فريقها سيكون أكثر مقدرة على بناء قضية ضد صدام لتقديمها في نهاية المطاف إلى محكمة دولية أو عراقية. ولكن، لم يكن قد اتُّخذ قرار بعد بشأن كيفية تقديم الرئيس العراقي السابق للعدالة بناء على اتهامات بارتكابه جرائم بحق الإنسانية.

وافق فريق الإف بي آي على أن يكون جورج بيرو رئيسَ التحقيق، جزئياً

لأنه كان يتحدث العربية بطلاقة. وكانت تلك فرصة مذهلة لعميل الإف بي آي الشاب الذي لم يكن مضى على وجوده في المكتب إلا خمس سنوات فقط. وسيشاركه في استجواب صدام ميدلتون، إلى جانب خبير لغوي من الإف بي آي سيلعب دور المترجم، رغم أن بيرو وميدلتون كانا يتحدثان العربية. بدأ توم نير، المحلل السلوكي في الإف بي آي، في بناء استراتيجية لاستخلاص المعلومات من صدام استناداً إلى تحليله النفسي، الذي وصفته جيرولد بوست بأنه تحليل لـ «نرجسي شرير» مع بضع السمات السايكوباتية. حضَّر فريق الإف بي آي نفسه للتعامل مع شخص سيُبدي توليفةً من الغرور والارتياب المفرطين، وغياب ضوابط الضمير، وضعف التعاطف، وعدم احترام الحقيقة.

باختصار، لم يكونوا يتوقعون أن تكون مهمتهم يسيرة.

كانت غرفة التحقيق ذات جدران إسمنتية بيضاء وضوء فلوريسينت سقفي. كانت غرفة بسيطة خالية من أية ديكورات وتحوي أربعة كراسٍ قابلة للطي فقط، لصدام والمحاورين والخبير اللغوي من الإف بي آي. كل يوم، كان صدام يرتدي دشداشته –يضيف إليها سترته الغامقة السميكة إذا كان الجو بارداً- ويصلّي في زنزانته الصغيرة مع القرآن الذي أُعطي له، ويقابل مستجوبيه. كان ظهر كرسيه يقابل الجدار البعيد، وكان المحققون يجلسون بينه وبين الباب.

عندما بدأت الجلسات، جلس صدام ووضع ساقاً فوق الأخرى، بارتياح تام ظاهرياً.

كان التحدي الأول بالنسبة للمحققين يتمثَّل في تحديد كيفية مخاطبته.

كان صدام ملحِّاً في مسألة كونه ما يزال الرئيس الشرعي للعراق، وقد عرَّف نفسه بهذه الصفة في اجتماعهم الأول. وقد جاروه في هذا الأمر على مضض، اعتقاداً منهم بأن تحدِّيه مباشرةً يمكن أن يثير غضبه النرجسي ويؤدي إلى نتائج عكسية. في هذا الشأن، قال أحد أفراد الفريق: «لو أننا أوجدنا ظرفاً عدائياً، لما تمكّنا من إنشاء حوار على الإطلاق».

كان أعضاء الفريق يعتقدون بأن إقامة علاقة ودية مع صدام ستساعدهم على دفعه للتحدث، الأمر الذي قد يؤدي في نهاية المطاف إلى تطوُّعه لتقديم معلومات

أكثر مما كان سيفعل بأية طريقة أخرى. وهذا ما حدث فعلاً، ففي إحدى جلسات السي آي إيه، سعل صدام بشدة وكان سعاله مصحوباً ببلغم، فقدَّم له مستجوبوه عدة كؤوس من الشاي.

بل إن المحلل السلوكي التابع للإف بي آي لم يشأ تسمية الجلسات استجواباً، مفضِّلاً عليه المصطلح الألطف، «حوار ذو غاية». لقد وجد الرجال أن صدام يكون متحمِّساً للتحدُّث ردّاً على أسئلة ناعمة تتيح له زخرفة إنجازاته. وفي هذا الخصوص، قال صدام لبيرو وميدلتون إن رأي الناس فيه في الوقت الراهن لم يكن مهماً بالنسبة إليه، بل كيف سيرونه بعد خمسمائة أو ألف سنة.

قال صدام، مشكِّلاً برجاً من يديه: سيحبني الناس أكثر بعد رحيلي من محبتهم لي الآن. كان يحرص بشدة على البقاء في وضعية منتصبة، وعدم التراخي أبداً.

ومع أنه لم يُظهر أي قلق، إلا أنه كان دائم الحذر، فإذا وُجِّهت له سلسلة من ثلاث أو أربع أسئلة سهلة وأُتبعت بسؤال يتقصَّى موضوعاً شائكاً فإنه لم يكن يتناول الطعم أبداً. فإما كان يلتزم الصمت، أو يغيِّر الموضوع، أو يصبح أكثر تحدياً. رداً على سؤال حول استخدام الأسلحة الكيماوية في الحرب الإيرانية العراقية، قال: «سأناقش أي شيء مالم يكن مؤذياً لشعبي، أو أصدقائي، أو الجيش»، واضعاً بذلك – بجملة واحدة- كل ما يهمُّ الأميركيين في خانة المحظورات.

وفي إحدى المراحل، عبَّر عن انزعاجه من مجموعة أسئلة بالقول: «ظننتُ أن هذا حوار تاريخي وليس استجواباً».

يقول جِف غرين، أحد الموظفين الذين ساعدوا في الاستجواب: «كان عبقرياً بحق في مجال العلاقات الشخصية ... كان يتحكَّم كلياً بنفسه ويناور بصورة دائمة – مناورات مايكروية صغيرة- للحفاظ على سيطرته على الوضع».

ولم تكن الحقيقة تُقيِّده بأي حال من الأحوال. لقد أنكر التورُّط في جرائم حرب مزعومة خلال الغزو العراقي للكويت، رغم وجود فيديو من أرشيف حزب البعث يُظهره وهو يهدِّد مساعديه برميهم بالرصاص إن لم يسحقوا المقاومة الكويتية بوحشية. في اجتماع مسجَّل لمجلس قيادة الثورة، زمجر صدام بلهجته التكريتية الحلقية الخشنة: «إذا سمعتُ أنكم لم تقطعوا لسان من يتحدث هناك في الكويت من

حنجرته، فسأستبدلكم جميعاً، بمن فيكم قائد الحرس الجمهوري. قولوا للكويتيين: 'أنتم عراقيون الآن'، وإذا فتح أحدهم فمه، فعليكم أن تُفرغوا كل رصاصاتكم في بلعومه».

ولم يُظهر صدام أسفاً أو ندماً في أية مرحلة. قرر بيرو، مع موافقة ميدلتون، أن يُري صدام مقاطع من فيلم وثائقي لقناة BBC يسلِّط الضوء على الكلفة البشرية لقراره بتجفيف الأهوار جنوب بغداد، التي كان يَعتقد أنها كانت ملاذاً للمتمردين الشيعة. لقد أباد قراره بشكل جوهري نمط عيش لمئات الآلاف من «عرب الأهوار» العراقيين الذين اقتُلعوا من أرضهم. كان بيرو وميدلتون يشعرون بالفضول لتقييم رد فعل الرئيس المخلوع على مظاهر المعاناة البشرية التي نجمت بشكل مباشر عن سياساته.

قال صدام حالما بدأ عرض الفيلم: انتظروا، هذا ليس فيلماً حيادياً. لقد أُعدَّ في الغرب وبُثَّ في أميركا –كأن ذلك لوحده يثبت تحيُّزه الصارخ.

ترك بيرو وميدلتون الفيلم يستمر، وفي أحد المقاطع، يظهر عرب الأهوار وهم يفرُّون باتجاه الشمال في ثياب ممزقة، ولم يبقَ لهم من حياتهم السابقة أكثر مما كان بوسعهم حمله. كان صدام يشاهد باهتمام قبل أن يعلِّق قائلاً: «إنهم لا يبدون خائفين، بل يبدون سعداء».

وبعد 23 دقيقة على بدء الفيلم، اكتفى صدام من المشاهدة وقال إن وقت التمرين والصلاة قد حان.

فقال بيرو، محاولاً فرض سلطته على السجين: يمكننا تأجيل ذلك.

فقال صدام: لا، أعتقد أن هذا كان كافياً. ثم أضاف بفرح: يمكننا مشاهدته في يوم آخر، لمَ العجلة؟

الفصل الثاني عشر
بغداد، العراق -الأشهر القليلة الأولى من العام 2004

قبل عامين من لقاء السوبر اثني عشر به، كان المسعف العسكري روبرت «دوك» إليس أكثرَ الأميركيين التقاءً بالرئيس السابق –عدا مترجمه- في أقل حالاته حذراً وأكثرها صراحةً.

قيل لإليس في أول مرة يقترب فيها من زنزانة الديكتاتور: «تصرَّف بثقة، لا تخف. هذا الرجل بارع في التقاط الإشارات غير اللفظية». كانت مهمة إليس تقتضي فحص صدام يومياً أثناء استجوابه في معتقل كروبر. وكي لا يُترَك أي شك فيما يتعلق بمهمة إليس، أخذ كولونيل المسعفَ العسكريَّ جانباً وقال له: «لا يمكن أن يموت صدام حسين في المعتقل الأميركي. سيشكِّل ذلك حَرَجاً هائلاً للرئيس والولايات المتحدة الأميركية. افعل كل ما يلزم للحفاظ عليه حياً».

نشأ إليس –وهو أميركي من أصول أفريقية في أوائل عقده الخامس برتبه رقيب أول ذو بنية معتدلة ووجه مدوَّر وشارب- «حول اللصوص والنهّابين والقتلة» في مشاريع بروت آيغو سيئة الصيت في سانت لويس -واحد من أكثر الأماكن الأميركية شبهاً بالقرية العنيفة التي ترعرع فيها صدام. حول ذلك الحي يقول إليس: «كنت أضطر للقتال طوال الوقت. لقد تعرَّضتُ للسرقة والضرب أكثر من مرة، ولإطلاق النار، ورأيت أشخاصاً يُقتَلون». وعلى هذا الأساس، فقد كانت هناك إمكانية لنشوء علاقة ودية خاصة بين المسعف العسكري و«ابن الأزقة»، سيئ الصيت.

يقول إليس: «كان ذات يوم مقاتل شوارع مثلما كنت أنا في صغري. كنت أقاتل اللصوص والمتنمّرين في المشاريع، وهو كان يقاتل العصابات في تكريت».

عندما كان إليس يأتي لرؤية صدام، كان يجده دائماً مرتدياً إحدى دشداشتيه (واحدة بيضاء والأخرى رمادية، وكان يغسلهما بيديه ويجففهما تحت شمس بغداد في منطقة استراحته كل يوم)، وفي العادة يكون في المرحلة الأخيرة من تناول فطوره المكوّن بشكل أساسي من عجة الخضروات، التي يحبها مع الفطر والبصل والبندورة. وبين الحين والآخر، كان يجده قد انتهى من الأكل فيقف جانباً بصبر منتظراً تلاوة دعواته الصباحية.

مثل الكثير من الأميركيين الذين تعاملوا مع صدام السجين، صُدم إليس في البداية من مواصلة صدام لعب دور «الرجل المسؤول»، رغم أنه كان «مُحتجَزاً ومعزولاً». كان صدام يخاطب إليس بـ «دوك»، نفس اللقب المحترم الذي يطلقه الجنود الأميركيون منذ وقت طويل على المسعفين الحربيين. أما إليس فقد اختار مخاطبة السجين الكهل باسمه الأول وحسب، خلافاً للقب الرسمي «سيدي الرئيس». كان إليس يسأل صدام عن شعوره فيما يتعلق بوضعه الصحي قبل البدء بفحص ضغط دمه ودرجة حرارة جسده –باستثناء ارتفاع ضغط دمه، كان صدام يبدو في حالة صحية جيدة.

في الأمسيات، كان إليس يذهب إلى زنزانة صدام لوحده دون مترجم لإدراكه بأن لغة صدام الإنكليزية كانت أفضل مما كان يدّعي. وعند وصوله إلى الزنزانة كان يشم أحياناً رائحة الليسول، التي كان صدام يستخدمها كثيراً للتنظيف بعد الظهر. كان الرئيس السابق يظهر بصورة مرتبة دائماً وكان يحرص على أن تكون زنزانته خالية من الأوساخ والغبار –رغم الكتب والأوراق المبعثرة فيها. بشكل تدريجي أصبح واضحاً أن صدام بدأ يعتبر تلك الفحوصات الطبية اليومية أكثر من مجرد إجراء رسمي بسيط كان بحاجة للامتثال له. ذات ليلة، جلب إليس دواء ضغط الدم لصدام وكان على وشك إعطائه إياه عندما قال صدام فجأةً «لا» رافضاً أخذ الدواء. كان صدام جالساً بجانب منضدته يكتب على كرّاسة صفراء من النوع الذي يستخدمه المحامون –أحياناً كان يبدو بأنه يمضي الكثير من وقته في فعل ذلك.

رفع رأسه عن كرّاسته وقال: «أعرف بأنك لن تفهم، لكنني أود أن أقرأ هذا عليك». حمل الكرّاسة وبدأ بقراءة ما كتبَه بالعربية. كان الإيقاع والنغمة يوحيان بأنها قصيدة. وبعد بضع دقائق أنهى صدام قراءته، ثم رفع رأسه عن إبداعه بِرِضَاً، وقال: «الآن يمكننا أخذ الدواء».

قال إليس لاحقاً حول تلك اللحظة بأنها كانت «بداية علاقتنا».

سيتكرر السيناريو ذاته في الأسابيع والأشهر التالية، حيث يقول إليس إن «صدام كان يقرأ وأنا كنت أجلس وأستمع، ومن ثم كان يحاول أن يشرح لي. بشكل أساسي، كان يريد إقامة علاقة اجتماعية ودية، وهذا ما فعلناه». كان إليس ينظر إلى هذا التفاعل الاجتماعي على أنه جزء من «معالجة الشخص بأكمله، وليس فقط أوجاعه وآلامه». وبذلك، كان إليس ينفِّذ أمر الكولونيل، المعرَّف على نحو واسع، بالتأكُّد من بقاء صدام بصحة جيدة تحت مراقبته.

حاول صدام في بضع مناسبات إقناع إليس بأن السيجار والقهوة يساعدان على تخفيف ضغط الدم المرتفع. ومع أن إليس كان يعرف أن هذا الكلام ليس مقنعاً، إلا أنه تصوَّر بأن ذلك قد يستحق المحاولة إن كان يساعد صدام على الاسترخاء. وهكذا وجد إليس نفسه في الموقف الغريب المتمثِّل في المساعدة على جلب سيجار كوهيبا المفضَّل لدى صدام، الذي كان يبدو عليه السرور بوضوح عند وصول إليس –أحياناً برفقة طبيب المعتقل- حاملاً بيده هديته المتواضعة. وكان صدام يقف ليحييهما قائلاً، «يا صديقيّ، ثلاثة كوهيبا»، قبل أن يشير لهما للذهاب من زنزانته الصغيرة إلى منطقة استراحته في الهواء الطلق، حيث كان قد نقل إليها بضع كراسٍ بلاستيكية، ويدعوهما للجلوس ومشاركته في الاستمتاع بسيجار في وقت الغروب في بغداد. بخلاف سلوكه الحذر واليقظ في غرفة الاستجواب، كان صدام يبدو مفعماً بالحيوية والبهجة في مثل هذه اللقاءات.

خلال جلوسهم في الخارج، كان من الممكن لأي مراقب، في أغلب الأحيان، أن يظن بأن الحوار فيما بينهم كان من نوع المزاح اللطيف الذي يتبادله الرجال حول العالم لتمضية الوقت في صالة البار في فترة تخفيض أسعار المشروبات – مع أنهم قد لا يعرفون بعضهم بعضاً بشكل جيد لكنهم يشعرون بمزاج حسن وبرغبة في التواصل الودي. لقد تبنَّى المحققون طريقة ودية على نحو ملفت للنظر في التعامل مع الرئيس السابق الذي بدا مسترخياً ومرتاح البال، لا سيماً أن محاكمته كانت ما تزال في الأفق البعيد.

وكما هو متوقّع، كان الحوار خلال جلسات السيجار المسائية تلك يتطرَّق أحياناً إلى النساء (رغم وجود بضع نساء حولهم من النوع الذي يمكن أن يسترعي

شيئاً من اهتمامهم). وعند حدوث ذلك، كان صدام يتناوب ما بين إظهار شخصية الرجل الكهل الشهواني إلى درجة ما وبين شخصية الزوج المحب والمراعي. ومع أن الأميركيين كانا يحتاران أحياناً بخصوص من يقصد من زوجاته، لكنهما كانا يعتقدان بأنه كان يخصُّ زوجته الثانية، سميرة، بالجزء الأكبر من رغبته وعاطفته.

وفي تلك الجلسات المسائية أيضاً، كان صدام يجرِّب حظه أحياناً في سرد القصص البذيئة المضحكة، وكان يحب بشكل خاص تلك القصة التي تتحدث عن «رجل من قريتنا كان لديه زوجة لا تملك رغبة قوية، ما دفعه للجوء إلى كبير عشيرته الذي وجد له زوجة أصغر عمراً تملك رغبة تكفي العشيرة بأكملها». وهنا كان صدام يطلق واحدة من ضحكاته العميقة «ها ها ها».

لقد ظهر الجانب الشبق من صدام في مناسبة أخرى حينما قصد عيادة طبية من أجل إجراء طبي بسيط، وعالجته ممرضة جذابة من الجيش. عندما سألته الممرضة إن كان بوسعها رفع كمِّه من أجل أخذ عيِّنة من دمه، أجابها بالعربية: «يمكنك البدء بالكمَّين والمواصلة إلى حيث تريدين». أغدق صدام على الممرضة ما كان يعتبره سحره، مستمتعاً باهتمامها. ولم تنتهِ القصة هنا، فبعد عودته من العيادة قرر صدام، الذي كان ما يزال متأثراً بفتنة الممرضة، إطلاق لحيته، لا لكي يروق للمتطرفين الإسلاميين –كما خمَّن محلل سياسي في السي إن إن لاحقاً- وإنما لأنه كان يعتقد بأن شكله سيبدو أفضل مع اللحية.

خلال واحدة من زيارات إليس الصباحية، أظهر صدام جانباً أشد رقة ورومانسية عندما سأل إليس إن كان يملك عائلة، فأجاب الأخير بأن لديه ولدين وبأنه تزوَّج حديثاً للمرة الثانية. بدا صدام فضولياً على نحو صادق لمعرفة المزيد حول عائلة إليس، ولهذا السبب قرر إليس أن يجلب معه بعض صوره العائلية من غرفته ليراها صدام في المرة التالية التي يجري فيها جولته المسائية.

عندما عاد إليس في الليلة التالية، أعطى الصور لصدام فبدأ بمشاهدتها على مهل والإشارة إلى بعض الأشخاص وسؤال إليس عمن يكونون. وبدا بأنه مهتمٌّ بصفة خاصة بصهر إليس، ليونيل، الذي كان يعمل فناناً ترفيهياً في لاس فيغاس ويرتدي بذة مبهرجة ونظارة شمسية، ذلك أنه رجع إلى الصورة عدة مرات قبل أن يشير أخيراً إلى ليونيل ويسند ظهره إلى الكرسي ويطلق ضحكة قوية. وعندما وصل صدام

إلى صورة زوجة إليس، ريتا، نظر إليها مليّاً، ثم توقف، وبدا بأنه يفكر في شيء ما، ثم قال: «سأكتب من أجلها قصة جميلة».

وهذا ما حصل فعلاً، فعندما عاد إليس في اليوم التالي، سلَّمه صدام بفخر واحدة من أوراق كرّاسته القانونية الصفراء كُتب عليها بالعربية:

(هذه ترجمة النص الإنكليزي لعدم توافر نص القصيدة الأصلي باللغة العربية).

يُغلَب الليل في نهاية العمر

تتيه النجوم ويحلو الفجر معك

كبُرَ قلبي بتحقيق حلمه

حَلَّت السكينة وزالت المشقة

أزهرت روحي وأينعت زهرتها

وباركَنا الله لما بقي من حياتنا

ذُهل إليس لأن الرئيس السابق خصَّص جزءاً من وقته لتأليف شيء ما لزوجته ولأنه كان سعيداً جداً بتقديمها له. ولكن، هكذا كان صدام؛ رجلاً مجبولاً بتناقضات غريبة. فالرجل الذي حاول القضاء على تهديد بعض الميليشيات الشيعية عبر إعطاء الأمر بتجفيفٍ مُمنهَج لأهوار ما بين النهرين –مُرغِماً مئات الآلاف من البشر على الهجرة- هو نفسه الرجل الذي كان في المعتقل يعتني بأعشابه كما يعتني الأب المحب بأولاده. والرجل الذي أدخل الرعب في قلوب ملايين العراقيين –قبل اعتقاله- بات فيما بعد يُوفِّر فتات الخبز من وجباته ويحملها إلى الخارج كي يقدِّمها لطيور عابرة أصبحت في نهاية المطاف تتوقّع تلك الوجبات اليومية من الرجل الكهل وتنتظره على السلك الشائك. وكان صدام يحيّيها بحماس ويشير بفخر لإليس، قائلاً: «انظر، لقد أتت!» ولما لم تأتِ الطيور في أحد الأيام، كما كان متوقَّعاً، بدا على صدام الانزعاج وقال لإليس بحزن: «لابد أنها أكلت في وقت مبكر».

أمضى إليس يوماً طويلاً جداً في المساعدة على ملء أكياس من الرمل من أجل الحماية من الهجمات بالهاون، وبعد انتهائه من العمل، تذكَّرَ أن صدام طلب منه في اليوم السابق بعض المناديل الرطبة المعقِّمة -كان صدام معروفاً برهابه من الجراثيم، وكان يحاول دائماً التنظيف والتعقيم. وهكذا ذهب إليس في ذلك المساء إلى زنزانة صدام حاملاً معه علبة المناديل الرطبة. وبعد أن أعطاه العلبة، تفاجأ إليس لأنه لم يتلقَّ الامتنان المعتاد من صدام، الذي «نظر إلى العلبة بارتياب وأَخرَجَ منها منديلاً وحمله بين إبهامه وسبّابته»، وبعد التحديق فيه لبضع ثوانٍ طويلات، قال: «هذه نوعاً ما... أنيقة».

لم يستطع إليس تصديق أن الرجل، الذي كان يتظاهر أحياناً بعدم قدرته على التحدث بالإنكليزية، استخدم للتو مثل هذه الكلمة غير العادية (dainty). محاولاً الحفاظ على تعابير وجه طبيعية، وعد إليس صدام بأنه سيبحث عن علب أكبر، قبل أن يضيف ممازحاً «بحجم رجل». تَصَادَفَ أن زوجة إليس، ريتا، أرسلت منذ مدة قصيرة علبة مناديل رطبة كبيرة ضمن طرد منزلي خاص، وهكذا عاد إليس إلى زنزانة صدام في اليوم التالي، وبقدر غير قليل من الفخر، قدَّمها له فقوبل هذه المرة بابتسامة التقدير المألوفة. ضحك صدام لنفسه ونظر إلى إليس باستحسان وقال: «بابا نويل».

تساءل إليس في بعض الأوقات إن كان قد وقع فريسة نفس الرغبة بإرضاء صدام، التي كانت شائعة بين مساعديه حين كان على رأس السلطة. لقد ترعرع إليس على مشاهدة أسوأ ما يمكن أن يفعله البشر في حيِّه القاسي في سانت لويس، ولهذا فهو لم يكن ساذجاً. كان يعرف تماماً أن صدام كان مذنباً بارتكاب أفعال شنيعة، وكان يدرك أن سحر الرئيس السابق ولطفه يمكن إلى حد كبير أن يكونا محاولة للتلاعب به، ولهذا السبب، كان يقوله لنفسه: **انتبه لظهرك يا إليس. لا تدعه ينال منك.**

لكن المحيِّر في الأمر هو أن الأشياء التي كان صدام يشعر بالقدر الأكبر من الامتنان لحصوله عليها كانت في الغالب بسيطة جداً وغير مميزة. فإذا كان سلوكه مراوغاً ومخادعاً، فما اضطُّر لإظهاره من هذا السلوك كان في الحقيقة من أجل مجموعة مثيرة للشفقة من الخردة عديمة القيمة، مثل كرسيه البلاستيكي المزوَّد بمسندين مطاطيين للذراعين، ومناديل رطبة كبيرة، ومذياع قديم ذي هوائي كان

يجهد دائماً لتوليفه من أجل التقاط إشارة ما، ودراجة تمرين لن تكون نافرةً أبداً في أحد مقرات الرابطة المسيحية للشبّان (YMCA) في الثمانينيات، ولعل الشيء الكمالي المترَف الوحيد هي سجائر الكوهيبا المحبوبة. ذات يوم، لم يستطع إليس منع نفسه من أن يسأل صدام، بصراحة، عما يجعله يبدو راضياً تماماً بالقليل، رغم انتقاله من «الشراشف الحريرية إلى سرير عسكري قابل للطي». باستثناء دراجة التمرين العتيقة، كان من الممكن وضع بقية ممتلكات صدام الدنيوية في عربة تسوُّق، ومع ذلك ظل الرجل، الذي فقَدَ كل شيء تقريباً، غير مبالٍ. أجاب صدام على سؤال إليس ببساطة بقوله: «أنا أتذكَّر كيف نشأت. كنت فلاحاً فقيراً».

يتحدث الدكتور علاء بشير، طبيب صدام الشخصي لما يقرب من عشرين عاماً، عن مريضه السابق قائلاً: «كان يعيش في الحقيقة حياة بسيطة. لقد رأيته مراتٍ كثيرة نائماً على فراش على الأرض. وكان يأكل كأي عراقي آخر –رأيته مراراً يطبخ لحرّاسه. وكان يعيش في منازل عادية ونادراً ما كان يمكث في تلك القصور التي بناها. ليس لدي شك بأن صدام لم يكن بصدق يحب حياة الترف».

ولكن، قد تكون هناك أسباب أخرى لشعوره المثير للدهشة بالرضا. فللمرة الأولى منذ عقود كان الرئيس السابق آمناً على المدى القصير، بما أن آليات محاكمته في نهاية المطاف كانت ما تزال قيد الإعداد. منذ أن كان يتفادى ضربات زوج أمه المسيء، لم يعرف صدام فترات طويلة من السلام والأمن. بالنسبة لرجل نجا بشق النفس من عدة محاولات اغتيال، وأمضى الكثير من حياته الراشدة منخرطاً في حروب خارجية كارثية، وصراعات داخلية عديمة الرحمة على السلطة، وهروب مستميت من الاعتقال، فمن الممكن أن تبدو بساطة الحياة الآمنة في زنزانة، مريحةً، لمدة قصيرة على الأقل.

كان إليس مسترخياً في غرفته في وقت متأخر من إحدى الليالي عندما سمع طرقاً على الباب. كان يشاهد فيلماً كوميدياً هزلياً على كمبيوتره فتنهّدَ لإعادته إلى الواقع رغماً عنه –الزيارات الليلية المتأخرة غير المتوقعة ليست جيدة أبداً. جرَّ نفسه على مضض من سريره العسكري القابل للطي وفتح الباب فوجد أحد حراس صدام الأميركيين يخبره بأن الرئيس السابق يريده. قطع إليس المسافة القصيرة المضاءة بنور القمر نحو زنزانة صدام وسأله عن المشكلة فأخبره صدام بأن معدته تؤلمه. في

العادة، كان إليس سينزعج لو قطع عليه أحد المحتجزين وقت استراحته المحدود من أجل مشكلة عادية، لكنه قرر عدم القسوة على صدام بما أنه نادراً ما كان يشتكي من أي انزعاج.

عرض إليس على صدام بضعة خيارات متاحة بدون وصفة طبية لتخفيف الألم، فاختار الرئيس العراقي بعضاً من أقراص Tums. وبعد تناولها، بدا صدام شارد الفكر لبضع لحظات قبل أن يخرج من حلم يقظته ويخبر إليس بأنه أعطى ابنته الصغيرة نفس الأقراص القابلة للمضغ عندما أحسَّت بألم في معدتها، لكنه طمأَن إليس بقوله: «لقد كسرتُها نصفين من أجلها».

بعد فترة وجيزة، انتزعت سلسلةٌ متلاحقةٌ من الأخبار السيئة، الآتية من سانت لويس، إليس من عالم صدام وجهوده لفهم سيكيولوجية العراقي. تلقّى إليس وابلاً من الإيميلات المقلقة على نحو متزايد من ريتا تبلغه فيها بأن أمه مريضة بشدة وأنها تريد رؤيته. أخذ إليس استراحة قصيرة من محاولاته المحمومة لترتيب رحلة طارئة إلى موطنه، واتصل بالمستشفى حيث كانت والدته تُعالَج فسمع الكلمات التي لا يرغب أي ابن –وخصوصاً إذا كان موجوداً في منطقة حرب على بعد آلاف الأميال- في سماعها: «أنا آسف جداً يا سيد إليس. آسف جداً».

غمره إحساس معذِّب بالذنب.

وما زاد من شدة حزنه، مشاعرُه المتضاربةُ بازدياد حيال مهمته الغريبة في العراق، إذ كان يجد مشقة في تقبُّل حقيقة أنه كان ظاهرياً يخدم وطنه من خلال تقديم الرعاية الطبية لرجل متهم بارتكاب جرائم حرب -وقد ينتهي به الأمر بالموت في أي حال- في حين أنه لم يكن قادراً على مساعدة أمه.

الفصل الثالث عشر
بغداد، العراق -نيسان 2004

رن جرس الهاتف المؤمَّن على منضدة عميل الإف بي آي، ميدلتون، في حاوية الشحن الصغيرة التي كان يمضي فيها جزءاً كبيراً من وقته، بينما كان منكبّاً على طباعة ملخّصات حول استجوابات صدام تعادل أكثر بقليل من مراجعة تاريخية لحكمه. كان آذار قد انقضى وحلَّ محلَّه نيسان ولم ينتج بعد عن استجواب صدام إلا القليل من القيمة الحقيقية.

كان الاتصال آتٍ من مقر قيادة الإف بي آي.

سأله رئيسه: ألا يجب برأيك أن نجري تغييراً؟ كان يشير بشكل غير مباشر إلى قيادة بيرو للاستجواب. ثم أضاف قائلاً: الشباب هنا غير سعداء، ويمكنك تخيُّل الضغط الذي يرزحون تحته من أجل استخلاص شيء ما من هذا الرجل.

كان ميدلتون يفهم دوافع القيادة، فقد شُنَّت حرب بأكملها، جزئياً، على أساس أن صدام كان يمتلك أسلحة دمار شامل، وبعد نحو عام على بدء الغزو، لم يكونوا أقرب لإيجاد أي شيء أكثر مما كانوا عليه في اليوم الأول. وفوق ذلك، كان يوجد تمرُّد يزداد قوة وشراسة. ولكن رغم ذلك، كان ميدلتون يعتقد أن بيرو يحتاج إلى أكثر من فرصة، فضلاً عن أن تغيير دور كبير المستجوبين يمكن أن يمزِّق الفريق، ويوحي لصدام بأنهم كانوا يائسين.

قال ميدلتون: لا، دعه في موقعه. امنحه مزيداً من الوقت.

كان توم نير، المحلل السلوكي في الإف بي آي، وآخرون في الفريق، قد

اقترحوا مقاربة ذات مراحل. وفيها تُفضي المرحلة الأولى، التي تقتضي بناء علاقة ودية، إلى مرحلة «تصنيف» تتضمَّن محاولات خفيّة لجرح كبرياء صدام وجعله يبدأ بالشك بإرثه. وستتلو هذه مرحلة «مقايضة» أخيرة يُمنَح فيها صدام فرصة لترميم صورته مقابل تعاونه. كان نير يعتقد أن «السبب الوحيد لنهوض صدام من سريره كل يوم هو إدارة إرثه».

غير أن بيرو ظل ملتزماً بالمرحلة الأولى. وفي هذا الشأن، يقول أحد أعضاء الفريق إن بيرو بدا «مهووساً بعلاقته الشخصية مع صدام». وهذا بالطبع يثير السؤال التالي: من كان يُسيِّر من؟ هل كان بيرو يطوِّر بذكاء ما بدا أنها علاقة حقيقية مع صدام بهدف استخلاص المعلومات، أم كان صدام، في واقع الأمر، يستميل العميل الشاب؟

سيقول ميدلتون لاحقاً حول الاستجواب تحت قيادة بيرو: «يتوجب عليك تغيير الأسلوب في نهاية المطاف. لا يمكنك أن تجلس هناك فقط وتكون 'سعيداً سعيداً فرحاً فرحاً' بالخوض عبر التاريخ وشرب الشاي».

لكن ميدلتون لم يبقَ ليرى إن كانت طريقة بيرو ستنتج مكاسب أم لا، بسبب حلول وقت عودته إلى الديار، أخيراً. لقد وعد زوجته باربرا بأنه سيبقى ثلاثة أشهر فقط. وشهد يومه الأخير في العراق اقترابه من إكمال مقابلة دامت أربع ساعات ونصف الساعة مع علي «الكيماوي» سيئ الصيت. كان يوماً حاراً، بلغت درجة الحرارة فيه 42°، لكنه لم يكن خانقاً. كان ميدلتون يرتدي بنطاله الفضفاض الاعتيادي ذا الجيوب الكبيرة وقميصاً ذا أزرار، على نمط قمصان السفاري، منفلتاً خارج البنطال. فجأةً هزَّت قذيفة هاون المعسكر، واهتزت معها الحاوية التي كانا يلتقيان فيها. صحيح أن هذا لم يكن نادراً تماماً، لكن ميدلتون وعلي توقفا قليلاً قبل أن يواصلا حديثهما. حاول ميدلتون الإسراع في إكمال ما اعتبرها جلسة ناجحة، فقد أدلى علي بتفاصيل قيِّمة حول هجمات صدام الكيماوية بحيث يمكن استخدامها كدليل خلال المحاكمة الختامية. بشعور غامر باللهفة للانطلاق أخيراً في رحلة العودة إلى الديار، كتب ميدلتون تقريره وأرفقه بإيميل آمن موجَّه لقيادة الإف بي آي، ثم ضغط على «إرسال».

بعد المناورة بسيارته، تويوتا هايلوكس، لتفادي قذائف هاون ساقطة بينما كان

يشق طريق مسرعاً عبر القاعدة الأميركية، لحق ميدلتون بالطائرة التالية (سي-130) المتوجهة إلى الأردن.

وصل إلى فندق الشيراتون في عمّان في منتصف الليل وتوجَّه مباشرةً إلى البرّاد وأخرج زجاجة فودكا ثم سحب نَفَساً عميقاً في محاولة لزفر الأشهر الثلاثة الماضية من التوتر والإحباط. وبعد ذلك رفع سمّاعة الهاتف.

في الطرف الآخر من العالم، كانت باربرا تحضِّر العشاء لولديهما فإذا بالهاتف يرن. رفعت السمّاعة فسمعت صوت زوجها يقول: حبيبتي لقد خرجت.

لم يعرف ميدلتون ماذا يقول غير ذلك. كانت أحداث الساعات الأربع والعشرين الماضية أغرب من أن تُختصَر في أي شيء يمكن أن يكون ذا معنى بالنسبة لامرأة تعدُّ العشاء لولديها في أوماها التابعة لنبراسكا. بعد انتهاء المكالمة شغَّل تلفزيون الفندق وحاول حثّ نفسه على الاهتمام بتغطية بطولة الأساتذة في الغولف، لكنه كان ما يزال يشعر بالغربة، غير قادر على إدراك «الحياة الحقيقية».

في اليوم التالي، بينما كان ينتقل بين مطارات متنوعة، مُنهياً المراحل الأخيرة من رحلته إلى الوطن، وجد ميدلتون صعوبة في التوفيق ما بين جموع المسافرين من رجال الأعمال الذين كانوا يرتادون محلات كارتييه وإيرميز وبين الحرارة والتراب والعنف التي تركها خلفه. كانت الباحات الساطعة التي مشا عليها تُشكِّل مزيجاً غامراً من الكمال واللمعان والضوضاء، ما جعل ذهن ميدلتون يدور بسرعة، فقال لنفسه: ثمة شيء خاطئ؛ كل شيء رائع.

التقى أخيراً مع باربرا في مطار إبلي في أوماها ومن هناك توجَّها بسيارتهما ليأخذا الولدين من المدرسة. وعندما وصلوا إلى منزلهم، ذُهل ميدلتون لرؤية جميع جيرانه وأولادهم مجتمعين على الطريق الفرعي الخاص بمنزله وقد علَّقوا زينة حمراء وبيضاء وزرقاء مع لوحات من الورق المقوّى كُتب عليها «أهلاً بك في وطنك». كان أمراً غير متوقَّع ومؤثِّراً للغاية.

حول تلك اللحظة يقول ميدلتون: «ربما كان أروع شعور أحسست به في حياتي».

كان امتنانهم يتّسم بنقاء كان غائباً في الأشهر الثلاثة السابقة، التي كان يستكشف فيها أشد أعماق الطبيعة البشرية ظلمةً. كان، في آن واحد، فخوراً بما أحسَّ أنه استجواب ناجح لعلي الكيماوي ومحبَطاً، بالمعنى المضايق الملحّ للكلمة، لأن صدام تغلَّب عليهم. لكن الأهم من كل ذلك هو أنه كان مسروراً لخروجه «من حفرة البراز تلك والقذائف الساقطة عليّ».

وفي اليوم التالي، بينما كان واقفاً على شرفة منزله الخلفية، بلغ به التأثُّر بالخضرة اللامعة لملعب الغولف -المناقض القُطبي للطبيعة العراقية القاحلة التي اعتاد عليها- درجةً جعلته يجهش بالبكاء.

في وقت لاحق من ذلك الشهر، توفيت باربرا بشكل مفاجئ نتيجة توقف قلبها في عمر السابعة والثلاثين بسبب حدوث رجفان بطيني عفوي مجهول السبب. لم يستطع الأطباء تقديم تفسير لما حدث. لقد تبيَّن أن ميدلتون أمضى كل يوم تقريباً مما سيتبيَّن أنها الأشهر الثلاثة الأخيرة من حياة زوجته في الاستماع لتبجُّح صدام حسين ليُترَك في النهاية وحيداً للاهتمام بولديهما -الكبير في الرابعة عشرة والصغير في الثانية عشرة. كان المحارب القديم الفخور في القوات الجوية، والعضو السابق في وحدة الشرطة الخاصة، والمحقق في مجال الإرهاب، في حالة انهيار. ورغم أن التخطيط لعودة ميدلتون إلى بغداد في تموز كان قد بدأ مسبقاً، إلا أنه لن يذهب هذه المرة.

الفصل الرابع عشر
بغداد، العراق –ربيع العام 2004

بعد دفن أمه وعودته إلى معتقل كروبر، وجد إليس صدام جالساً على سريره الصغير، ظهره إلى الجدار، ويكتب بنشاط على كرّاسته الصفراء. مع مرور كل يوم، كان يبدو بأنه يزداد ولعاً بتثبيت أفكاره على الورق. لطالما أبدى صدام انشغالاً هَوَسياً بإرثه، ولابد أنه أدرك بأنها قد تكون فرصته الأخيرة لضمان نقل أفكاره وتأمُّلاته للأجيال التالية.

كانت هناك بضع أمسيات بدا فيها صدام متلهفاً جداً لإراحة نفسه من عبء قضايا لابد أنها كانت تثقل كاهله. لعل استجواب بعد ظهر ذلك اليوم نقَرَ على وتر حساس، وكان ما يزال منزعجاً. في تلك الليلة، أعرب صدام -وكان الاهتياج واضحاً عليه- عن احتجاجه على الاتهامات الظالمة، حسب زعمه، التي وجَّهتها له إدارة بوش بغرض تبرير الغزو.

بدا محتاراً بصدق عندما سأل إليس، مقلِّداً جندياً يطلق النار من بندقيته: «لماذا يأتي الجنود؟ إنهم لم يجدوا شيئاً». كان يقصد بالطبع البحث عن أسلحة الدمار الشامل التي شكَّلت ذريعة الغزو.

كان إليس في العادة يبذل قصارى جهده لتجنُّب الانجرار إلى مثل هذه النقاشات. لقد طُلب منه عدم مناقشة أية مواضيع إشكالية. إضافة إلى ذلك، لم يكن يملك إجابات جيدة على أسئلة صدام الوجيهة. ولكن، مع ذلك، لم يكن بوسعه دائماً تخليص نفسه من حوارات تشعَّبت إلى أماكن مشحونة. ذات مرة، سأله صدام عن كيفية سير المهمة الأميركية في العراق. كان يسمع أحياناً أصوات انفجارات وإطلاق

نار من غرفة استراحته الخارجية، ولهذا فقد كان واضحاً لديه أن الأميركيين كانوا يواجهون مقاومة لجهودهم الرامية لترسيخ الأمن. في هذه المرة، أخذ صدام إليس في رحلة عبر الذاكرة، متذكِّراً سلاسة علاقته مع أميركا في عهد الرئيس ريغان، ورسم بيده حركة انزلاق في الهواء للتشديد على هذه النقطة. وفي النهاية سأله: ماذا ستربح أميركا من هذا؟ بدت الحيرة واضحة عليه.

ولما لم يجب إليس، أضاف صدام بنبرة جدِّية: «سوف يتمنُّون لو أنهم أرجعوني».

بينما كان إليس يستمتع بتدخين سيجار مع صدام في وقت مبكر من صباح أحد الأيام فإذا به يتلقّى اتصالاً عاجلاً على جهازه اللاسلكي يطلب منه الاتصال بقيادته. وبعد الاتصال مع القيادة على وجه السرعة، بُلِّغَ رسالتين، إحداهما تطلب منه الاتصال بزوجته فوراً، والأخرى الاتصال بالصليب الأحمر. أخذ إليس نَفَساً عميقاً فهو يعرف هذا الإجراء الروتيني، وهو ليس جيداً. اتصل مع ريتا فأخبرته بأن شقيقه لاري في المستشفى وحالته حرجة، إذ كان ضغط دمه 80 على 20 وكان ينزف من المريء. لم يكن إليس بحاجة لسماع المزيد ليعرف أن شقيقه، البالغ من العمر 52 عاماً، كان يحتضر. قاوم إليس للحفاظ على رباطة جأشه.

رغم أن الخبر كان مفاجئاً، إلا أن إليس كان يعلم منذ وقت طويل أن لاري كان يسير على درب خطر ومدمّر للذات، مكوَّن من خليط من المخدرات والكحول والمخالفات القانونية الصغيرة. بعد أن أخذ إليس بضع دقائق لاستجماع نفسه، حزم حقائبه بسرعة وشرع في رحلة ماراثونية أخرى نحو الوطن.

في عصر ذلك اليوم، وبينما كان جالساً في محطة المسافرين في مطار بغداد، يغطّيه العرق ويحيط به مجموعة من الجنود المتوجهين إلى الديار في إجازة، سرحت به أفكاره. لحظاتٌ كهذه -يُنتزَع فيها المرء فجأةً من روتينه اليومي المحجِّر للعواطف- يمكن أن تُحدث تجلّيات وجيزة؛ لقد أدرك أنه في ذلك اليوم كانت قد مضت ستة أشهر بالتمام والكمال على وفاة أمه.

وبينما كان مثبّتاً بحزام الأمان على مقعده في طائرة السي-130، أحسَّ بغضب حارق يغلي في عروقه. كان غاضباً لوجوده، مرة أخرى، في ما وراء البحار

عند حدوث اضطراب في العائلة، وكان غاضباً من أخيه لأنه اتخذ الكثير من القرارات على مر السنين لإصلاح نفسه، لكنه كان يستسلم للإغراء في كل مرة. وإلى جانب الألم العميق الناجم عن الاحتمال شبه المؤكد لموت أخيه، أدرك إليس وجود شيء آخر يزعجه؛ شيء خَبِرَهُ منذ فترة وجيزة ولم يستطع فهمه.

قبل مغادرته نحو المطار، قام إليس بزيارة مرتجلة لصدام لإبلاغه بشأن أخيه، وبأنه سيذهب إلى الوطن ولن يقوم بتفقُّده لمدة أسبوع أو نحو ذلك. لم يشأ إليس أن يتساءل صدام بشأن غيابه. كان دافع إليس لإخباره بالحقيقة نابعاً، جزئياً، من شعور بالواجب، بما أنه كان مسؤولاً عن حالة صدام الصحية، ولكن أيضاً –رغم أنه كان يكره الاعتراف بذلك- لأنه وجد بأنه لم يكن يريد إزعاج صدام. ولعل شعوره هذا كان متبادَلاً، كما سيتبيَّن، فبعد أن شرح لصدام بأنه سيفقد أخاه وبأنه سيغيب لبعض الوقت، وقف صدام وعانقه ثم قال: «سأكون أخاك».

الفصل الخامس عشر
بغداد، العراق -أواخر حزيران 2004

كان قد مضى على عودة رود ميدلتون إلى الوطن بضعة أشهر –مع انقلاب حياته رأساً على عقب بخسارة زوجته المفاجئة- حين حمل جورج بيرو صدام على الاعتراف بأنه تخلّى عن برنامجه لتطوير أسلحة دمار شامل وبأنه لم يرتبط بأية علاقة جوهرية بالقاعدة. تحت ضغط من بيرو أنكر صدام أي صلة له مع أسامة بن لادن –نفس الإنكار الذي سيدلي به طوعاً أمام السوبر اثني عشر. وعلى سبيل شرح موقفه، قال صدام لبيرو: «أنا مؤمن، لكنني لست متعصّباً ... لا يجب أن يختلط الدين بالدولة». وقد أفصح أمام محققي السي آي إيه عن قلق مشابه حيال خطر تغلغل الزعماء الدينيين في الحكومة، مشيراً إلى وجوب عدم السماح لـ «العمائم» بامتلاك السلطة وممارستها.

رغم أن الوصول إلى هذا الاعتراف استغرق ما يزيد على ستة أشهر، وساعات لا تُحصى من الاستماع لوعظ صدام، إلا أن بيرو اعتبره نجاحاً.

قُبيل توجُّه بيرو إلى المطار من أجل العودة إلى الولايات المتحدة، ذهب لرؤية صدام للمرة الأخيرة. وبينما كانا يدخّنان سيجاراً، ابتسم صدام وقال: أتعلم، ربما إذا تمكَّنتُ من الخروج، يمكننا إنشاء شركة استشارية معاً.

انضمّ بيرو إلى النكتة قائلاً: بالتأكيد، إذا تمكَّنتَ من التخلُّص من هذه التهم، سأفكر في الأمر.

بعد ذلك عانقه صدام وقبَّله ثلاث مرات على خدّيه. إذا كان صدام يشعر حقاً

بأن المحقق تغلّب عليه، فإنه لن يُظهر ذلك أبداً.

عندما كان بيرو على متن الطائرة المغادرة من بغداد، كان يشعر باعتزاز وفخر كبيرين. كان يشعر بأن خطته نجحت؛ بأن جهوده الصبورة لتطوير علاقة ودية مع صدام نجحت في استخلاص معلومات قيّمة. ولكن، كان هناك من يخالفه هذا الشعور، وبينهم العديد من أفراد فريقه بالذات. في الحقيقة، كان الكثيرون في المؤسسة الاستخبارية قد اقتنعوا منذ بعض الوقت بأن صدام لم يعد يمتلك أسلحة دمار شامل، وقلة منهم كانوا يعتقدون بأنه تحالف مع القاعدة بأية طريقة ذات معنى. وفي كل الأحوال، باستثناء هذين الاعترافين –إذا كان ينبغي تصديق صدام أساساً- ما الذي تم إنجازه حقاً؟

حول هذا الأمر يقول جون ماغواير من السي آي إيه: «لقد انتصر صدام حقاً. لقد أخطأنا في تقدير من كنا نتعامل معه –كل ما كان يهمُّه هو صياغة التاريخ وموقعه في العراق. أن نعتقد بأننا كنا قادرين على مصادقته، وبناء علاقة ودية معه، وحمله على إخبارنا بكل شيء، كان أمراً ساذجاً إلى أقصى الحدود».

وسيكون المحلل السياسي المحافظ توم جوسيلين أشد المنتقدين قسوةً، حيث كتب: «الحقيقة هي أن المذكرات [مذكرات الاستجواب] عديمة القيمة بشكل شبه كلي من منظور استخباري. لقد حوَّل صدامُ الإف بي آي إلى كاتبه الاختزالي الخاص».

رغم حقيقة أن الاستجواب انتهى مع تطوُّع الرئيس السابق بتقديم القليل من المعلومات القيّمة، إلا أن الإف بي آي ستواصل جمع أدلة أكثر من كافية من مقابلات مع المتهمين الآخرين، ومسؤولين حكوميين سابقين، وشهادات الضحايا –إضافة إلى مجموعة قيّمة كبيرة من المواد من أرشيف حزب البعث- من أجل بناء قضية مُحكَمة بغرض محاكمة صدام على ارتكابه جرائم بحق الإنسانية.

السؤال الجديد هو: هل سيكون صدام فعَّالاً في توجيه محاكمته مثلما كان في توجيه مستجوبيه؟

الجزء الثالث

مُدان

كان يستلقي كمن يستلقي ويحلم

في مرج جميل

وكان الحرّاس يشاهدونه حين ينام

ويتعذَّر عليهم الفهم

كيف يمكن لشخص النوم بهذا الهناء

وهناك جلاد ينتظر على مقربة منه.

-أوسكار وايلد، 'أغنية سجن القراءة'

الفصل السادس عشر
عمّان، الأردن -خريف العام 2005

كان الدكتور نجيب النعيمي، وزير العدل السابق في قطر، يجمع أشياءه ويستعد لمغادرة مؤتمر لحقوق الإنسان في عمّان، عندما اقتربت منه محامية لبنانية وقالت: رغد حسين، ابنة صدام، تود مقابلتك. وهي تود منك الانضمام إلى فريق دفاع والدها. إنها تعيش هنا في عمّان.

كانت محاكمة صدام على جرائم بحق الإنسانية قد بدأت مؤخراً في المحكمة العراقية العليا في بغداد، وكانت رغد تتطلَّع لمزيد من القوة النارية القانونية للمساعدة في الدفاع عن والدها في تهمة إصدار الأمر بقمع الدجيل إثر محاولة الاغتيال الفاشلة في 1982، التي أدت إلى ما زُعم أنه مقتل 148 شيعياً.

لم يكن الدكتور النعيمي مؤيداً لنظام صدام.

أجاب على اقتراح المرأة على الفور، قائلاً: لا، لا. هذه المحاكمة مهزلة، ووجودي لن يقدِّم شيئاً سوى منحها شرعية.

بيد أن هذا الجواب لم يردع المرأة التي قالت: من فضلك، رغد تريد حقاً مقابلتك.

وبعد مزيد من المناشدات والرفض اللطيف، لان النعيمي أخيراً، ولكن على مضض. رغم استهجانه لحكم صدام، إلا أنه كان يؤمن حقاً بأحقية أي شخص في الحصول على محاكمة عادلة. والتزامه بهذا المبدأ دفعه سابقاً لتمثيل أكثر من سبعين متهماً بارتكاب أعمال إرهابية في سجن غوانتانامو.

***

كانت رغد تعيش في عمّان منذ هربها من بغداد بعد مدة ليست بطويلة من غزو العراق في 2003. وكانت تلك هي المرة الثانية التي تبحث فيها عن ملجأ آمن في الأردن، بعد فرارها في 1995 مع شقيقتها وزوجيهما وعائلتيهما إثر نزاع مع شقيقهما عدي المتهوّر والمنفلت من أية ضوابط.

رتَّبَت مبعوثة رغد اللبنانية أمر توصيل النعيمي –وهو رجل ضخم ذو شخصية قوية- إلى فيلا رغد. حين رأت رغد النعيمي مشت نحوه لملاقاته والترحيب به. كان منزلها قد تحوَّل إلى مقام لوالدها، إذ كانت جدرانه مغطاة بصور صدام وتذكارات أخرى تحتفي بعهده في السلطة.

قالت له بلطف: «شكراً لك لموافقتك على تمثيل الرئيس».

كانت ما تزال تعتبر نفسها ابنة الرئيس، وقد ورثت كاريزما وحضوراً مألوفين لكل من عرف والدها.

لكن النعيمي كان يملك هيبته الخاصة أيضاً، ولم يكن ليسمح لنفسه بالانقياد لسحر رغد. لذا قال لها بتهذيب، مصحِّحاً: أنا لم أوافق على أي شيء.

بشيء من الارتباك نتيجة هذا الانحراف عن المسار الذي كانت تتوقعه، قالت: آه، فهمت. كان واضحاً لوزير العدل السابق أنها كانت معتادة على الحصول على ما تريد. ثم أضافت، محاولةً خلق جو من الدماثة المريحة: دعنا نقدّم لك بعض الشاي.

فقال النعيمي: شكراً. ثم ألقى نظرة فضولية حوله بينما كان الشاي يُقدَّم له.

أبدى إعجابة بالأثاث الجميل فاعتذرت رغد قائلةً إن الكثير من المفروشات مصنوعة في أميركا.

فضحك النعيمي وقال إن الأميركيين قادرون أيضاً على صنع أثاث جميل.

طلبت رغد بتهذيب من بضع نساء في الغرفة الانصراف فامتثلن لتوجيهها

بانصياع. وبعد مغادرتهن على الفور سألته: لماذا ترفض تمثيل الرئيس؟ أنت محام عن حقوق الإنسان وهو قائد عربي ويطلبك بالتحديد.

فأجابها النعيمي: أولاً، أنت تواصلين الإشارة إليه بـ «الرئيس». وهو لم يعد «رئيساً». إنه والدك، وأنا سأشير إليه بهذه الطريقة.

صُدمت رغد، إذ لم يكن مألوفاً لديها أن يخاطبها أحد بهذا الأسلوب. عندما فرَّت إلى الأردن مع زوجها في التسعينيات، همست على نحو تواطئي لبعض الأردنيين الموثوقين بأنها، في حقيقة الأمر، كانت صاحبة القرار في زواجها. أرغمت نفسها على الابتسام، متظاهرةً بلامبالاة هادئة بتصريحات النعيمي الفجّة.

تابع النعيمي كلامه، قائلاً: ثانياً، لدي عدد من الشروط قبل أن أفكر في القبول.

فقالت رغد بحَيرة، غير عارفة لماذا بدأ اللقاء بهذه البداية السيئة: ولكن، مهلاً. قال لي رامزي بأنها فكرة حسنة –كانت تشير إلى رامزي كلارك، النائب العام الأميركي السابق الذي كان قد وافق مؤخراً على الدفاع عن صدام. منذ مغادرته الحكومة، مرَّ كلارك بتحوُّل جذري، مستغلاً الدعاية التي وفَّرها له دفاعه عن منبوذين دوليين –من تشارلز تيلور إلى سلوبودان ميلوسيفيتش- في انتقاد السياسة الخارجية الأميركية بقسوة.

قال النعيمي: أعرف كل شيء عن رامزي. أعلم أن لديه آراء ودوافع سياسية قوية. أنا لست كذلك. أنا لا أعرف أباك، وكنت معارضاً لنظام حكمه طوال حياتي. من الناحية السياسية، لسنا، ولم نكن قط، في الخندق نفسه. سكت قليلاً، كأنه كان يفكر في شيء ما، ثم واصل كلامه: أما من الجانب الإنساني، فهو يملك الحق في اختيار محام، مثل أي شخص آخر في هذا العالم. إذا كان والدك يريدني فيجب عليه أن يكتب رسالة يطلب مني تمثيله، ويجب أن يوقِّعها. سوف أقبل ذلك. ولن أطلب دولاراً واحداً كأجر أو أتعاب. إذا كنت سأفعل ذلك، فسأفعله تطوُّعاً. لستُ رخيصاً لأُشترى.

فقالت رغد بسرعة: لا، لا، يمكننا بالتأكيد أن ندفع لك.

لست بحاجة لأموالكم. أنا رجل غني. ولا أبحث عن تجارة.

وبعد تحديد معايير العلاقة، وجد النعيمي نفسه مضطراً لمواجهة رغد بما كان يعتقد أنها حقيقة لا مفر منها: يجب أن تفهمي أن والدك سيُشنَق.

أجابت رغد: لا تقل ذلك! لقد تلقيتُ عدة رسائل تقول إن بوش قد يرسل شخصاً ما للتوسُّط، وأن أبي قد يكون قادراً على الذهاب إلى قطر كضيف.

فقال النعيمي، آملاً بأن تخلِّصها صراحته مما كان يعتبره أوهاماً: هذا النوع من الهراء لن يحدث. ستُجرَى المحاكمة، وستنتهي بحكم يقضي بشنق والدك. يجب أن تفهمي. لقد كنتُ وزيراً في بلدي، وأعلم كيف تجري مثل هذه الأمور. هذه المحكمة ستكون محكمة مُصطَنعة، ليست حقيقية، ووالدك لن يتلقى أبداً دفاعاً مناسباً. جميع القضاة سيكونون مدفوعين بأحقاد وسياسات عرقية نحو والدك.

قالت رغد بوجه شاحب: ألا يوجد ما يمكننا فعله؟

لم يُجب النعيمي على سؤالها.

كان من الصعب معرفة إن كانت رغد أكثر انزعاجاً بسبب هذا التقييم الواقعي لوضع والدها، أم بسبب النتيجة الضمنية المتمثِّلة في كونها لن تعود أبداً إلى العراق كجزء من استعادة سلطة حزب البعث في نهاية المطاف. يظن النعيمي بأن السبب الأخير أزعجها أكثر. على أي حال، قال لها النعيمي: أنا أخبرك الحقيقة وحسب. وبذلك أَوصلَ لقاءهما إلى ختامه.

الفصل السابع عشر
المحكمة العراقية العليا، بغداد، العراق -صيف 2005

قال صدام للعضو الجديد في فريقه القانوني: سلام سيد النعيمي. كان الرئيس العراقي السابق ووزير العدل القطري السابق يلتقيان في غرفة انتظار فارغة تحت قاعة المحاكمة في المحكمة العراقية العليا في المنطقة الخضراء من بغداد. وكان هناك أعضاء آخرون في فريق دفاع صدام، إضافة إلى النعيمي، بينهم رامزي كلارك، وخليل الدليمي، وخميس العبيدي –المحاميان الأخيران عراقيان. بعد تبادل التحيات، قبَّل العراقيان يد صدام كرمز تقليدي للاحترام والتبجيل. أما كلارك والنعيمي فلم يفعلا.

بعد ذلك جلس الرجال حول طاولة بسيطة. كانت الغرفة تعبق بدخان سيجار صدام، وهو أمر سينزعج منه النعيمي، المهتم بصحته، بشكل متزايد مع تعمُّق علاقتهما. جلس عراقي ملتحٍ يرتدي بذة رسمية بهدوء على كرسي بجانب الباب دون التعريف بنفسه. فنظر النعيمي إلى الرجل بارتياب، آملاً أن تكفي نظرته الثلجية لإقناعه بأنه لم يكن مرغوباً به. بيد أن العراقي لم يتزحزح من مكانه.

فسأله النعيمي ببرود: من أنت؟

أجاب الرجل: أنا مأمور المحكمة.

لم يكن النعيمي يعرف معنى ذلك، ولم يكن من النوع الذي يخاف بسهولة، لذا قال له: وماذا تفعل هنا؟

أجابه الرجل: لا شيء، أجلس فقط.

فسأله النعيمي بنبرة ساخرة: وهل هذا مطعم أو شيء ما؟

فأجابه الرجل: لدي توجيهاتي.

فقال النعيمي: اجلب لي رئيسك.

امتثل الرجل للأمر وعاد بعد قليل مع ضابط بحري قال عند دخوله الغرفة: ما المشكلة؟ لكن نبرة صوته كانت توحي بأنه يريد حلحلة الوضع وليس تصعيده.

قال له النعيمي: هناك شيء يُدعى السرية مع الموكِّل، وهذا الرجل لا يريد أن يغادر.

فأجابه الضابط: دعني أسأل رئيسي.

هنا اكتفى النعيمي، منزعجاً من التأخير، فقال باستياء: اسمع، إذا لم يغادر، فنحن لن نجري اجتماعاً، وصدام لن يمتلك أي تمثيل قانوني، وسأخبر المحكمة والعالم أي إجراءات فظيعة تقومون بها.

فقال الضابط البحري: لا بأس، لا بأس، دعنا نذهب.

بينما كان الضابط يقود المراقب غير المدعوّ إلى الخارج، أطلق صدام ضحكة عميقة وراح يصفِّق قبل أن يقول للنعيمي باستحسان: لابد أنك تمتلك كاريزما قوية لتتحدث بهذه الطريقة. ثم رمق محاميه العراقي بنظرة ازدراء وأضاف قائلاً: كان هناك شخص يجلس دائماً في اجتماعاتي مع خليل.

فقال النعيمي: أنا لست خليلاً. كان خليل ينظر إليهما بارتباك وصمت، لكنه لم يكن راغباً في مجادلة هذين الرجلين المتنفِّذين.

قال صدام: هل يمكننا التحدث بحرية الآن؟

فأجابه النعيمي: بالتأكيد، لا يوجد دكتاتورات في الغرفة. كان المعنى المزدوج في انتقائه للكلمات مقصوداً.

ردّ صدام قائلاً: آه، دكتور نجيب ذكي جداً. ثم ضحك مرة أخرى. كان يعلم

بأن القطري محام بارع وغير مؤيد لحكمه السابق.

سأل النعيمي صدام: قبل أن نبدأ، هل هناك شيء تحتاجه حقاً. ليس قانونياً، بشكل عام. هل هناك أي شيء لم تحصل عليه وترغب به؟

فسأله صدام باندهاش واضح لحصوله على هذه الفرصة: هل يمكنني أن أطلب؟ ودون تضييع الكثير من الوقت في التفكير، قال: أنا بحاجة لحذاء جديد. إنني أرتدي هذا الحذاء منذ سنتين وهو ليس لي. ثم أعطى بسرعة قياسه، إضافة إلى قياسات بعض البذّات الجديدة والألبسة الأخرى التي يحتاجها. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي يبتهج فيها صدام خلال النقاش.

مع انتقال النعيمي إلى جانب آخر أقل إراحةً بالنسبة للدكتاتور السابق، أصبح جلياً بأن صدام كان أكثر اهتماماً بمظهره، وبالجانب الإعلامي من المحاكمة عند بثها في الشرق الأوسط، من اهتمامه بالدفاع القانوني.

ولم يساعد تشاؤم النعيمي في تشجيع صدام على المساهمة بمزيد من الفعالية في تطوير استراتيجية قانونية.

قال النعيمي بدون مواربة: لا يوجد شيء يمكننا فعله للنجاح في هذه المحاكمة. هؤلاء القضاة مجرد سياسيين، وهذه المحاكمة ليست سوى مسرحية كُتب نصها مسبقاً.

لم يتحدث أحد مع صدام بهذا النوع من الصراحة. وبعد لحظات من الصمت المشحون، قال الرئيس السابق بهدوء: «أعلم». ثم أضاف: ولهذا السبب نحن بحاجة لتركيز طاقاتنا على وسائل الإعلام. نحن بحاجة لأن نوصل للعالم أن هذه الإجراءات القضائية مسرحية هزلية. لننسى أن هذه المحكمة قادرة على الحكم بالعدل، ولنستغلها كمنصّة لإظهار إجرام الاحتلال برمّته.

قبل أن يسترسل صدام في حماسه، شعر النعيمي بأنه مجبر، مجدداً، على تخليصه من أية أوهام قد تكون ما تزال تساوره، فقال: سوف تُشنَق.

كان هذا كافياً لإخراج رامزي كلارك من صمته، إذ قال: لماذا تتحدث بهذه

الطريقة. لقد استاء كلارك من تشاؤمية النعيمي الصريحة على نحو يكاد يكون غير ضروري.

فقال النعيمي لكلارك إنه كان مرغماً لاتباع تلك الطريقة القاسية من الصراحة من أجل إبطال تأثير بعض العراقيين الذين كانوا يغذّون آمال صدام بخلاصه من سجنه، وبأن العراقيين يقاتلون ويهزمون الأميركيين خارج السجن في كل يوم، وبأنه لن يمضي وقت طويل حتى يتمكّن مناصروه من تحريره. ثم أضاف قائلاً: هذه الصورة التي يرسمونها هراء. وهم يغشّون صدام من خلال تضليله.

فسأله صدام: ما هو رأيك سيد النعيمي؟

كان بمقدور الرئيس السابق أن يبدو أحياناً قليل الكلام إلى حد بعيد - أمرٌ يمكن أن يجده من يلتقيه لأول مرة ساحراً. ذات مرة، قال الدكتور علاء بشير -طبيبه لمدة تقرب من عشرين عاماً- حول هذه الخصلة في شخصية صدام: «عندما تتحدث معه، يصغي إليك. لم أعرف في حياتي شخصاً أحسن إصغاءً منه. إنه لا يبدو نفس الرجل الذي يفعل هذه الأفعال الشنيعة».

فأجابه النعيمي وكأنه لا يصدِّق ما سمعه: رأيي؟ أي رأي؟ ما قلتُه حقيقة.

وأخيراً، قال صدام بمزيج مثير للفضول من القبول والتصميم: حسناً، إذا كان هذا سيحدث، فإنه سيحدث. هل يمكنك التحدث مع الأميركيين وإبلاغهم بأنني، بصفتي قائداً للجيش العراقي، أريد أن أُقتَل رمياً بالرصاص وليس شنقاً؟ فكرةُ أنه قد يُشنَق كأي مجرم عادي –أو «علي بابا»، التسمية التي يطلقها العراقيون احتقاراً على المجرمين، أو الأسوأ من ذلك، خائن- بدت بأنها تزعجه أكثر من الموت نفسه.

عندئذ، سرد النعيمي لصدام قصة هيرمان غورينغ، الذي أَقدَمَ على الانتحار عشية تنفيذ حكم الإعدام شنقاً في نورمبيرغ.

فأجابه صدام، رافضاً الفكرة، ولكن دون التهجُّم على ناقلها: أنا مسلم. لن أفعل ذلك.

بعد سنوات، قال النعيمي إنه توقّع مقابلة صدام «قاس»، شخص يفتقر إلى

حُسن الإصغاء ويطلب الطاعة والإذعان من فريقه. ثم قال: «لقد أعجبت به منذ ذلك اللقاء الأول».

الفصل الثامن عشر
المحكمة العراقية العليا، بغداد، العراق

خريف 2005

همس صدام بحقد عند مروره برئيس هيئة الادعاء جعفر الموسوي، قائلاً: «شروجي». كانت الساعة تشير إلى 12:21 من بعد ظهر يوم 19 تشرين الأول ،، وكان صدّام آخر المتهمين الثمانية الذين دخلوا قاعة المحكمة العراقية العليا، ليُحاكَم بسبب جرائم بحق الإنسانية يُزعَم ارتكابها أثناء عمليات القمع التي حدثت في الدجيل في 1982. لقد كانت كلمته إهانةً فظّةً تُستخدَم للاستهزاء بالمسلمين الشيعة من المناطق المحاذية للحدود مع إيران بوصفهم متخلّفين وغير متحضِّرين –تشبه نَعتَ شخص ما بالقروي أو أحمر الرقبة في الولايات المتحدة. لم تكن الأحقاد الطائفية خافية أبداً خلال المحاكمة، وبما أن المداولات كانت مُتلفزة، فقد طفت هذه الأحقاد في بعض الأحيان على السطح ورآها العالم بوضوح.

خلافاً لبقية المتهمين، لم تكن يدا صدّام مقيَّدتين. وفي ذلك اليوم، بدا صدام مختلفاً جداً عن الرجل الأشعث المُغبر الذي انتُشِل من وكر العناكب. كان يرتدي بذة رمادية أنيقة دون ربطة عنق وكانت لحيته مشذّبة حديثاً، ويمسك بيده قرآناً أخضر اللون منقوشاً بحروف ذهبية –كان ضخماً، بحجم قاموس كبير من القواميس القديمة جلدية الغلاف، وكان يحمله بفخر وبشكل ظاهر كما سيفعل طيلة فترة المحاكمة. رمزٌ لقيَ استحساناً كبيراً عند الموالين السُّنّة رغم الإقرار الواسع بأنه لم يعش أبداً حياة تقيَّة ورعة.

دبَّت الحيوية في القاعة عندما دخل إليها صدّام متبختراً، بطريقة مشابهة

لاعتلاء موسيقيٍّ خشبة المسرح بعد فترة من الترقّب القلق. ذكَّرَ دخولُ صدام الخيلائي إلى قاعة المحكمة بول سفار -الشرطي العسكري التكساسي الممتلئ الذي لم يصل إلى العراق حتى المراحل المتأخرة من المحاكمة، مثل بقية السوبر اثني عشر– بدخول أحد مصارعي بطولة المصارعة الحرة الترفيهية (WWE) إلى الحلبة. عندما دخل صدّام، نهض المتهمون الآخرون ومحامو الدفاع بانصياع احتراماً للزعيم المخلوع، في عرض محرج للولاء حرصت السلطات على عدم حدوثه مرّة أخرى، ففي جلسات المحاكمة اللاحقة، اقتيد الحاكم المخلوع أولاً.

مَثُل صدّام أمام المحكمة العراقية العليا؛ «المحكمة المحلية ذات الطابع الدولي»، التي تضمَّنت تشريعات تكاد تكون مقتبسة حرفياً من المحكمة الجنائية الدولية دمجتها مع الإجراءات الجنائية العراقية. وقد ترأس خمسة قضاة عراقيين محاكمة صدام وسبعة متهمين آخرين. من الملفت للنظر أن سالم الجلبي، ابن أخ أحمد الجلبي -المغترب العراقي الشيعي البارز الذي ساعدت ضغوطاته الماكرة في إقناع إدارة بوش بشنِّ الحرب- لعب دوراً كبيراً في اختيارهم. في الحقيقة، لقد أثارت الارتباطات الوثيقة ما بين المحكمة والأميركيين والسياسيين العراقيين الشيعة، الذين كانوا معارضين صريحين لنظام صدام، تساؤلات شبه فورية حول موضوعية القضاة.

دار صدام دورة كاملة وعاد إلى موقعه السابق، فالمحكمة كانت تقع في الشارع نفسه الذي يوجد فيه القصر الجمهوري، مركز السلطة المطلقة التي مارسها إلى ما قبل بضع سنوات قصيرة خلت. لقد تأسست المحكمة تحت رعاية سلطة التحالف الأميركي المؤقتة (CPA). وكان دويُّ انفجارات المدفعية الأميركية القريبة يهزّ جدران قاعة المحاكمة بتواتر أكبر مع استمرار تدهور الوضع الأمني في بغداد. وفي حين كان بعض المدنيين الأميركيين، الذين يساعدون الحكومة العراقية في المنطقة الخضراء، ينظرون إلى هذا الأمر على أنه تطور إيجابي -دليل على أن الجيش كان «يدكُّ الأعداء» بحق- فقد كان آخرون ينظرون إلى العنف المتصاعد بقلق شديد. معظمهم كانوا يرون بأن صدّام سوف يزداد جسارةً بفعل المذكِّرات الصوتية التي تشي بأن الاحتلال لم يكن يسير بالسلاسة التي يحاول الأميركيون جعله يظنّ أنه كذلك.

كان رزكار أمين هو أول رئيس للمحكمة، وهو كردي أجلح، أشيب الشعر والشارب، غالباً ما كانت نظارته الخاصة بالقراءة تجثم فوق أنفه الذي يشبه منقار الصقر. وكان الوحيد بين القضاة الذي يسمح لنفسه بالظهور أمام الكاميرا رغم المخاطر الأمنية الواضحة التي يُشكّلها ذلك عليه وعلى عائلته. كان يرتدي بذّة رسمية وربطة عنق يتدلى فوقهما رداء أسود مزيَّن بشريط أبيض، ويجلس على كرسي جلدي ضخم فوق منصّة مرتفعة أمام قاعة المحكمة مُحاطاً بزملائه القضاة. اقتيد المتهمون إلى مقاعدهم ضمن قفص اتهام خشبي فيه صفان من ثلاثة مقاعد وصف خلفي من مقعدين، يحيط بهم درابزين خشبي يصل إلى مستوى الصدر متّصل بالأرض بأرجل خشبية. كانت مقاعد جلدية ضخمة سوداء ومريحة. وخلفهم، من الناحية الأخرى لجدار البليكسيغلاس الواقي، كانت هناك شرفة تعجُّ بوسائل الإعلام و«مراقبين محليين»، تتضمَّن عدداً من الشخصيات الشيعية البارزة الذين إمّا تعرّضوا لاضطهاد صدام أو عملوا على إسقاطه.

مشيراً إلى صدام بالتوجُّه إلى الميكروفون الموجود في مقدمة قفص المتهمين الخشبي، افتتح القاضي أمين الجلسة بقوله: «لو سمحت، اسمك الكامل».

فردّ الرئيس العراقي السابق، قائلاً: «بسم الله الرحمن الرحيم: الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله–»

فقاطعه أمين، قائلاً: «سيد صدام، نريد تسجيل بيانات هويتك الشخصية».

غير أن صدام أكمل الآية غير متأثِّر بطلب القاضي: «–ونعمَ الوكيل».

فسأله أمين مرة أخرى بنفاذ صبر: «اسمك الكامل من فضلك. سيد صدام، كل ما نطلبه الآن هو بيانات هويتك الشخصية، أي اسمك وكنيتك ومهنتك ومكان إقامتك. وبعدئذ سيحين دورك للكلام. هل يمكنك، من فضلك، أن تقدِّم لنا بيانات هويتك الشخصية؟»

فأجابه صدام بلطف مستغرَب وسط محاولة تعطيله المتعمِّدة: «لا أريد إزعاجك، لأن طريقتك في السؤال مقبولة ولأنك تؤدي دور قاضٍ».

«سيد صدام، نريد بيانات هويتك الشخصية».

فأجابه صدام بسؤال من عنده: «الآن، من أنتم وماذا تكونون؟»

فقال أمين: «من فضلك، أعطنا بيانات هويتك الشخصية وسوف تصبح الأمور واضحة».

ردَّ صدام مستخدماً أحد الأقوال الشعبية المأثورة التي كان مولعاً بها: «يجب أن أعرف من الذي يطرق على الباب».

فأجابه أمين، مفضِّلاً لسبب ما التنازل والردَّ على الرئيس السابق: «نحن المحكمة الجنائية الابتدائية التابعة لمحكمة الجنايات العراقية العليا».

عارضه صدام، قائلاً: «وهل كنتم جميعاً قضاة من قبل؟»

فقال أمين، ممتنعاً هذه المرة عن ابتلاع طعم صدام: «لا دخل لك بهذه الأمور. اجلس من فضلك سيد صدام. سوف نعود إليك بعد الانتهاء من تسجيل بيانات الهوية الشخصية للآخرين». بدا بأنه استسلم للفشل في محاولته الأولى لدفع المحاكمة قُدُماً.

بيد أن صدام لم يشأ التوقف: «أنا لا أحمل أية ضغائن ضد أي شخص منكم، ولكن من أجل العدالة واحتراماً لرغبة الشعب العراقي العظيم الذي اختارني، أقول هذا. أنا لن أجيب على أسئلة هذه المسماة محكمة مع احترامي لشخوصها، وأنا أحتفظ بحقي الدستوري كرئيس للعراق–»

حاول أمين مرة أخرى مقاطعة صدام، الذي بدا متأهباً للدخول في مماطلة سياسية، غير أن الأخير واصل التحدث بمزيج غريب من الاحترام المزيف والترهيب: «لن آخذ الكثير من وقتك. أودُّ أن أعلِّق فقط على طلبك للهوية. أنا لا أعترف بالجهة التي خوَّلتكم وكلَّفتكم ولا بالعدوان [الحرب على العراق] لأن ما بُني على باطل فهو باطل».

فقال أمين: «هذا يعني أنك لن تعرِّف عن نفسك». بدا بأنه كان يزداد عجزاً من موقعه على المنصة.

فقال صدام بتحدٍّ أكبر ولهجة تكريتية خشنة تدوّي في أرجاء قاعة المحاكمة:

«كلا، لأني لا أعترف بكم».

أخيراً قال أمين بلهجة آمرة: «حسناً، اجلس لو سمحت».

ثم وجَّه أمين كلامه لمتهم آخر، محاولاً استعادة شيء من مظاهر المحاكمة الطبيعية: «سيد عواد البندر، عرِّف عن نفسك من فضلك».

فقال البندر: «هويتي هي عقالي، لكنهم نزعوه مني في الطريق إلى هنا، فلم يعد لي هوية».

كان البندر يشغل منصب رئيس المحكمة الثورية العراقية، التي يُزعَم أنها حكمت بالإعدام على أكثر من مائة شخص بريء من أهالي الدجيل رداً على محاولة اغتيال صدام. وسوف يتبيّن أن وجوده يشكِّل تهديداً طوال فترة المحاكمة. بالنسبة لحرّاسه، كانت كراهيته للأميركيين ظاهرة على نحو صارخ، وخصوصاً بالمقارنة مع الأسلوب اللطيف الذي أبداه صدام، بحيث أن بعضاً من السوبر اثني عشر دَرَجوا على مناداته بـ «القاضي»، بنبرة لم تكن تخلو من بعض الخوف.

قال أمين: «قدّم لنا اسمك واسم أبيك وكنيتك». كان ما يزال يحاول تسجيل أول انتصار إجرائي له على المتهمين الذين كانوا يثبتون، على نحو غير مستغرَب، أنهم مجموعة فظّة وغير متعاونة.

«عقالي هو هويتي. لماذا لم يُسمَح لي بارتداء عقالي؟ أنا عربي وأرتدي دشداشة—»

فناشده أمين قائلاً: «كل ما أريده هو اسمك».

«عقالي هو هويتي، لقد سلبتموني هويتي عندما نزعتم عقالي».

وبصورة مثيرة للدهشة، رضخ أمين مرة أخرى حيث سأل الموظفين: «من أخذه»، قبل أن يأمر بإعادة العقال.

هنا هلَّلَ صدام: «عفية!» لا شكّ أنهما كانا مسرورين، بل مذهولين لأن جو السيرك الذي كانا يعملان، مع زملائهما، على إشاعته كان يتحوَّل إلى عرض مبهر.

ثم، أردف قائلاً: «لقد أخذوا كل عُقُلنا».

فقال أمين: «اجلبوا جميع عُقُلهم. يمكنكم ارتداء ما تشاؤون عند مجيئكم إلى هذه المحكمة طالما أنه يتوافق مع الذوق العام».

توقفت المحاكمة خلال استعادة عُقُل المتهمين. وبينما كانت تُوزّع عليهم في قفص الاتهام، لاحظ القاضي أمين أن هناك خللاً في نظام الصوت فاضطُرَّ لرفع الجلسة لمدة خمس دقائق إلى حين إصلاحه.

وبعد استراحة وجيزة، اختتم المدّعي العام، الموسوي، مداولات ذلك اليوم بتقديم لائحة الاتهامات، متّهماً صدام والمتهمين الآخرين بارتكاب جرائم بحق الإنسانية استناداً إلى زعم مفاده أن 148 من أهالي الدجيل سُجِنوا وعُذِّبوا، وفي كثير من الحالات، أُعدِموا شنقاً استناداً إلى مرسوم رئاسي وقّعه صدام في 16 حزيران 1984.

بعد جلسة هادئة نسبياً عُقدت بين استراحتين مطوّلتين، استُؤنفت المحاكمة في 5 كانون الأول، وفيها دَفَعَ كبير محامي صدام، نجيب النعيمي، بعدم شرعية المحكمة نفسها لأنها أُنشئت في ظل احتلال غير شرعي. واستناداً إلى حجّة مضلِّلة بعض الشيء، أضاف بأن المحكمة لا تمتلك الصلاحية القضائية للحكم في جرائم حدثت قبل الاحتلال الذي تقوده أميركا وقبل تأسيس المحكمة. واختتم النعيمي مرافعته بالتأسُّف على «تدخّل الحكومة الحالية السافر في شؤون القضاء» - اتهامٌ ستتضِّح صحَّتُه فيما بعد، مع أن ذلك لن يكون له تأثير جوهري على براءة أو إدانة صدام في نهاية الأمر.

وبعد النعيمي جاء الشاهد الأول من الدجيل، الذي كان في الرابعة عشرة من عمره فقط عند حدوث محاولة الاغتيال الفاشلة. لقد وافق بشجاعة على الظهور أمام الكاميرا ليقدّم إفادته بشأن الاضطهاد الذي عاناه والجرائم التي شهدها، بيد أنه سيدفع ثمناً باهظاً نتيجة ذلك، إذ سيُختطَف اثنان من أولاد عمومته عقب ظهوره، وسيُقتَل أحد أبناء أخوته، ويُصاب أحد إخوته بالشلل بعد إطلاق النار عليه.

إن الغياب الملموس للأمن بالنسبة للمشاركين في المحاكمة سيُلقي بظلِّه لمدة طويلة على الإجراءات القضائية. فخلال شهور من افتتاح المحاكمة، سيُقتَل اثنان من محامي الدفاع بينما كانا يقودان سيارتيهما في شوارع بغداد، ومن المرجّح أن

استهدافهما كان يعود لمشاركتهما في الدفاع عن صدام.

بينما كان العنف يستشري خارج قاعة المحكمة، كانت إفادات الشهود في داخلها تستحضر عنف الحقبة السابقة الذي لم يكن يقلُّ عنه فظاعة. تضمَّنت الجلسة الرابعة من المحاكمة، التي عُقدت في 6 كانون الأول، واحدة من أكثر الشهادات إيلاماً، وقد أدلت بها امرأةٌ كانت تتحدث من وراء ستار -بصوت خُشِّنَ وشُوِّه عمداً لضمان عدم الكشف عن هويّتها. قدَّمت المرأة على نحو متردد شهادةً تصويريةً عن المعاناة التي تحمّلتها على يديّ قوات صدام الأمنية جاء فيها: «أُجبِرتُ على خلع ملابسي. رفعوا ساقيَّ، وقيَّدوا يديَّ، وضربوني بالكوابل، وصعقوني بالكهرباء. كان هناك أكثر من شخص واحد، وبدا الأمر كما لو أنني كنتُ وليمتهم». لعلّ الحساسيات الثقافية منعتها من الإفصاح بتفصيل أكبر عن الانتهاكات الجنسية الوحشية التي عانتها.

وروت المرأة بشجاعة المزيد من الفظاعات التي شهدتها وخبرتها، والكثير منها حدث في سجن أبو غريب، الذي كان بيتاً للأهوال في ظل حكم صدام قبل زمن طويل من تصدُّر انتهاكات الحراس الأميركيين فيه للعناوين الرئيسية في الصحف العالمية. لقد وصفت كيف أُحضِر أحد أقربائها أمام النساء، وكان أبكم وأصمّ، وجُرِّد من ملابسه، وبعد ذلك قام الحراس بشدّ عضوه التناسلي وقالوا بتهكّم: «أي نوع من المخلوقات هذا؟»

شغَلَ صدام نفسه خلال إدلائها بشهادتها بتدوين ملاحظاته، رافعاً رأسه بين الحين والآخر لينظر ويبتسم.

انتهت الجلسة بإعطاء الفرصة لصدام لاستجواب الشهود؛ سمةٌ غريبة من سمات المحاكمات الجنائية العراقية سعى الأميركيون لتجنبّها لأنهم كانوا يعلمون بأن ذلك سيمنح صدام فرصاً لا حصر لها للتبجُّح والوعظ، ليس أمام الشرفة وحسب، بل أمام العالم العربي بأكمله. وقلة من الناس استغربوا حين رأوه يفعل ذلك بالضبط.

بدأ كلامه بأسلوب رسمي جدَّي، مشيراً إلى نفسه، مرة أخرى، بصيغة الغائب: «المقصود من هذه الشهادات، با أخي حضرة القاضي الأول، الإساءة إلى مسيرة عمرها خمسة وثلاثين عاماً. بنينا فيها العراق العظيم بدمع العين. أنا لا أصدق

أن أي عراقي أصيل، وأنت عراقي أصيل، يقبل بهذا. وبصفتكم قضاة، فأنتم تعرفون كيف اهتم صدام حسين بالقضاء. دعوا صدام حسين جانباً، لأنه ليس الموضوع، ولكن هذا تاريخكم وأنتم أرقتم الدماء من أجل هذا وحاربتم ثماني سنوات من أجل الانتصار على إيران، وحاربتم كل شياطين الغرب ووضعتم حداً لهم، والله، لو أن لديكم اثنين بالمائة مما تمتلكه أمريكا، لما تجرأت على أن تعتدي على العراق. والله، اثنان بالمائة فقط ...»

بطريقة ما، تمكَّن من قول 139 كلمة لا صلة لها بالموضوع قبل أن يقاطعه القاضي أمين أخيراً: «تفضَّل بالسؤال الذي تريد أن توجِّهه للشاهدة».

بيد أن صدام تجاهلَ القاضي وواصل خطبته الميلودرامية: «يريد الأميركان والصهاينة إعدام صدام حسين، وسوف يكونون أصغر من القملة إذا لم يعدموه. لماذا الخوف من الإعدام؟ صدام حسين قدَّم نفسه للإعدام من أجل الشعب عندما كان طالباً في الثانوية. وأُحيل للإعدام ثلاث مرات، وهذه ليست المرة الأولى. صدام حسين ورفاقه لا يخافون من الإعدام».

حاول القاضي أمين مرة أخرى السيطرة على الدكتاتور، الذي كان حينئذ قد اندمج كلياً في خطابه السياسي القوي آملاً بأن يلقى صدىً حسناً عند جمهوره المستهدَف من العرب السُّنّة.

وبينما كان الدكتاتور السابق يواصل كلامه بزخم، معتلياً المسرح الدولي من جديد، قاطعه القاضي أمين بنبرة حزينة: «سوف نستمع للشاهد، وأنت لديك الحق بأن تسأله. إذا كان لديك أي سؤال للشاهد ...» غير أن صدام لم يرضخ لأي من مواطنيه طيلة ثلاثين عاماً، ولم يكن ليبدأ بفعل ذلك حينئذ.

الفصل التاسع عشر
بغداد، العراق – 2006

فيك، سوف نتحرك الليلة.

عندما توقف السوبر اثنا عشر عن الشعور بالتردد في حضرة صدام، ازدادوا ثقةً في إصدار الأوامر للرئيس السابق، مع أنهم استمروا في فعل ذلك بأسلوب محترم.

وكلمة فيك «VIC» اختصارٌ لعبارة «*very important criminal*» –أي «مجرم شديد الأهمية»- وكان بضعة حراس فقط من حراس صدام الأميركيين ينادونه بهذا الاسم. بعد العودة إلى «الصخرة،» عقب إحدى فترات استراحة المحكمة، تلقى المتخصص روجرسون خبراً مفاده وجوب إعادة صدام إلى المحكمة العراقية العليا في وقت متأخر من تلك الليلة من أجل استئناف المحاكمة، وأراد تنبيه صدام مسبقاً كي يتسنّى له الوقت لحزم حقائبه استعداداً للرحلة بالحوّامة في آخر الليل. استناداً إلى عدد أيام انعقاد المحكمة، كان من الممكن أن يمكث صدام والسوبر اثنا عشر في «السرداب» -متاهة الزنازين المظلمة أسفل قاعة المحاكمة- مدةً قد تصل إلى أسبوع، ولهذا السبب كانوا بحاجة لحزم حاجياتهم بشكل مناسب. كحال الكثير من المتقدمين في السن، الذين يكرهون تغيير عاداتهم وأساليب عيشهم، لم يكن صدام يحب أن يُستعجَل أو يُفاجَأ. وما دام يُمنَح الوقت الكافي للاستعداد لأي تغييرات تطرأ على روتينه اليومي، فإنه يكون في العموم لطيفاً وسلساً.

ما إن أعطاه روجرسون إشارة التنبيه حتى بدأ صدام طقوس ما قبل التحرّك. ذهب أولاً إلى الخارج لسقاية نباتاته (مجرد أعشاب، في الواقع) النامية في قطعة

الأرض الصغيرة ضمن منطقة استراحته. وبعد ذلك بدأ بحزم حقائبه القماشية العسكرية زيتونية اللون، مع حرصه على وضع الأشياء التي كان يتوقع احتياجه لها أولاً في الجزء العلوي من الحقائب. في غضون ذلك، وضع السوبر اثنا عشر بذّاته - التي كان الجيش قد أرسلها للتنظيف الجاف في «الصخرة»- بعناية ضمن حقائب خاصة بالملابس. كان الرئيس السابق يأخذ مسألة مظهره على محمل الجد، لأن كل ظهور علني منذ اعتقاله المشين كان يمثِّل فرصةً لردّ الاعتبار لصورته. وفي النهاية، وضع مفكراته وأقلامه بالإضافة لعلبة المناديل الرطبة الفارغة المملوءة بالسيجار في الجزء العلوي من حقيبته كي تكون بمتناول يده بسرعة عند وصوله إلى المحكمة ولقائه مع محاميه.

وبعد انتهائه من التوضيب، دخل صدام إلى حمّامه، حيث كان يُفترَض بالحراس، بطبيعة الحال، مراقبته لضمان عدم انزلاقه أو سقوطه، أو إقدامه على إيذاء نفسه عمداً. كان الحمّام مغطى بحصيرة مطاطية مكوَّنة من أجزاء متداخلة معاً، مثل لعبة تجميع الصور المقطَّعة، زيادةً في منع خطر التعرض للإصابة.

بينما كان صدام يستحم، لاحظ المتخصص روجرسون أن بيركينز كان يحدّق بالسجين طوال الوقت، فقال له روجرسون: بيركينز، لا داعي لأن تفتح ثقباً في الرجل من شدة تحديقك فيه.

رغم أن بيركينز لم يكن مذنباً بأي شيء سوى اتّباع التعليمات المعطاة له بحذافيرها، والتي كانت تقتضي إبقاء صدام تحت ناظريه، إلا أنه سيدفع ثمن ذلك في تلك البيئة القاسية التي كان يعيشها الشبان الاثنا عشر في خدمتهم العسكرية بعيداً عن الوطن. حتى صدّام كان يشارك في الضحك أحياناً، مثلما فعل عندما أخبره روجرسون بقصة تبوُّل بيركينز في سرواله. بدا الرئيس السابق مستمتعاً بامتلاكه الفرصة لأن «يكون واحداً من الرفاق»، بعد أن عاش لربما عقوداً من الزمن محاطاً بأناس يرتعدون خوفاً.

كان بيركينز أكبر السوبر اثني عشر سنّاً وأشدهم غرابةً من حيث السلوك، ولهذا السبب لم يكن بإمكانهم فهمه على الإطلاق. يتذكَّر هتش ذلك اليوم الذي جاء فيه بيركينز إلى نزهة عائلية (شبيهة بالنزهات العائلية التي تقيمها بعض الشركات لموظفيها «*Company Fun Day*») نظَّمها الجيش في فورت كامبل، مرتدياً سروال

«كابري» يصل طوله إلى الكاحل وصندلاً روماني الطراز. كان يبدو مثل بيروقراطي ألماني متوسط العمر سلك منعطفاً خاطئاً في طريقه للتنزُّه في يوم أحد. في الواقع، لم يكن بيركينز يستحق أبداً ما كان يناله من سخرية، فهو لم يكن سوى رجل مختلف بما يكفي ليكون محطّ دعابات الجنود الضجرين.

بعد الاستحمام، استلقى صدام على سريره محاولاً نيل قسط من النوم لعلمه بأن راحته الليلية ستُقطَع بالذهاب إلى المحكمة العراقية العليا. أغلق روجرسون باب الزنزانة بلطف بينما كان صدام يغطِّي نفسه بالشراشف، لكن ذلك كان إجراءً شكلياً أكثر منه تدبيراً أمنياً، فخلال النهار كان باب الزنزانة يُترَك مفتوحاً كي يتمكن صدام من الانتقال بحرية إلى منطقة استراحته أو الوصول إلى مكان التخزين الخاص به كما يحلو له. كان هناك الكثير من المستويات الأمنية التي تفصل بين زنزانته على «الصخرة» وبين الحرية بحيث كان من المستحيل التفكير في الفرار. وفي هذا الخصوص، كان هتشينسون يقول على سبيل المزاح إن الحياة على الصخرة كانت تشبه المسلسل الكوميدي القديم «آندي جريفيث شو»، حيث كان سكّير البلدة، أوتيس، يدخل ويخرج من زنازينه كما يحلو له.

كان صدام يفتقد كل ذلك في أثناء وجوده في المحكمة العراقية العليا -سِعَةُ «الصخرة»، كتبُه وأوراقُه، منطقة الاستراحة الخارجية، والأهم من هذا كله، خصوصيته (كان وحيداً على الصخرة، في حين كان المتهمون الآخرون يمكثون في زنازين مجاورة لزنزانته أسفل قاعة المحاكمة).

نادى روجرسون داخل الزنزانة المظلمة: «عشرون دقيقة»، منبِّهاً صدام إلى أن وقت الذهاب بات قريباً. كانت الساعة آنذاك تشير إلى منتصف الليل.

فقال صدام بهدوء بينما كان ينهض على مهل من سريره: حسناً يا صديقي، شكراً لك. بعد عدة ساعات من النوم كان صدام ما يزال دائخاً بعض الشيء.

لم يستطع الجنود في عقلهم الباطن منع أنفسهم من التفكير في ما إذا كان سيأتي يوم في نهاية المطاف يفعلون فيه ذلك وهم يعلمون بأنه لن يكون هناك يوم غد بالنسبة لصدام النائم، ولن يكون هناك داعٍ للاستعجال. ولكن، كان أمامهم الكثير لفعله آنذاك، ولهذا السبب كانوا يُبعدون هذه الأفكار جانباً.

وبعد عشرين دقيقة، قال روجرسون: هل أنت مستعد يا فيك؟

فأجابه صدام بنشاط: «أنا مستعد عندما تكون أنت مستعداً».

كان صدام يردُّ بلطف بصفة شبه دائمة، ما دام كان يُنبَّه قبل عشرين دقيقة. سيجد السوبر اثنا عشر أنفسهم بعد أشهر يردِّدون بعضاً من عبارات صدام المفضّلة، كهذه العبارة، قُبيل مغادرتهم لتنفيذ مهمات موكَلة إليهم، حيث كانوا يقولون لبعضهم بعضاً بلغة إنكليزية ذات لكنة عربية مُقلَّدة بينما يرتدون عتادهم: «أنا مستعد عندما تكون أنت مستعداً».

كان صدام مستعداً للانطلاق، لذا تقدّم بعض الجنود لمساعدته بحمل الحقائب الأثقل وزناً، إضافة إلى حقيبة الملابس التي تحوي بذّاته.

عندما أمسك هتش بإحدى حقائبه، عانى من ثقلها لوهلة، فقال لصدام ممازحاً: «ما هذا بحق الجحيم، هل حشوت علي داخل هذه الحقيبة؟»

ضحك صدام من أعماق قلبه، بل إنه سيخبر علي الكيماوي نفسه بالدعابة بعد وصوله إلى المحكمة العراقية العليا واجتماعه بالمتهمين الآخرين.

اتجهوا نحو عربات الهمفي المنتظرة في الخارج. لم يكن السوبر اثنا عشر يتركون أي شيء للصدفة عند مغادرتهم الصخرة، رغم أنهم كانوا آمنين ضمن المحيط الأوسع والمحروس جيداً لمعسكر النصر الأميركي الضخم، حيث كان ستة منهم يهتمون بتأمين المحيط الخارجي بأسلحة ملقّمة وجاهزة لإطلاق النار بينما كان الستة الآخرون يرافقون السجين إلى عربة الهمفي.

سأل صدام: من السائق؟

فأجابه الملازم أندرو جاكسون: هتشينسون، كالعادة.

فقال صدام: لم يكن هو السائق يوم أمس. بدا بأن صدام كان ما يزال يتوجّع من السرعة المفرطة لقيادة داوسون الأصغر سناً بين الجنود، والتي جعلت عربة الهمفي تهتز بعنف فوق المطبات وتسبِّب الإزعاج لجسد صدام الضعيف ذي التسعة وستين عاماً.

فقال له الملازم مُطَمئناً: «لا تقلق، اليوم هتش هو من يقود العربة».

فقال صدام بارتياح ظاهر: «حسناً، هذا جيد».

ولكن، رغم أن هتش قاد العربة بأقصى قدر ممكن من الحذر، إلا أنه كان يسمع أنيناً مبالَغاً به من صدام كلما اصطدم بمطب على الطريق. على أي حال، كانت عربة الهمفي تستغرق بضع دقائق فقط لعبور شوارع القاعدة مُطفَأَة الأنوار والوصول إلى حوّامتي بلاك هوك المنتظرتين.

مع أن رحلة الحوّامة، التي تستغرق عشر دقائق، إلى مبنى المحكمة العراقية العليا كانت قد أصبحت روتينية نوعاً ما، إلا أنها بقيت على الدوام سريالية بعض الشيء. كانت المدينة تبدو هادئة للغاية وهي تتلألأ على نحو مغرٍ باللون أخضر من خلال نظارات الرؤية الليليّة. كان من الممكن للمرء أن يتخيَّل، للحظة واحدة فقط، أن الملايين السبعة تقريباً من الناس في الأسفل عقدوا اتفاقاً على أن يدعوا العنف والحقد الطائفي جانباً، ويتَّحدوا معاً كفريق واحد، ويفعلوا الأشياء التي يفعلها الناس عندما تُوعَدُ الضغائن -التجمُّع في المقاهي، والضحك، ومناقشة احتمالات نجاح نوادي كرة القدم المحلية. بيد أن الحوَّامة سرعان ما ستنزل في منطقة الهبوط، وسيبدِّد الواقعُ كل هذه الأفكار.

الفصل العشرون
المحكمة العراقية العليا، بغداد، العراق
21 كانون الأول 2005

في اليوم السادس من محاكمة الدجيل، بدأ المدعي العام جعفر الموسوي، الذي كان يشبه كلب بولدوغ في المظهر والسلوك معاً، استجواب صدام بشأن ادّعائه أن سجّانيه الأميركيين أساؤوا معاملته: «هل ضربوك؟ هل ضربك أحدهم حقاً؟»

فأجابه صدام: «أجل، مرات كثيرة، وفي كامل أنحاء جسدي».

فقال المدعي العام: «سنرى من المسؤول ونحاسبه».

ولكن، لم يكن صدام ليهدأ بسهولة، حيث ردَّ عليه بغضب: «الأميركيون أسيادك، فكيف يمكنك تقديمهم للمحاسبة؟»

كان الموسوي يعرف لعبة صدام، لذا فقد سايره بقوله: «إذا كنتم تتعرَّضون للتعذيب فسأطلب نقلكم جميعاً إلى رعاية عراقية». كان الموسوي يعلم علم اليقين أن صدام لم يتعرَّض لإساءة معاملة وأن المتهمين سيرتعبون من فكرة نقلهم إلى عهدة العراقيين.

ضحك الموسوي خلال الاستراحة التي تلت ذلك مفتخراً بإلحاق الهزيمة بصدام في لعبته بالذات. لقد تفوَّق في المناوشة، ليس لإتقانه التفصيلات القانونية الدقيقة، بل لأنه كان يفهم طريقة تفكير خصمه.

ومن جانبه، كان صدام يعلم أنه هُزِم، وأن خدعته كُشِفت. لكنه لم ينهر،

فالأمر كان يستحق المحاولة. بل قيل إن أحداً سمعه يمازج حارساً أميركياً بينما كان يقوده إلى خارج قاعة المحاكمة في ذلك اليوم: «أعرف أنكم تعاملونني بشكل جيد جداً. إنه شيء قلته أمام المحكمة وحسب».

كان السوبر اثنا عشر فخورين بطريقة معاملتهم لصدام –لم يعطوه أبداً أكثر مما يجب، لكنهم منحوه الكرامة التي يستحقّها كسجين كهل. لربما قال بعضهم إن الذهاب في «مهمات السيجار» من أجل الرئيس السابق كانت تتجاوز المعيار الأدنى للاعتقال –بكثير- لكن النقود اللازمة لذلك كانت تأتي من شخص أعلى رتبة -لم يعرفوا أبداً من يكون.

بينما كان أحد النهارات الحارقة يفسح المجال لغروب أكثر قابلية للاحتمال، قاد الجنديان بول سفار وتَكَر داوسون عربة همفي من الصخرة إلى «سوق الحجي»، الذي يبعد عشر دقائق فقط، من أجل جلب مؤونة صدام من السيجار. كانا يترقّبان دائماً هذه المأمورية لأنها كانت تتيح لهما تخزين بعض الحاجيات التي تجعل من الخدمة أقل بؤساً. كان سوق الحجي يعرض جميع أنواع منتجات التبغ ومشروبات الطاقة التي يمكن تخيّلها، إضافةً إلى مخزون لا ينفذ من أقراص الـدي في دي. وكان هذا أفضل ما يمكن الحصول عليه بالنسبة للباحثين عن الاسترخاء من الجنود، بما أنه لم يكن مسموحاً للقوّات شرب الكحول.

استعار الجنديان الشابان عربة همفي من أجل تلك المهمة القصيرة من المنطقة الخضراء إلى السوق المكشوف. كانا يدركان كم كان سخيفاً أن يتجوّل مجنّدان شابان -«joes» طبقاً لمصطلحات الجيش الخاصة بالمجندين المبتدئين- حول معسكر النصر بحثاً عن تبغ لدكتاتور العراق المخلوع. قالا في داخلهما بينما كانا يتجاوزان عشرات الجنود الأميركيين الغافلين: لا أحد سيُصدّقنا أبداً. كان السوبر اثنا عشر مدركين للتعليمات المشددة المعطاة لهم بشأن الحفاظ على سرية مهمتهم.

بينما كانا يتفحصان الأكشاك الخشبية، بدا الشابان ثنائياً غريباً -سفار صاحب الجسم الممتلئ المغطى بالوشوم الذي عوقب مراراً بسبب مخالفات تتعلق بالمظهر، مثل عدم الحلاقة قبل الاجتماع الصباحي، والكارولايني الشمالي الشاب داوسن، الذي كان يبدو كما لو أنه خرج للتو من ملصق إعلاني للتجنيد في الجيش. عندما رأى سفارُ داوسن الوسيم لأول مرة في فورت كامبل وهو يترجّل من سيارة فورد برونكو

بيضاء، أَلصق عليها من الخلف مُلصق يمثِّل ركوب الأمواج، قال في نفسه: **لابد آن هذا الشاب عضواً في أخوية في مكان ما.**

شقّ الشرطيان العسكريان طريقهما عبر السوق المكشوف على وقع صراخ التجار المحليين الذين كانوا يروّجون لبضائعهم والسجائر تتدلى من أفواههم. سرعان ما وجدا كشكاً يُباع فيه سيجار الكوهيبا –المفضّل عند صدام– فأعطيا صاحب الكشك عدة أوراق نقدية ثم حوَّلا انتباههما إلى أقراص الدي في دي المعروضة في كشك مجاور. كانت الأقراص برخص التراب، حيث كان بوسعك أحياناً شراء قرصين بدولار واحد. لكن فرق الجودة يمكن أن يكون شاسعاً، حيث سُجِّل بعضها بواسطة كاميرا محمولة داخل مسرح سينما، وكان الناس يظهرون فيها أحياناً وهم يتجولون أمام الكاميرا خلال التصوير. انتقى سفار مجموعة مكوّنة من ثمانية أفلام رعب تتضمّن جميع أفلام «يوم الجمعة 13» ليضمّها إلى مجموعته الضخمة –بحلول نهاية خدمته سيصبح لديه صندوقاً شبه ممتلئ من أفلام الرعب والأفلام الرخيصة.

وبعد إنجاز مهمتهما، ركب الجنديان عربة الهمفي، حاملين مشترياتهما الخاصة، ثم انطلقا عائدين إلى الصخرة متلهّفين لتسليم مجموعة السيجار لسجينهما ومن ثم مشاهدة أفلامهما الجديدة.

كان صدام مسروراً كالعادة عند استلامه سجائره المفضّلة لدرجة أنه راح يشيد بمزاياها للشرطيين العسكريين الشابين، «كما لو أنه كان يحاول بيعها لنا»، على حد تعبير سفار.

الفصل الحادي والعشرون
بغداد، العراق – 2006

ذات أمسية، قال صدام لمترجمه جوزيف وهتشينسون بينما كانوا يجلسون معاً خارجاً في «الصخرة»: كان ولداي يقعان بالمشاكل كثيراً في صغرهما. كان الرجال يجلسون كالعادة على الكراسي الهشّة في منطقة الاستراحة، التي كان صدام يلجأ إليها بعد تسمُّر أعين العالم عليه في قاعة المحاكمة. رغم أن جدران السجن كانت تعزله عن العنف الذي يجتاح بغداد، إلا أنه كان يسمع أصوات أعيرة نارية بعيدة بين الحين والآخر. مع حلول فصل الخريف يمكن أن يصبح الجو بارداً في المساء، وفي تلك الليلة كان الرجال متحلّقين حول «نار» صدام –الاسم الذي أطلقه صدام على المدفأة الصغيرة التي كان يجلبها معه أحياناً إلى منطقة الاستراحة بعد تواري الشمس خلف الجدران الإسمنتية. كان صدام يستمتع فيما يبدو بتسمية الأشياء غير الحية، مثل دراجة التمرين القديمة التي كان يدعوها «حصانه الصغير». كان مزاجه حسناً، متأمّلاً وكثير الكلام، ينفث دخان سيجاره برضىً، ويتناول بين الحين والآخر لقمات صغيرة مما بقي من طعام العشاء في حافظة طعام بلاستيكية. لا يمكن للمرء أن يتخيّل أنه كان يواجه محاكمةً يمكن أن تنتهي بالحكم بإعدامه.

قال صدام ثانيةً: كانا يقعان دائماً في المشاكل. بدا كأنه كان يحدِّث نفسه هذه المرة؛ كما لو أنه كان يعيد مشاهد لهو ولديه في رأسه. ثم أضاف قائلاً: لم يكن باستطاعتك إبعاد ناظريك عنهما لحظة واحدة، وإلا فإنهما كانا سيأخذان الحلويات التي لم يكن يُفترَض بهما تناولها. هنا التفت صدام إلى هتش وسأله: ماذا بشأن ابنك؟ كيف حاله؟

فأجابه هتش: إنه بخير، لا أطيق صبراً حتى يكبر ونذهب للصيد معاً (كان

ابنه لا يزال رضيعاً آنذاك). كان هتش يهوى الأنشطة التي تجري في الهواء الطلق ويتحرّق شوقاً لتعليم ابنه بعض الحِيل.

إن تلهُّف صدام لسماع قصص عن أطفال الجنود أوحى لـهتش باحتمال أن تكون تلك الحكايات تذكِّره بتربية أبنائه. كان هتش يشعر بالفضول لمعرفة إن كانت الشكوك قد ساورت صدام ذات يوم بشأن كيفية تربيته لهم. لم يكن بوسعه التأكد من ذلك، لكنه شعر بأنه تلمَّس شيئاً من الندم تحت تلك الواجهة الجامدة فيما يتصل بالحال الذي أصبح عليه عدي بشكل خاص.

صحيح أن صدام وهتش كانا يستمتعان بتبادل الحكايات حول عائلتيهما، ولكن بدا في كثير من الأحيان أن هناك عنصر توهُّم من جانب صدام. ولم يكن هتش في ذلك الحين يعلم بدرجة وحشية عدي، التي أصبحت فيما بعد موضوع أسطورة مرعبة.

حول هذا الأمر يقول هتش: «كل ما كنت أعرفه عن عدي في ذلك الوقت كان مُستمَدّاً من تصفُّح مقال في مجلة ماكسيم».

في الواقع، كما سوف يعرف كل العراق وكثير من دول العالم، كان عدي حسين وحشاً فشلت جميع الصفات في وصف قائمة أعماله الوحشية. عندما كانوا يُسألون عن عدي، فإن الجميع -حتى من يمكن وصفهم بالمؤيدين لصدام- كانوا يتفقون على أنه كان أقرب تجسيد للشر يمكن أن يبلغه كائن بشري. وأن يتحدَّث صدام بطريقة عاطفية عن طفولة ابنه، ويتظاهر بالسخط الأبويّ بشأن سرقة بعض الحلوى –كأن ذلك يعكس درجة عيوب شخصية عدي– فإن ذلك يكشف إما عمق توهُّم صدام أو تعمُّده المراوغة.

بينما كان صدّام يشغل نفسه بشؤون الدولة، مانحاً قدراً متزايداً من المسؤولية لابنه الثاني قصي، كان عدي ينحدر أعمق فأعمق نحو عالم سفلي يشبع فيه ملذاته الجنسية الشاذة وانحرافاته الساديّة. لقد ألقت شهوانيتُه الجنسيةُ الشبقةُ الرعبَ في قلوب الشابات الجميلات وعائلاتهن في مختلف أنحاء بغداد، وأسوأ ما في الأمر هو أن أحداً لم يكن بمأمن من شهوته المتوحشة. كان يطلب من بعض الأصدقاء والأصحاب تجنيد عشرات النساء على مدار خمسة أيام في الأسبوع –مع تخصيص

اليومين الباقيين لما كان يدعوه «الصيام»– وتسليمهنّ إلى نادي اليخوت على نهر دجلة في بغداد، حيث كان يصفُّ النساء لفحصهن واختيار واحدة أو اثنتين لقضاء الأمسية. وإذا كنَّ محظوظات، كان يُطلق سراحهن في الصباح التالي، ربما مع بضع مئات من الدولارات وبعض المجوهرات كمكافأة لهن، إضافة إلى توجيهات صارمة بإبقاء أفواهن مغلقة.

وقد أبدى عدي اهتماماً خاصاً بالعرائس الشابات، وكان في أغلب الأحيان يُجبر أزواجهن على الوقوف بعجز خلال قيامه باغتصابهن. ذات يوم، لم يتحمَّل أحد العرسان فكرة أن يفترس عدي محبوبته في ليلة زفافهما في نادي الصيد الفاخر في بغداد، فأطلق النار على نفسه ومات. وقبل فترة قصيرة من الغزو الأميركي، تجرَّأت عروس في الثامنة عشرة من العمر على مقاومة محاولات عدي للتودد إليها، فجرَّها رجاله إلى أحد الحمامات ومزّقوا فستان زفافها وجرَّدوها منه ثم حبسوها في الداخل بانتظار وصول عدي. وبعد فترة قصيرة من قدومه، سمعت إحدى الخادمات صرخات صادرة من غرفة نوم قريبة. وبعد ذلك، رأت جثة الفتاة تُسحَب إلى الخارج فوق بطانية عسكرية –كانت حروق الأسيد تغطي جسدها.

كانت ساديّةُ عدي، ونظام الدولة الذي كان يمكِّنه من ممارستها، تذكّر الكثيرين بعهود الأباطرة الرومانيين الأشد انحرافاً. كانت الألسن تُثبَّتُ بالكماشات قبل قصّها بواسطة مبضع جرّاح، والآذان تُقطَع، ومشاعل التلحيم توضَع على أجساد ترتعد من الرعب. يقول أحد أصدقاء العائلة إن «اليوم الذي اكتشف فيه عدي الإنترنت كان يوماً أسود بالنسبة للعراقيين»، لأنه ساعده في البحث عن تقنيات تعذيب أشد غرابة. حتى أنه حصل على –أو ابتكر– «عذراء حديدية» «iron maiden» -أداة تعذيب من القرون الوسطى) اكتُشِفت في إحدى مزارعه عقِب الغزو الأميركي.

كان عدي سكِّيراً ذا سلطة، ولم يكن هناك سوى رجل واحد في العراق قادر على كبح جماحه. ولكن، لسوء حظ العراق، لم يبذل صدام قصارى جهده في هذا الشأن.

وكانت السيارات تمثِّل الإدمان الأقل تدميراً عند عدي، الذي راكمَ مجموعة استثنائية مؤلفة من مئات السيارات الرياضية الفاخرة في بلد كان اقتصاده مهشَّماً

نتيجة حروب مدمّرة وعقوبات دولية خانقة. وكان هناك موظف مُوكَل بمهمة وحيدة هي ملء ملفات بصور ومعلومات عن السيارات الغالية ليختار منها عدي ما يعجبه.

كان صدام يستمتع بالحديث عن السيارات مع حرّاسه الأميركيين، ربما لإدراكه بأنه أحد المواضيع التي يمكن أن توحِّد ما بين رئيس عربي سابق يبلغ من العمر تسعة وستين عاماً وبين شبّان أميركيين في عقدهم الثاني فقط. يتذكر آدم روجرسون على نحو خاص أمسية باردة أمضاها في الحديث مع صدام عن السيارات. كان المتخصص آرت بيركينز مناوباً أيضاً، لكنه كان يستأذن من حين لآخر ليدخل ويجدّد كأس الشاي لصدام. رغم أن روجرسون حاول جاهداً الحفاظ على درجة من المسافة المهنية بينه وبين الرجل المكلَّف بحراسته، إلا أن نوعاً من الألفة نشأ بينهما.

يقول روجرسون: «إذا دخلتَ عليه وكنتَ خائفاً، فقد يحسُّ بخوفك، ويسيطر عليك. أما إذا دخلت عليه ولسان حالك يقول 'هذا هو وضعي، وهذا هو وضعك، وسنتعامل معاً على هذا النحو، فإما نتفق أو لا نتفق'؛ إذا كنتَ صارماً ولكن ودوداً، فسوف يحترمك لأجل ذلك».

بينما كان الرجال الثلاثة جالسين في منطقة الاستراحة الخارجية في تلك الليلة، وسط مزيج الألحان الأميركية والعربية الصادرة عن راديو صدام، قال صدام من تلقاء نفسه: أتعلم، أنا متشوّق لبعض الحب. عندما سأخرج من هنا سأتزوج مجدداً. أنا لم أنتهِ. كان يرتدي دشداشته وسترته الغامقة المفضلة ليقي نفسه من برد ليل بغداد.

ردَّاً على ابتسامة صدام الشبقة، ابتسم روجرسون بطريقة توحي بأنه يمازحه وقال: حقاً؟ ثم أضاف، متظاهراً بالدهشة من فحولة الرجل الكهل المعلَنة: كيف تفعل ذلك؟ كان روجرسون مذهولاً من قدرة صدام على الانتقال بسهولة من كتابة قصائد ملأى بالحنين لعائلته إلى التحدُّث مع حرّاسه عن رغبته بممارسة الجنس مع نساء جدد.

وبعد ذلك، حوَّل صدام الحديث فجأةً: كيف حال عائلتك يا صديقي؟

فقال له روجرسون: أنا أفتقدهم يا سيدي. بحلول ذلك الوقت من المساء، كان

روجرسون يشعر بالتعب بعد أن أخذه الرقيب لوك كوارلز، الذي كان يتدرَّب بهدف الانضمام إلى القوات الخاصة، إلى واحدة من جولات الجري الطويلة في أرجاء القاعدة الملتهبة بفعل الشمس. لكنه كان يأمل بأن يساعد الحديث على انقضاء النوبة بسرعة، لذا فقد شرح لصدّام بأنه تزوّج من حبيبته في المدرسة الثانوية عندما كانا يافعين جداً وفقاً للمعايير الأميركية، حيث كان في العشرين من عمره آنذاك أما عروسه فكانت قد أنهت المدرسة الثانوية لتوّها. ثم أخبره عن مدى اشتياقه لإخوته الثلاثة في الوطن، مستخدماً ضمن حديثه مفردات عاميّة لعل سامعه لم يفهمها. لكن صدام كان يهز برأسه دلالةً على الفهم، متخيّلاً الحياة الأميركية التي كان روجرسون يرسمها بشكل لا شعوري.

لابدّ أن شيئاً ما في رواية الجندي الشاب أثار ذكرى معينة عند صدام، لأنه قال في إحدى فترات الصمت التي تخللت المحادثة: كان ابني يملك الكثير من السيارات ... لن تصدّق الأمر.

فقال روجرسون: حقاً؟ من أي نوع؟

فقال صدام وهو يضحك: جميع الأنواع تقريباً. ولكن، ذات مرة، ارتكب عدي خطأً جسيماً. جعلني في حالة غضب شديد.

سأله روجرسون باهتمام: ماذا حدث؟

فقال صدام: كنت غاضباً جداً منه لدرجة أنني أحرقت جميع سياراته.

صُدِم روجرسون من نبرة صدام اللامبالية. كان الرئيس السابق في أشد حالاته إمتاعاً –وغموضاً– لكن تصريحاته الغريبة لم تكن مصحوبة بالمشاعر التي يمكن أن يتوقعها المرء.

تابع صدّام كلامه قائلاً: لقد أضرمتُ النار في جميع سياراته. أصبح حريقاً هائلاً. ومع تبلور الذكرى في مخيلته، ازدادت ضحكته حدَّة.

ليلةُ فجور أدَّت، كما هو مُتوقَّع، إلى فورة عنف، لكن أخا صدام غير الشقيق، وطبان إبراهيم التكريتي، كان هو الضحية هذه المرة. نشبَ شجار في إحدى الحفلات

بين وطبان ولؤي خير الله، شقيق ساجدة زوجة صدام، على أشد المومسات طلباً، مما أدى إلى طلب توسُّط عدي، ولكن تبيَّن –على نحو غير مستغرَب- أنها كانت فكرة مريعة.

وصل عدي إلى الحفلة حوالي الساعة الثالثة صباحاً، مُسلَّحاً ببندقية بَمب- آكشن جديدة تشبه بحسب بعض المراقبين أحد الأسلحة الغريبة في أفلام ستالوني وشوارزنيغر، وثملاً بجنون، وغاضباً لسماعه أن وطبان كان يسخر من عيب طفيف في طريقة نطقه. بدأ عدي في إمطار الحشد بالرصاص، فقتل ثلاثة أشخاص وجرح كثيرين غيرهم. ثم وجَّه سلاحه نحو أخي صدام غير الشقيق وأطلق النار على كلتا ساقيه. تحدَّثت تقارير عن مقتل ست شابات وراقصات غجريات ومغنيات، كنّ جزءاً من تسلية الأمسية، بوابل الرصاص العشوائي أيضاً. ظلَّ حراس وطبان الشخصيين واقفين جانباً دون حراك لأنهم كانوا يعرفون أن مطلق النار ابن الرئيس.

بدا صدّام مستمتعاً وهو يروي لروجرسون كيف عاقب عدي بإضرام النار في مجموعته الثمينة من سيارات الرولز رويس والبينتلي والبي إم دبليو والبورش والفيراري، الموضوعة تحت الحراسة في كراج في القصر الجمهوري.

ذكر الرئيس السابق وهو يضحك ملء شدقيه كيف كان يدخّن سيجاره المفضّل الكوهيبا ويراقب بسعادة الحريق الهائل وهو يلتهم ممتلكات ولده الثمينة. كانت ضحكته الهيستيرية مُعدية لدرجة أن روجرسون لم يستطع مقاومة الانضمام إليه والضحك من أعماقه أيضاً. إن الصورة الذهنية للرئيس وهو يرشّ المئات من سيارات ابنه الفاخرة بالبنزين ثم يضرم النار فيها ذكَّرت روجرسون بـ «حلقة لجيري سبرينجر حول الستيرويدات».

كيف يكون الوضع عندما يكبر المرء مع أب كهذا؟

الفصل الثاني والعشرون
بغداد، العراق –أوائل الثمانينيات

«سنة حلوة يا حلا، سنة حلوة يا حلا، سنة حلوة يا حبيبي، سنة حلوة يا حلا».

كانت حلا، الابنة الصغرى لصدام حسين، تبدو في العاشرة من عمرها، وكانت تقف بجانب كعكة عيد ميلاد ضخمة –كبيرة بما يكفي لتغطي مقعد حديقة بأكمله– مزيّنة بالشموع، وسط عشرة أطفال تقريباً، وأمها ساجدة من جانب، وصدام من الجانب الآخر. كانت ساجدة ترتدي ثوباً أبيض فضفاضاً، في حين كان صدام يرتدي بذة عسكرية زيتية اللون. نظر إلى الأطفال المنشدين باستحسان مع ابتسامة كبيرة تعلو وجهه. كانت الحفلة تُبَثُّ على التلفزيون الوطني العراقي وكانت الرسالة واضحة -صدام، حاكم العراق المحسن والحكيم، ربُّ أسرة مثالي، محبٌّ لأبنائه بقدر محبته لشعبه.

عندما انتهت الأغنية، نفخت حلا بحماس على الشموع فأطفأتها وسط تهليل وتصفيق الحاضرين. كانت ترتدي فستاناً رسمياً، لكن التباين بين فستانها الملائم للكبار وبراءتها الطفولية جعل ابتسامتها الخجولة تبدو أكثر عذوبة وجاذبية. انحنت ساجدة لتقبِّل حلا التي تحوَّلت بعد ذلك بحيوية إلى صدام، الذي جذبها إليه واحتضنها، غامراً جسدها الصغير بعناق دافئ. وبدورها لفَّت ذراعيها حول خصره بينما كان ينظر إليها ويقبِّل جبينها بحنوّ.

فيما بعد، ستقول رغد، أكبر بنات صدام - أكبر من حلا بأربع سنوات- إنه كان بإمكانها تمييز ذلك التعبير «من بين صف مؤلّف من مليون رجل». كانت نظرةً قادرةً على بثِّ الرعب في قلوب جميع العراقيين، من الأشخاص العاديين إلى

المساعدين الموثوقين، لكنها بالنسبة لبنات صدام كانت مجرد نظرة مألوفة ومحبَّبة – فرحة أب.

بغداد، العراق – 2006

في عصرٍ أحد الأيام، أشار صدام لهتش كي يأتي إليه. كان صدام يجلس في الخارج على كرسيه البلاستيكي المفضَّل، ذاك الذي زوَّده السوبر اثنا عشر ببطانتين مطاطيتين للذراعين كي يصبح مريحاً أكثر لابن التاسعة والستين عاماً.

نظر صدام إلى هتش بعينين تلمعان فخراً وقال: انظر، رسالة من رغد. إنها تكتب ردّاً. ثم قال وهو يضحك: إنها تكتب من اليسار إلى اليمين مثل الأميركيين. تسأل عن أحوالي وأنا أخبرها بأن رفاقي يعاملونني بشكل جيد.

في البداية، كان تواصل صدام مع السوبر اثني عشر يأخذ شكل طلب من نوع ما –كأنه كان «يلوّح لنادل بيده»، بحسب تعبير بول سفار– لكنه بعد ذلك، أصبح يلوّح لهم ليأتوا إليه عندما كان يريد التحدث مع شخص ما. وكان الجنود في العادة يرحّبون بهذه التسلية.

كانت نظارة القراءة جاثمة على أنف صدام بينما كان منهمكاً في الكتابة، التي كانت تشغل الكثير من وقته في تلك الآونة. أما هتش فكان يقرأ باستمتاع أحد كتب هاري بوتر التي كانت توفِّر له شيئاً مسليّاً لمناقشته على الهاتف مع ابنتيه الصغيرتين في كلاركسفيل.

شعر هتش بالامتنان لتعليق صدّام بشأن المعاملة الحسنة التي كانت يتلقاها. كان هتش متفاجئاً من استمتاعه بالوقت الذي يقضيه مع الكهل، لكن جزءاً منه كان لا يزال محبطاً بسبب عدم قدرته على الخروج بتواتر أكبر في دوريات والتجوُّل «خارج السلك» والاشتباك مع المتمردين –ذلك النوع من الأنشطة التي اعتقدَ بأنه سيشارك فيها خلال تلك المهمة. إن الساعات التي أمضاها هو ورفاقه في مراقبة سجين مشهور ضمن الحدود الآمنة نسبياً لمعسكر النصر جعلتهم يشعرون بالحسد حيال الجنود الذين منحتهم مهمَّاتهم قدراً أكبر من الحركة.

بما أن صدام أتى على ذكر رغد، فقد بادره هتش بدوره بالحديث عن ابنتيه

دون أن يسأله الرئيس السابق: أتعلم، لدي ابنتان أيضاً، بعمر السادسة والرابعة. لقد تحدثتُ معهما بالهاتف منذ بضعة أيام.

فقال له صدام: حقاً؟ كيف حالهما؟ لابدّ أنهما تفتقدان أباهما.

فقال هتش: كانتا ترتديان ملابس كالأميرات. إنهما مجنونتان، وأنا أحب ذلك.

كان هتش أباً قاسياً ولكن مُحباً. كانت طفلتاه تدعوانه أحياناً «رقيب التدريب» ردّاً على الانضباط الذي حاول غرسه فيهما، لدرجة أنه كان يجبرهما أحياناً على «الوقوف صفّاً واحداً» في المطبخ قبل التوجه إلى المدرسة صباحاً، من أجل إجراء تفتيش اللحظة الأخيرة، المأخوذ من طقس يحمل الاسم نفسه في التدريب الأساسي، ليتأكد من أنهما مستعدتان للذهاب ولم تنسيا أي شيء.

أصغى صدام بصمت بينما كان هتش يتحدث عن ابنتيه، مستشعراً حنين الجندي الشاب، ومن ثم قال له: «كل ابنة أميرة».

وكان صدام أباً حنوناً أيضاً. لقد أمضى رامزي كلارك، المدّعي العام الأميركي السابق الذي عمِل مع فريق صدام القانوني، قدراً كبيراً من الوقت في مدينة عمّان الأردنية مع رغد ابنة صدام عندما كانت تساعد في إدارة دفاعه القانوني. وحول هذا الأمر، يقول رامزي: «لم أرَ في حياتي مثل ذلك الالتزام المحب من ابنة تجاه أبيها»، قبل أن يُبيِّن أنها كانت «القائدة في عملية الدفاع».

كان كلارك جالساً في فيلا رغد المريحة ذات أمسية حين نهضت بسرعة كبيرة فأُصيبت بالدوار وفقدت الوعي لفترة قصيرة. ظنّ كلارك أن التوتر الناجم عن وضع أبيها والإنهاك الجسدي الناتج عن معاناتها من صعوبة في النوم ساهما في انهيارها. على أي حال، نُقِلت رغد إلى غرفة الطوارئ في إحدى مستشفيات عمّان ثم أُخرِجت بعد فترة قصيرة. المهم في هذه الحادثة هو أنها لم تكن، على الأرجح، لتعلَقَ في الذهن لولا تفصيل واحد. خلال سقوطها على الأرض، قطعت رغد قلادة كانت ترتديها فتضايقت بشدة وعلى نحو مثير للاستغراب. ذُهل كلارك من ردّة الفعل تلك، نظراً للاعتقاد الواسع بامتلاكها ثروة صغيرة –سُلِبت من خزينة الدولة العراقية. لماذا تنفعل إلى تلك الدرجة بسبب قلادة مكسورة؟

بينما كانا جالسين معاً في غرفة معيشة رغد الأنيقة، شرحت له لماذا كانت القلادة تعني لها الكثير. روت له كيف أنها كانت جالسةً فوق كتفيّ والدها (كانت فتاة صغيرة آنذاك) في عصر يوم جمعة بينما كان يعبر شوارع مزدحمة خلال فترة «حملته الانتخابية لشغل منصب الرئيس»، فإذا به يفقد توازنه فجأةً -ربما نتيجة اصطدامه بالحشود المندفعة- وتسقط رغد على الأرض. وبينما كانت تنهض لتقف على قدميها، لاحظت وجود دماء على ركبتها المخدوشة فأجهشت بالبكاء.

انحنى صدام ونفض الغبار عنها وراح يواسيها إلى أن هدأت. وعندما استأنفا المشي مجدداً، أخذها إلى كشك مجوهرات قريب ثم أشار إلى القلائد وسألها: أيها الأجمل لتكون هدية للبنت الصغيرة الشجاعة؟

فصاحت رغد بفرح: ذلك العقد!

رائع! هذا للفتاة الحلوة!

اشترى صدام القلادة الرخيصة ووضعها بلطف حول عنق ابنته.

حرص كلارك على نقل هذه الذكرى التي روتها له رغد إلى صدام في المرة التالية التي التقيا بها في غرفة الاجتماعات البسيطة أسفل مبنى المحكمة تحضيراً للمحاكمة. يقول كلارك إن صدام تذكّر الأمر كما لو أنه حصل البارحة، رغم مضي أكثر من ثلاثة عقود على سقوط رغد عن كتفيه.

الفصل الثالث والعشرون
بغداد، العراق – 2006

كبرت رغد وتزوجت من مجرم عديم الأهلية يُدعى حسين كامل، الذي أصبح رئيساً لبرنامج صدام لتطوير الأسلحة، بشكل أساسي بفضل زواجه من العائلة ولعبه دور الدمية الوفيّة. كما تزوّج شقيقُه، صدام كامل، من ابنة صدام الأخرى، رنا. وبعد مشكلة مع عدي -كما أُشيع- هرب الأربعة إلى الأردن المجاور بحثاً عن الأمان. كان انشقاقهم مدمراً بالنسبة لصدام، الذي يمثِّل الولاء بالنسبة إليه أمراً مقدساً. ورغم مرور أحد عشر عاماً على حدوثها، إلا أن الخيانة كانت ما تزال تثقل كاهله بوضوح بينما كان يقرأ الصحيفة في منطقة الاستراحة الخارجية في الصخرة.

لعل شيئاً قرأه في إحدى المقالات دفع صدام للتفكير بصوت مسموع بشأن انشقاق العام 1995. كان مترجمه جوزيف، الذي كان يستمتع بمناقشة آخر عناوين الصحف معه، جالساً بجانبه، في حين كان هتش، الذي كان مناوباً في تلك الفترة، جالساً قبالتهما. كان صدام قد وضع كرسيه بحيث يكون وهج شمس بعد الظهر الحار فوق كتفه، مُدفِّئاً أوراق الصحيفة بدلاً من الإشعاع في وجهه. وكان يرتدي دشداشته، التي تمنحه برودة أكثر بكثير من بذة هتش القتالية طويلة الكمّين.

قال صدام كما لو أنه كان يرد على انتقاد مُضمَر: لم أكن لأؤذي ابنتيَّ أبداً. مع ذلك، عندما غادروا، أصبح كل شيء مهدداً. لم تكن ابنتاي سعيدتين في الأردن، وكنت مضطراً لإيجاد وسيلة لإعادتهما.

لم يكن باستطاعة هتش معرفة أن هذه كذبة –وأن الفتاتين مُنحتا، في الواقع، فرصة العودة إلى العراق دون زوجيهما، ورفضتا. وبما أنه لم يكن يعلم بقصة

انشقاقهم، فقد وجد صعوبة بالغة في فهم لغة صدام الإنكليزية الركيكة بينما كان يجهد في سردها. لكنه استطاع فهم ما بدا أنها النقاط الأساسية.

تابع صدام كلامه لمستمعيه، جوزيف وهتش، قائلاً: كانت ابنتاي خائفتين. كانتا خائفتين مما يمكن أن أفعله بزوجيهما وبهما. ما كنت لأؤذيهما أبداً، لكنني كنت أعلم بأنني إن لم أستطع إقناع الرجلين بالعودة فقد لا أرى ابنتيَّ ثانيةً. وكنت أعرف أيضاً بأنني لن أستطيع الوثوق في هذين الرجلين.

كان صدام قلقاً بشأن ما يمكن أن يقوله حسين كامل لعملاء المخابرات الأجنبية.

قال صدام مجدداً: ما كنتُ لأؤذي ابنتيَّ أبداً. ولكن، لم يكن بوسعي ترك الرجلين على قيد الحياة. كان ذلك سيُظهر ضعفاً.

بغداد، العراق، وعمّان، الأردن – آب 1995

اقترب الجندي من الفريق رعد الحمداني بقلق بالغ، وقال: سيدي، أنت مطلوب على هاتف القصر.

عبر الحمداني الغرفة المفتوحة في مقر قيادة الفيلق الأول والتقط سماعة الخط الساخن الأحمر. كان يعرف أن ثلاثة أشخاص فقط كانوا يتصلون على هذا الخط: صدام، وابنه قصي، وسكرتيره عبد حمود.

رفع الحمداني السماعة بحذر فسمع فورة من الصراخ والشتائم قطعها صوت جرجرة على الأرض وأصداء أصوات مقلقة. فقال الحمداني: ألو؟ وبينما كان يحاول تبيُّن الأصوات غير الواضحة، التقط بوضوح لكنة صدام التكريتية الثقيلة. بدا الرئيس مضطرباً ومذعوراً بطريقة لم يعهدها أبداً من قبل.

وبعد ذلك سمع حركة، ثم صوتاً جديداً: «أبو أحمد».

كان هذا صوت قصي ابن صدام مخاطباً أبيه بلقبه.

تعرّف الحمداني على قصي عندما عيَّنه صدّام في وحدته خلال الحرب

العراقية الإيرانية. ساد الصمت لفترة وجيزة ثم أعقبه مزيد من الجلبة.

بابا!

كان هذا صوت قصي المضطرب وهو ينادي والده مجدداً. وستكون تلك هي المرة الوحيدة التي يسمع فيها الحمداني أحد ولديّ صدّام يناديه بهذه الطريقة. حاول الحمداني تخيّل المشهد الجاري داخل القصر الرئاسي وأحسَّ بالامتنان لبعده عنه، رغم شعوره بالفضول لمعرفة حقيقة ما كان يجري.

ثم سمع صدام يصيح: أخبر الحمداني أن هناك مؤامرة ضدنا من داخل العائلة. لقد خانني حسين كامل.

بعد وقت ليس بطويل على رنين الخط الساخن في مقر قيادة الفريق الحمداني، رنّ هاتف آخر على بعد خمسمائة ميل تقريباً غرباً في محطة السي آي إيه في عمّان الأردنية. رفع ديف مانرز السمّاعة –كان ديف رئيس محطة السي آي إيه الجديد، الذي وصل إلى البلد مع أطفاله الستة قبل فترة قصيرة.

قال علي شكري بلكنة أوكسفوردية بريطانية خالية من الشوائب: مرحباً يا ديف، هل تتأقلم مع المكان الجديد؟ كان علي شكري أحد كبار مستشاري الملك حسين ورئيساً سابقاً للمحكمة الملكية الأردنية.

بالطبع. أنا أعيش في حالة ترحال. لم نجد منزلاً بعد، لكنني وعائلتي سنفعل ذلك قريباً.

فقال شكري: يودّ الزعيم *(the boss)* منك أن تأتي وتزوره الآن. يريد أن يرحّب بك في الأردن. كان شكري يقصد بذلك الملك حسين.

بحث مانرز بسرعة في حقيبته، وأخرج أقل الملابس تجعيداً ثم غادر باتجاه القصر. وعندما وصل، وجد شكري في الخارج يدخّن. رافق المستشارُ -الذي كان يبدو كما لو أنه خارج من كاتالوج شركة بروكس بروذرز للألبسة- موظفَ السي آي إيه الرشيق إلى ديوان أنيق وجدا فيه الملك حسين يدخّن أيضاً. كان أثاث وديكور الغرفة بسيطاً ولكن رفيع الذوق، وخالياً من البذخ المبهرج.

بعد الترحيب اللبق بمانرز في المملكة الهاشمية، كشف الملك له عن دخول حاشية عراقية تتضمن اثنتين من بنات صدام حسين وصهريه عبر الحدود الصحراوية في موكب سيارات سيدان فاخرة مدججة بالأسلحة في اليوم السابق. تصادف أن الصهرين شقيقان، وأن أحدهما حسين كامل، الذي كان يرأس برنامج صدام لتطوير الأسلحة. أفادت التقارير بأن العراقيين أوقفوا سائق سيارة أجرة مصري الجنسية في عمّان وطلبوا منه أن يرشدهم إلى أحد الفنادق، فدلّهم السائق إلى فندق عمرة، وهو فندق مريح -مع أنه ليس مترفاً- في المنطقة الشرقية المخضوضرة من عمّان. عندما علم الملك حسين بقدومهم، أمر بنقلهم إلى قصر الهاشمية الشاغر.

عندما قابلوا الملك حسين، أخبره العراقيون بأنهم لم يعودوا يشعرون بالأمان في العراق، وسألوا إن كان بوسعهم اللجوء إلى الأردن. كانت علاقة الملك حسين بصدام جيدة جداً في الثمانينيات، لكنها فترَت بعد غزو الأخير للكويت. بيد أن الملك كان استراتيجياً محنّكاً، وقد وجد في انشقاق الشقيقين كامل فرصة سانحة، ذلك أن تقديم الحماية للعراقيين سيمثِّل التزاماً بالأعراف العشائرية التي يتمسك بها أسلاف البدو، ويُشكِّل في الوقت ذاته فرصةً لإصلاح العلاقات التي تضرّرت مع الغرب بسبب رفضه الانضمام للتحالف ضد صدام بعد غزوه للكويت.

اختار الملك استقبال العراقيين دون تحفّظ. وهكذا بدأت القصة.

بدأت وكالات استخباراتية من مختلف أنحاء العالم ترسل خبراءها المختصين في أسلحة الدمار الشامل إلى عمّان لاقتناص فرصةٍ لاستخلاص المعلومات من حسين كامل ومعرفة المزيد عن برنامج الأسلحة العراقي السري.

نظَّم الأردنيون عشاءَ تعارف في قصر الهاشمية لمنح عملاء الاستخبارات الأميركيين فرصة اللقاء بالشقيقين كامل. وصل الأميركيون، الذين كانوا يرتدون بذّات جوزيف أ. بانك المفضلة لدى البيروقراطيين الأميركيين، فوجدوا أن حاشية الشقيقين كامل كانوا يرتدون قمصاناً زاهية الألوان كالتي يرتديها السوّاح في هاواي، ويعلّقون مسدساتهم بشكل ظاهر على أحزمتهم، باستثناء حسين كامل نفسه الذي كان يرتدي بذة داكنة اللون. بدا مثل مشهد من مسلسل *«Miami Vice»* –كأن العراقيين شاهدوا الكثير من الأفلام وتبنّوا صورة المجرمين الداعرين.

بدأ العشاء بشكل سيئ، ولم يتحسّن أبداً. ففي ثقافة يمثِّل فيها تطوير العلاقات برويّة أمراً جوهرياً، لم يشارك الأميركيون إلا في القليل من الأحاديث البسيطة. أما بالنسبة لحسين كامل –وهو نصف ذهاني، تتحرك عيناه بشكل جنوني عندما لا تحدّقان بخواء– فقد بادر من تلقاء نفسه لتقديم عدد من الاقتراحات السخيفة.

قال حسين: إذا بعثتم خمسة آلاف سيارة ميرسيدس إلى الحدود العراقية الأردنية ثم استخدمتم مكبرات صوت لتشرحوا للعراقيين على الجانب الآخر من الحدود أن أول خمسة آلاف جندي يعبرون الحدود سيُكافَؤون بواحدة منها، فسيشهد الجيش انشقاقات جماعية وينهار.

كانت فكرة عبثية على نحو صارخ.

ولم يكتفِ كمال بذلك، بل اقترح أيضاً ما يمكن اعتبارها فكرة أكثر تفاهةً من سابقتها -كانت عيناه الجامحتان تتفحصان الغرفة بسرعة كبيرة حينئذ. قال كمال، مشيراً لنفسه بصيغة الغائب –بطريقة مشابهة على نحو غريب لمولاه السابق: أطلب أن تدعموا حسين كامل كبديل لصدام. اعطواني فرقة عسكرية أميركية لأقودها وباستطاعتي السيطرة على بغداد.

لم يقل الأردنيون أي شيء. أما بالنسبة للأميركيين فقد حاولوا أن يكونوا متجاوبين ومهذبين رغم إدراكهم بأن هذه الأفكار لا تجدي نفعاً. وحين أدرك ديف كوهين، رئيس المفاوضين الأميركيين، أن ذلك النقاش لن يصل إلى أي مكان، التفتَ إلى مانرز، وقال له بصوت هامس: لا أستطيع قول أي شيء آخر له ... ماذا يجب أن نفعل الآن؟

فأجابه مانرز بصراحة: نغادر.

وقف الأميركيون وقالوا: شكراً جزيلاً لكم أيها السادة على ضيافتكم. لقد تأخر الوقت ويجب علينا الذهاب. ولدى خروجهم من الباب نظر الرجال إلى بعضهم باستغراب، إذ لم تُحضِّرهم أي من تدريباتهم لمثل هذه النقاشات المنافية للعقل. عندما ركبوا في السيارة التي كانت تنتظرهم، سأل كوهين مانرز، الذي كان ما يزال محتاراً: هل كان ذلك الرجل شخصية هامة في العراق؟ كيف؟

رغم البداية غير الواعدة، واصل الأميركيون والأردنيون جهودهم لمعرفة إن كان بوسعهم استخلاص أية معلومات مفيدة من الشقيقين. ولكن، وفقاً لعلي شكري، كان قد بدأ يتضِّح لهم شيئاً فشيئاً أن هناك «شيئاً غير قويم» بشأنهما. حتى أبناء صدام كامل الصغار، الذين كان يمكن رؤيتهم يلعبون في مضافة القصر بانتظار لقاء أبيهم، كانوا يشتركون معه في نظرته الخاوية؛ نظرةٌ باردةٌ أكثر شبهاً بالزواحف منها بالإنسان.

رغم أن القليل مما قاله الشقيقان كامل في البداية كان يتمتع بقيمة استخبارية، إلا أنهما قدَّما نافذة أخرى للنظر إلى الوضع الشنيع في عراق صدام حسين. لقد تفاخر صدام كامل بأن أخاه حسين عاقب أحد معاونيه لعدم إنجازه مهمة موكلة إليه في الوقت المحدد بإجباره –تحت تهديد السلاح– على شرب غالون من البنزين، قبل حشو سلاحه بذخيرة حارقة وإطلاق النار عليه كي ينفجر.

كان يروي القصة بافتخار شديد.

بعد ذلك، قال حسين كامل: يعتقد الجميع أن أخي، صدام كامل، هو الشخص اللطيف والرقيق. حسناً، دعوني أُخبركم بما حدث عندما جادل جنديٌ في أحد أوامره. لقد بدأ بضربه إلى أن سقط على الأرض وهو ينزف، ثم راح يدوس على رأسه إلى أن خرج دماغه.

اكتفى المحاورون الأردنيون، الذين كانوا يعملون على بناء علاقة ودية مع الشقيقين كامل بهدف استخلاص بعض المعلومات منهما، بهزّ رؤوسهم عند سماع قصص العنف تلك، حاجبين شعورهم بالاشمئزاز. كان واضحاً أن الوحشية المفرطة باتت أمراً روتينياً في بغداد صدام حسين، رغم أنه لم يكن يفصلها عن عمّان سوى خمسمائة ميل تقريباً من الصحراء.

سوف يلتقي علي شكري مع حسين كامل 181 مرة، متكيّفاً مع مواعيده الليلية المفضّلة، حيث كانت الاجتماعات الماراتونية تبدأ حوالي الساعة 10:00 مساء، وتستمر أحياناً حتى بزوغ الشمس في عمّان. أدهشه أن كامل لم يشر أبداً إلى صدام باسمه، وإنما بـ «الرئيس»، رغم أنه كان يخطط للإطاحة به - كان الخوف من النظام مغروساً في أعماق روحه.

وفي نهاية تلك الاجتماعات، بات شكري مقتنعاً بأن العراق لم يعد يمتلك أسلحة دمار شامل.

مع تحوُّل الأسابيع إلى أشهر، ومع معاناة الضيوف العراقيين المعزولين في دار الضيافة لإيجاد وسائل لتمضية الوقت، ازداد الشعور بالاستياء لدى الزوّار والمضيفين على حد سواء. بدا حسين كامل غير قادر على التكيّف مع حقيقة أنه أصبح نكرة بعد انتهاء فائدته كمنشقّ.

في تلك الأثناء، لم ييأس صدام من محاولة استرجاع الشقيقين كامل وابنتيه. وقد جنَّد عدي، وحتى زوجته ساجدة، للمساعدة في الضغط عليهم، متعهّداً بمنحهم الحصانة إن اختاروا العودة. بل إن صدام اتصل بحسين كامل مباشرةً وأكّد له بصوت مؤثّر: «هل تظن أنني قادر على إيذاء والد أحفادي؟»

حين أدرك أن أحلامه بحشد دعم دولي لإطاحة صدام وتنصيب نفسه حاكماً جديداً للعراق لم تكن تملك أية فرصة للتحقُّق، اتّخذ حسين كامل قراراً انتحارياً، باعتقاد الجميع تقريباً إلا هو، ألا وهو العودة إلى العراق.

قال له المضيفون الأردنيون: هذا جنون، إذا عدتَ، فأنت في عداد الأموات.

فقال لهم كامل بنظرته الخاوية: لقد مُنِحتُ حصانة.

حتى شقيق حسين، صدام كامل الغبي، أدرك بأنها كانت فكرة كارثية، إذ صرخ على أخيه قائلاً: «يا حمار، هل تريد أن نعود لنلاقي حتفنا؟!» ولكن، لطالما كان حسين كامل يملك سلطةً على أخيه صدام، وهو كان مصمماً على المغادرة.

كان حسين كامل قد أرسل لصدام حسين رسالة تذلُّل واعتذار قبل بضعة أيام من مغادرة المنشقين عمّان. كانت الرسالة مشبعة بتفسيرات محرَّفة عن انشقاق كامل، إضافة إلى إطراء مخزٍ. فيما يلي واحداً من أشد مقاطعها خزياً:

أود من فخامتك أن تعلم أن صورتك وصورة عائلتك الكريمة معلّقة في كل زاوية من المنزل. أولادنا لا يعرفون حتى هذا اليوم سبب مغادرتنا بغداد ... إنهم يتذكرون دائماً بابا صدام وماما ساجدة. أرجو أن يعفو عنا السيد الرئيس، القائد،

ويسمح لنا بالعودة إلى بلدنا العراق، كي نعيش تحت مظلتكم وخيمتكم الكبيرة.

في اليوم المقرر لمغادرتهم، أُصيب صدام كامل بالمرض، ربما بسبب خوفه الناجم عن معرفته بأنه كان يسير بملء إرادته إلى حتفه. لكن حسين كامل أجبر أخاه، الملفوف ببطانية لدرء قشعريرته المحمومة، تحت تهديد السلاح، على ركوب إحدى السيارات المستعدة لرحلة العودة.

ثمة أدلة تشير إلى أن حسين كامل بدأ يشعر بالارتياب بينما كان موكب العراقيين العائدين، المصحوبين بمرافقة أمنية أردنية، يجتاز بسرعة الصحراء الأردنية الشرقية، مقترباً أكثر فأكثر من الحدود التي عبروها بمخططات عظيمة قبل بضعة أشهر فقط. كان حسين يأمر أسطول سيارات الميرسيدس بالتوقف بجانب الطريق الصحراوي السريع كل نصف ساعة تقريباً، بحجة أنه كان بحاجة لقضاء حاجته. لكنه، في الواقع، لم يكن يفعل شيئاً بعد ترجُّله من السيارة سوى «المشي جيئةً وذهاباً كما لو أنه كان يحاول الوصول إلى قرار». وفي نهاية كل نوبة من نوبات الشك تلك، كان يعود إلى السيارة المنتظرة ويتابع رحلته المصيرية عائداً إلى فلك صدام المميت.

وإذا كانت هناك شكوك تساور المرافقين الاردنيين بشأن المصير الذي كان سيلاقيه الشقيقان كامل قريباً، فإنها تبدّدت عندما وصلوا إلى الحدود ورأوا ما كان منتظراً في الجانب الآخر. كانت هناك حوّامتان مستعدتين للانطلاق على الجانب العراقي من الحدود، في مشهد هجين بين فيلم من أفلام رعاة البقر، مع أرض صحراوية مقفرة في الخلفية، وفيلم العصابات «الوجه ذو الندبة *scarface*»، يلعب فيه عدي ابن صدام دور المجرم الفاسق. خرج عدي من إحداهما وهو يدخّن سيجاراً كبيراً من نوع كوهيبا، وتوجَّه نحو أختيه وعانقهما ثم قادهما إلى إحدى الحوامتين المنتظرتين. وبعد ذلك، رافق الشقيقين كامل بكل تهذيب إلى الحوامة الأخرى. في تلك الأثناء، قال ضباط المخابرات الأردنيين لبعضهم على سبيل المزاح من موقعهم الآمن خلف خط الحدود -بالأسلوب الجاف الذي يتميَّز به من أمضوا حياتهم المهنية في مراقبة الجوانب الأشد قبحاً للطبيعة البشرية- إنهم لا يودُّون أبداً الذهاب إلى حيث كان عدي ينقل الرجلين.

وبينما كانوا ينتظرون إقلاع الحوامتين، بدأ الأردنيون بوضع رهانات فظيعة

على عدد الأيام التي سيبقى فيها الشقيقان كامل بين الأحياء. لم يمنحهما أي منهم مدة أطول من أسبوع واحد.

عندما أقلعت الحوامتان واتجهتا شرقاً نحو بغداد، دخل أحد الأردنيين إلى نقطة التفتيش الحدودية واتصل بقصر الملك في عمّان.

وقال: «خلص. لقد انتهى أمرهما».

بعد عودة الشقيقين كامل، أرغمهما صدام على تطليق ابنتيه. ثم أمر علي الكيماوي، عمّ الشقيقين كامل، بقيادة فرقة اغتيال من العشيرة للأخذ بالثأر من الشقيقين اللذين جلبا «العار» للعشيرة بانشقاقهما. وبعد بضعة أيام، توجّهت قوة هجومية مكونة من نحو أربعين فرداً من عائلة المجيد، بقيادة علي الكيماوي، إلى منزل في إحدى الضواحي الجنوبية لبغداد احتُجِز فيه الشقيقان كامل. كان عدي وقصي، اللذان منعهما صدام من المشاركة في عملية الثأر، ينتظران في مكان قريب، متلهفين لمشاهدة المنظر الوحشي.

سيستمر إطلاق النار قرابة ثلاث عشرة ساعة، في مشهد غريب لا يمكن حدوثه إلا في سريالية عراق صدام. طبقاً للتقاليد العشائرية، كان علي الكيماوي قد أرسل مسبقاً سيارة هوندا مليئة بالأسلحة إلى معقل عائلة كامل لضمان تمكّنهم من خوض المعركة.

يذكر الدكتور علاء بشير، طبيب صدام الشخصي، أنه كان مناوباً في مستشفى ابن سينا في ذلك اليوم عندما كان الجرحى من أفراد العائلة، الذين نُقلوا إلى المستشفى، يروون آخر مستجدات المعركة الجارية. في إحدى المراحل، قرّر علي الكيماوي إطلاق قذيفة صاروخية على المنزل المحاصر بعد أن نفذ صبره من مقاومة الشقيقين كامل، فقتلت صدام كامل إضافة إلى شقيقته وأطفالها الثلاثة الصغار -أعمارهم تتراوح بين الثالثة والسادسة- الذين كانوا يختبئون في أحد حمامات المنزل.

لكن حسين كامل واصل القتال.

وعندما بدأت الشمس بالغروب، خرج حسين أخيراً من المنزل، مترنّحاً

ومصاباً، وصرخ بطريقة استعراضية: «أنا حسين كامل».

كانت نيران الأسلحة الأوتوماتيكية قد مزَّقته. وبينما كان دخان الرصاص الساخن يتصاعد من جسده الساقط على الأرض، تقدَّم علي الكيماوي نحوه وداس على وجهه -ما كان يمثِّل إهانة فظيعة- قبل أن يُفرِغ مخزناً أخيراً من الرصاص في الجسد المحتضر.

ثم صرخ علي: «هذا مصير الخونة».

تختلف الروايات بخصوص ما حدث تالياً، إذ يقول البعض إن علي فصل الرأس المدمى عن الجسد الممزّق ثم نقله إلى صدام، في حين يقول آخرون إن أفراد عائلة المجيد وضعوا خطّافات لتعليق اللحم في عيني الشقيقين القتيلين وجرّوهما بواسطتها.

وصل صدام إلى مستشفى ابن سينا في تلك الليلة ليتفقّد حال المصابين. بدا مكتئباً ولكن مرتاحاً بينما كان يعاين بهدوء الأضرار الجانبية لقراره بالانتقام من الشقيقين كامل. وبينما كان يفعل ذلك، ذُكِّر الدكتور بشير بشيء مميز حدث في مستشفى ابن سينا قبل سنوات.

كان الدكتور بشير قد عالج جراح صدام حسين إثر إصابته في حادث سيارة وقعت خلال غارة جوية أميركية في حرب الخليج الأولى. لكنه لم يكن الوحيد الذي أُصيب في سيارته في تلك الليلة، بل كان هناك أيضاً صدام كامل، الصهر الذي لاقى حتفه للتو في الاشتباك الدامي مع فرقة اغتيال علي. لن ينسى الدكتور بشير كيف زار صدام حسين، في اليوم الذي وقع فيه القصف قبل سنوات عديدة -مع أنه كان جريحاً أيضاً- الغرفةَ التي كان بشير يستعد فيها لإجراء عملية لصهره. سأله صدام بتهذيب: «هل يمكنني الدخول؟»

بعد موافقة بشير، دخل الرئيس الغرفة وأمسك يد الشاب صدام كامل بهدوء، وظل ممسكاً بها طيلة مدة العملية التي دامت خمساً وأربعين دقيقة، طالباً من بشير بذل قصارى جهده لكي لا تبقى ندبة على وجهه.

لم تكن تلك العاطفة التي كان صدام يكنّها ذات يوم للشابين كافية لإعفائهما

من العقوبة المميتة التي استحقاها بانشقاقهما. بعد أن لفظا أنفاسهما الأخيرة، تعجَّبَ صدام –من موقع مراقبته المجاور لغرف الطوارئ في مستشفى ابن سينا- بصوتٍ عالٍ: «لا أعرف كيف كان بمقدورهما مغادرة العراق، وبالتأكيد لا أفهم كيف فكَّرا في العودة».

الفصل الرابع والعشرون

بغداد، العراق -2006

لم يعد صدام يمتلك سلطة الحياة والموت فحسب، بل بات وجوده اليومي بأكمله واقعاً تحت سلطة آخرين. لكنه مع ذلك، كان يبذل قصارى جهده ليستمدَّ السعادة من روتينه اليومي، حتى عند مثوله أمام المحكمة وكون حياته على المحك.

كان الشيء الأول الذي يفعله صدام بعد نقله من الصخرة إلى مبنى المحكمة العراقية العليا -إذا كان عنده وقت- هو الذهاب إلى غرفة الاستراحة الصغيرة القريبة من زنزانته الواقعة تحت الأرض أسفل قاعة المحاكمة –لم تكن في الواقع أكثر من غرفة فارغة تحوي بضعة كراسٍ فولاذية قابلة للطي ليجلس عليها مع زملائه المتهمين- وإشعال سيجار. بما أنه لم يكن يدخِّن خلال فترة النقل احتراماً للجنود الذين لم يكونوا يحبون ذلك –حُسنُ خُلُق يتّسم بالتناقض من رجل حكَمَ بالإعدام على صهريه دون أن يرمش له جفن- فإنه يكون متلهِّفاً لنكهة وتأثير النيكوتين عند وصوله إلى مبنى المحكمة. لكنه قبل أن يشعل سيجاره، غالباً ما كان يسأل الجنود الذين يحرسونه إن كانوا يرغبون في سيجار. وكان ينضم إليه في بعض الأوقات رفاقه المتهمون، حيث كانوا يشاركونه سجائره والسكاكر المتنوعة التي كان الرئيس السابق يجمعها من الطرود التي كانت ترسلها ابنته رغد عبر محاميه، الذين كانوا يتنقلون بين بغداد وعمَّان على نحو شبه منتظَم. مثلما كان صدام يوزِّع الهدايا غالية الثمن على مواليه عندما كان في السلطة، ظل يوزِّع المنافع التي كان يتمتع بها بعد أن فقدها، رغم أن تلك المنافع كانت تافهة.

وعند إبلاغه بأن المحاكمة توشك أن تُستأنَف في الأعلى، كان صدام يتفقّد مظهره على مهل ويحرص على أن يبدو في هيئة لائقة قبل دخوله إلى المصعد تمهيداً لنقله إلى قاعة المحاكمة. كان يدرك بأنه سيصعد مجدداً إلى المسرح العالمي فور خروجه من المصعد.

جلب اليوم الثامن من محاكمة الدجيل مفاجأة كبرى تمثَّلت في استبدال القاضي اللطيف رزكار أمين بالقاضي رؤوف عبد الرحمن، وهو كردي من بلدة حلبجة التي تعرَّضت لواحدة من أبشع الجرائم التي ارتكبها صدام حين شنَّ هجمات بغازات كيماوية على الكرد العراقيين خلال الحرب العراقية الإيرانية.

بدأ القاضي رؤوف الجلسة بالقول: «لقد جرى استبدال القاضي الأول»، مفسِّراً الخطوة بأنها «إجراء إداري، وأن حقوق المتّهمين ستكون مصانة».

كان القاضي الجديد، البالغ من العمر أربعة وستين عاماً، مختلفاً أشد الاختلاف عن سَلَفه، وكان سعيُهُ الفوري لفرض سيطرته على قاعة المحاكمة خيرَ دليل على ذلك. بدون إضاعة أي وقت، حاول القاضي رؤوف إرساء أسلوب جديد، بقوله: «سوف نسمح لكم بالكلام، ولكن ليس كلاماً سياسياً. إذا أهان أي منكم القانون أو المحكمة أو أعضاء المحكمة فإنه سيُطرَد».

لكنه سرعان ما سيُوضَع تحت الاختبار، مثل معلّم بديل يواجه صفَّاً من التلاميذ المشاغبين والمشاكسين. وسيكون برزان ابراهيم التكريتي، الأخ غير الشقيق لصدام الذي كان يرأس المخابرات العراقية، أول من يكتشف الحد الذي يمكنه دفع القاضي الجديد إليه.

قال برزان: «أنا مقتنع بأن المحكمة غير شرعية وابنة زنا».

فردَّ عليه رؤوف: «أطلب منك أن تخاطب المحكمة باحترام ولن أسمح لك بإهانتها».

واصل برزان كلامه، مُبدياً ودَّاً مفاجئاً للقاضي المسكين أمين، الذي قام هو والمتهمون الآخرون بمضايقته بأسوأ الطرق: «من قبلك كان هناك رجل شجاع، وأنت أخذت مكانه».

فأجابه رؤوف، مكرّراً ما افتتح به الجلسة: «أنا لم آخذ محله. هذا إجراء إداري».

في الحقيقة، لقد أثارت تنحية القاضي أمين شكوك مراقبي المحاكمة، حيث بدا للمشككين بأنه أُعفي من منصبة بسبب تساهله المفرط مع المتهمين. ومما عزَّز من الشكوك بتدخُّل الحكومة في المحاكمة حقيقةُ أن القاضي أمين استُبدل أولاً بالقاضي سعيد الهماشي الذي كان، بخلاف رؤوف، أحد القضاة الخمسة الأصليين في المحاكمة. لكن الهماشي أُبعدَ في اللحظة الأخيرة استناداً إلى اتهام واهٍ بأنه كان بعثياً. وكان إبعاده من صنع يد أحمد الجلبي، الذي كان يرأس لجنة اجتثاث البعث وكانت بصماته واضحةً في الكثير من الأخطاء التي وقعت خلال السنوات الأولى من الاحتلال الأميركي.

لكن برزاني واصل اعتراضاته المخلّة بالنظام، مستمتعاً –فيما كان يبدو- بلعب دور المشاغب الرئيسي في المحاكمة.

«أريد أن أشرح وضعي الطبي. أنا بحاجة لفحوص لكن الآلة معطلة ولا يمكنني إجراؤها. مَرَضي يحتاج إلى مراقبة وإلى علاج طبي ونفسي ولا يمكنني الحصول عليه في السجن. يقرُّ القانون العراقي بإطلاق سراح السجناء المرضى. لماذا لا تفرجون عني؟»

ردَّ عليه القاضي رؤوف بهدوء، ولكن بحزم: اسمع، قدِّم هذا الطلب عبر محاميك وعندما نتلقاها سنحيلك إلى اللجنة الطبية. اجلس».

فزمجر برزان بصوت مهدِّد: «لن أجلس».

هنا اكتفي القاضي رؤوف.

فأشار إلى الحرّاس ليُخرجوا برزان ففعلوا بعد بعض الدفع والنخس.

لم يستطع صدام مقاومة المشاركة في المشهد فنهض على قدميه وصاح: «تسقط أميركا! يسقط الخائن! يعيش العراق!» وسرعان ما انضمَّ إليه بعض المتهمين الآخرين ومحاميهم في شتم القاضي.

هنا أمرَ رؤوف موظفي المحكمة: «أدخلوا المحامين الذين عيَّنتهم المحكمة!» إدراكاً منها بإمكانية ألا تقوم هيئة الدفاع التي اختارها صدام بواجباتها، عيَّنت المحكمة مسبقاً محامي دفاع عراقيين لمراقبة المحاكمة والبقاء على أهبة الاستعداد في غرفة مجاورة للحلول محل هيئة دفاع صدام في حال دعت الضرورة. وبذلك كان طرد محامي صدام المزعجين بأكملهم واستبدالهم بالمحامين المعيَّنين من قبل المحكمة أول أفعال القاضي رؤوف. غير أن المحامين الذين اختارهم صدام لم يُطرَدوا من المحاكمة كلياً بل أُبعدوا من تلك الجلسة فقط، مثل تلاميذ مشاغبين، على أن يعودوا في جلسات لاحقة (ولكن، مع استمرار المحاكمة، ستؤدي الانفجارات وإضراب هيئة الدفاع على سبيل الاحتجاج إلى تكرار السيناريو التعطيلي نفسه).

عند دخول فريق الدفاع المعيَّن من قبل المحكمة إلى القاعة صرخ صدام فيهم بحقد قائلاً: «نحن نرفضكم. إذا بقيتم فأنتم أشرار». ثم طالب بأن يُسمَح له بمغادرة القاعة –طلبٌ كان القاضي رؤوف أكثر من مسرور لتلبيته.

أمر الموظفين، قائلاً: «أَخرجوه».

فقال له صدام: «لا تقل أخرجوه. كنتُ رئيسك خمسة وثلاثين عاماً».

لكن رؤوف لم يتراجع، مكرراً أمرَه للموظفين: «أَخرجوه».

مع استمرار جو المحاكمة الشبيه بالسيرك، تبيَّنَ أن أمل رؤوف بأن يعيد حضورُه الأصلبُ من موقعه على المنصة شيئاً من الوضع الطبيعي للمحاكمة كان مجرّد تمنيات. في بداية اليوم الحادي عشر من المحاكمة، دخل صدام إلى قاعة المحاكمة وهو يصيح: «يعيش العراق! تحيا الأمة العربية المجيدة! يسقط الخونة! يسقط بوش! أنت لست قاضٍ، أنت مجرم».

فردَّ رؤوف دون انزعاج: «يكفي خطابات. نادوا المتهم التالي!»

كان برزان آخر الداخلين، مرتدياً، على نحو ملفت للنظر، ما بدا أنها ملابس داخلية بيضاء طويلة، كأنه خرج من سرير في كوخ شتَوي وليس ليظهر في أكثر المحاكمات شهرة وإثارة للاهتمام في تاريخ بلده. وكان يصيح: «يعيش العراق! يعيش الشعب العراقي!»

انضمَّ صدام إلى العرض الجانبي بالصراخ في وجه القاضي: «عيب عليك يا رؤوف!»

لكن برزان لم يشأ أن يتفوق عليه صدام، إذ أضاف بصوت هادر: «أنت لست رؤوفاً. وبعيد كل البعد عن الرحمة».

فقال له رؤوف: «يكفي! اجلس!»

عندئذ صرخ صدام: «هذا هو سلوك الخونة. الله أكبر! الله أكبر!» ثم أضاف، مستخدماً إحدى عباراته المشهورة التي كانت تظهر في الكثير من خطاباته الرئاسية، «ليخسأ الخاسئون». وأفرَحَ بعض الحضور بإطلاق الشتيمة العربية المهينة: «يلعن أبو شواربكم».

بالطبع، سرعان ما كانت شخصية الاستعراضي الهائج الجاذبة لاهتمام العالم في قاعة المحاكمة تتبدَّد لحظة انغلاق باب المصعد وإعادة صدام إلى زنزانته في الطابق السفلي. ذات يوم، كان كريس تاسكر جالساً خارج مكان استراحة صدام أسفل قاعة الحاكمة، يراقب صدام الجالس لوحده في تلك الغرفة التي كانت أكثر بقليل من «قفص فولاذي مع أربعة كراسٍ»، فإذا به ينظر إليه فجأة.

كان الرئيس السابق يجلس على كرسي معدني واضعاً ساقاً فوق الأخرى ويدخّن سيجاراً. شعر تاسكر -الذي لم يكن يعرف كيف سيردُّ على تحديق السجين- بالحاجة لقول شيء ما لكسر الصمت غير المريح فقرر استخدام عبارة حميدة: لابد أن رائحته جيدة، يا سيدي.

فقال له صدام، مشيراً لتاسكر للانضمام إليه في الزنزانة: أتريد بعضاً منه؟

قال تاسكر، محاولاً الظهور بمظهر غير المكترث: بالتأكيد.

فتح تاسكر باب الزنزانة ودخل، ثم أخذ السيجار من يد صدام الممدودة واستنشق دخان التبغ اللذيذ، مع الحرص على عدم السعال أمام صدام، ثم نفث الدخان في الهواء البارد للزنزانة تحت الأرضية.

لكن الصمت المصاحب للسيجار المشترك سرعان ما ازداد إرباكاً. بحث

تاسكر عن شيء يقوله وخرج بسؤال طبيعي بالنسبة لصدام المحب للكوهيبا: كيف بدأتَ مع السيجار؟

فأجابه صدام مع ابتسامة: فيدل.

كان صدام يحب أن يخبر الحراس كيف أن فيدل كاسترو علَّمه طريقة تدخين السيجار، حتى أنه أراهم صوراً لهما معاً، يُرجَّح أنها التُقطت خلال واحدة من زياراته الخارجية النادرة نسبياً –زيارة إلى هافانا في 1979.

وجد تاسكر هذا الأمر رائعاً. **ماذا سيكون رأي الرفاق في أوهايو عندما يعرفون أنني دخَّنتُ سيجاراً مع صدام حسين؟** بالطبع، إذا كان باستطاعته إخبارهم يوماً ما -متذكِّراً التوجيهات المعطاة لهم بعدم التحدث حول تلك المهمة مع أي إنسان. ولأنه كان يرغب في إبقاء الحديث مستمراً، أشار تاسكر إلى مجلة قريبة تُظهر صورة سيارة وسأل صدام: «أي نوع هو المفضَّل لديك؟»

فأجاب الرئيس السابق دون تردد: «مرسيدس».

وجد تاسكر توجيه الحديث إلى السيارات فكرة حسنة، بما أنه كان يعرف الكثير في هذا المجال.

فجأةً، اندفع رجل إلى زنزانة الاستراحة وقال لاهثاً: «لا يمكنك التواجد هنا».

فقال له تاسكر: «حسناً». عرف على الفور ما حدث، ولام نفسه لأنه لم يتوقّعه. لابد أن شخصاً يراقب الشاشات مغلقة الدارة في «غرفة التحكم» شاهده جالساً مع صدام ويدخن سيجاراً، فهرع المراقب القلق إلى القبو ليضع حداً لذلك التقارب الودي. كان صدام والجنود معاً تحت مراقبة لصيقة في المحكمة العراقية العليا، الأمر الذي كان يجعل من الصعب الاستمتاع بذلك التواصل الطبيعي الذي كان يميِّز الحياة على «الصخرة».

واصلَ صدام تدخين سيجاره بسعادة، غير مبالٍ بالدراما التي كانت تحدث بين الحارسين الأميركيين.

الفصل الخامس والعشرون
بغداد، العراق - 2006

مرتدياً دشداشته وممسكاً بمسبحة صلاته، راح صدام يذرع منطقة استراحته الخارجية جيئةً وذهاباً متمتماً مع نفسه دون صوت. كان هتش، المناوب في ذلك الوقت، يراقب بهدوء بينما كان صدام يقطع «المسافة القصيرة التي كان يقطعها طوال الوقت»، من كرسي هتش البلاستيكي، مروراً بغرفة الاستراحة، ووصولاً إلى رقعة الأعشاب النامية التي كان يعتني بها، ومن ثم يعود أدارجه من جديد. يقول هتش حول مشي صدام بهذه الطريقة وتمتمه لنفسه: «لو لم تكن تعرفه لظننتَ أنه فقد عقله». في بعض الأحيان، كان سلوكه ونبرة صوته يوحيان للسوبر اثني عشر بأنه كان يُردِّد أشياء يخطط لقولها في المحكمة. ولعل صدام نفسه كان يشك في أن سلوكه يمكن أن يبدو غريباً، ذلك أنه كان يلتفت أحياناً ويرى الحارس المناوب يراقبه فيرسم ابتسامةً شبه مرتبكة.

كان هتش يقلِّب بشرود صفحات إحدى مجلات «بيبول» -التي زاد تعلُّقه بها خلال تلك المهمة- حين لاحظ أن صدام توقَّف عن المشي وكان ينظر إليه. فقال له هتش، متوقِّعاً طلباً ما: سيدي؟ لكنه لم يكن طلباً فصدام كان يريد التحدث فقط، وكان ذلك مناسباً بالنسبة لهتش.

قال صدام: كنتُ وبرزان معتادين على صيد الأسماك بالقرب من هنا. ثم أضاف محاولاً تبيان أماكن الصيد المتنوعة في البحيرة الاصطناعية: آه، توجد أسماك كبيرة جداً هناك، ولكن لا يوجد الكثير هناك.

رغم محاولات السوبر اثني عشر لإبقاء موقعهم سراً، إلا أن صدام عرفَ

بدقة أين كان موجوداً. وفي بعض الأوقات، كان يلمَحُ شيئاً ما من خلال الغطاء الأبيض الذي وضعه الجنود على نوافذ عربة الهمفي ويعلِّق من تلقاء نفسه بشأن المعالم المميّزة للمكان الذي كانوا يمرّون به.

كان من الممكن أن تصبح أن الأسماك التي وصفها صدام كبيرة جداً بالفعل. لقد اعتاد الجنود الأميركيون على تسمية الشبّوط الضخم ب- «قاروص صدام»، بعد أن سمعوا إشاعات تقول إنه ملأ البحيرات بها. وكحال معظم القصص المتعلقة بصدام، لم تكن هذه القصة خالية من جانب أسود. لقد سمع السوبر اثنا عشر أن رجال صدام رموا جثث بعض الأعداء الذين قتلوهم في البحيرات، ما جعل الأسماك الضخمة تُطوِّر شهيَّةً للدم البشري.

رغم أن صدام لم يعد على رأس السلطة وكان يخضع للمحاكمة، إلا أن العنف الفظيع لم يهدأ. الفرق الوحيد هو أن الضحايا، بدل أن يكونوا من المعارضين للنظام، أصبحوا ضحايا الحرب الأهلية العراقية المتفاقمة، وكانوا يُرمَون في المياه أحياناً. وقد أخرج هتش بعضاً من أولئك «الطافين» من البحيرة، وتفتَّتت أجزاء من جثثهم المتحلِّلة في يده بينما كان يصارع لإخراجهم.

ومع رفع فرق الموت الطائفية مستوى جهودهم لتطهير الأحياء المختلطة في بغداد، باتت هذه الاكتشافات المروِّعة أمراً روتينياً. ففي تلك السنة، على سبيل المثال، علقت اثنتا عشرة جثة في مشابك معدنية تهدف لمنع الركام من الوصول إلى نهر دجلة. كان الضحايا مقيَّدين ومعصوبي الأعين مع آثار طلقات في الرأس قبل رميهم في النهر. ومع ذلك، لم يثر اكتشافهم لدى مواطني بغداد أكثر من رفع الكتفين بلا اكتراث. بعد ثلاث سنوات على العنف المتنامي، أصبحت تلك الاكتشافات الشيء الطبيعي الجديد.

بدا صدام –الذي تنبَّأ بوقوع ذلك الانهيار المجتمعي حين قال لمحققي السي آي إيه بثقة بعد مدة قصيرة من اعتقاله «إنكم ستحتاجون لشخص مثلي للحفاظ على تماسك هذا المكان»- مبتهجاً على نحو ملفت للنظر بينما كان يتذكَّر مآثره في الصيد. بدلاً من شعوره بالتعاسة، كان صدام يبدو سعيداً ومفعماً بالحماس عندما كان يتحدث عن حياة لم يعد يتمتع بها.

تابع صدام سرد قصته حول الصيد مع أخيه غير الشقيق: «كان برزان محتالاً».

فقال هتش: «صحيح؟ ومن كان يلتقط أسماكاً أكثر في العادة، سيدي؟

قال صدام: كان برزان يكذب ويقول لي إن سمكته أكبر. لكن سمكتي كانت أكبر حقاً. استخدم صدام يده لتصوير الفرق في الحجم بين الأسماك التي كانا يتجادلان بشأنها منذ سنوات خلت، محاولاً إيجاد الكلمات للتعبير عن مقدار الفرق في الوزن.

قال هتش مجاملاً بلطف: يبدو أنها كانت أسماكاً كبيرة حقاً، يا سيدي. كان صدام واقفاً قبالته تعلو وجهه ابتسامة مشرقة عريضة.

أجل كانت كذلك بالفعل؛ كبيرة ولئيمة. أحبها بهذه الطريقة -أحبها أن تكون لئيمة كي تقاوم. ثم أضاف بافتخار: كنت معتاداً على تحضيرها وطهوها بنفسي.

وبعد ذلك واصل المشي، محرّكاً بإبهامه حبّات مسبحة صلاته، وملامح السكينة والهدوء مرتسمة على وجهه بعد أن نقلته مخيّلتُه إلى تلك الأيام الهانئة فوق الماء.

بغداد، العراق –ثمانينيات القرن الماضي

راقب صدام خيط صنّارته يتدلّى في البحيرة الاصطناعية، مستمتعاً بسطح الماء الهادئ وبالتباين الذي كان يصنعه مع حيوية بغداد النابضة التي تبعد بضعة كيلومترات فقط عن جدران قصره –كان ذلك الضجيج المدني ممزوجاً بصرخات الألم الصادرة عن زنازين السجون في أماكن مختلفة من المدينة. في ذلك اليوم، كان يرافق صدام اثنان من أقرب موثوقيه، طه ياسين رمضان وطارق عزيز، إضافة إلى الملك الأردني حسين وبضعة من كبار مسؤوليه.

كان صدام يستمتع بتمضية الوقت مع الملك حسين، رغم أنهما كانا يشكِّلان ثنائياً غير محتمل، ذلك أن صدام برز من العدم ليصبح ندّاً للملك المدني الذي ينتمي لأكبر قبيلة في العالم العربي. كان الحاكمان وكبار مساعديهما مجتمعين فوق منصة

صغيرة ناتئة داخل مياه البحيرة الزرقاء الهادئة. لم يكن أحد منهم، في الواقع، يحمل صنّارة بل كانوا ببساطة يضعون خيوطهم المزوّدة بخطّافات تحت حصوات كبيرة عند حافة المنصة ومنها كانت تتدلّى في الماء. لربما ليس من المستغرَب في بلد يُنظَّم فيه كل شيء لإبقاء الرئيس سعيداً أن يهتز خيط صدام بعنف كل بضع دقائق، في حين كانت الخيوط الباقية تظل ساكنة في الماء. وكان صدام يتظاهر بأنه مندهش – وفرحٌ كطفل- كلما سحب واحدة من أسماك شبوط دجلة.

بينما كان الملك حسين ووزراؤه يجلسون بارتياح في رحلة العودة القصيرة، التي تستغرق ساعة، إلى عمّان، تظاهرَ بالانزعاج لأن خيط صيد صدام اجتذب ما بدا أنه عدد لا يُحصى من الأسماك في حين أن الخيوط الأخرى نادراً ما حظيت بقضمة. وعلى سبيل المزاح، ولكن مع شيء من الإحباط، قال الملك إنه لربما كان هناك غوّاص تحت الماء يعلِّق الأسماك بخطّاف صدام –أو لربما وُضع قفص مليء بالأسماك تحت المكان الذي ألقى فيه صدام خيطه بالضبط.

وفي زيارة لاحقة، تغيَّرت الأمور حيث شعر الملك أخيراً بقضمة في خيطه. ولكن، في نفس الوقت تقريباً، أحسَّ صدام بخيطه يهتز. خمَّن الملك –وفقاً لنظريته المؤامراتي شبه الجدّية- بأن الغوّاص وضع السمكة على خيطه قبل أن يدرك سريعاً خطأه ويعلِّق واحدة بخيط صدام أيضاً. ومما أسعدَ الملك –وربما أثار فزع حاشية صدام- أنه عندما سحب الزعيمان صيديهما من الماء، بدت سمكة الملك أكبر من سمكة صدام. لم يكن صدام مسروراً، لكنه لم يُظهر أي شيء يوحي بذلك. استدعى أحد مساعديه وأعطاه السمكتين وأمره بأن يزنهما ليعرف أيهما الأكبر.

وبعد فترة وجيزة، عاد المساعد وأعلن بشكل جدي أن سمكة صدام كانت أثقل بربع كيلوغرام.

بغداد، العراق 2006

قال صدام لهتش: أنا جاهز للدخول الآن يا صديقي.

فاجأت كلماته هتش، الذي شرد ذهنه في حلم يقظة بينما كان يراقب صدام وهو يمشي ذهاباً وإياباً، بصورة تشبه التنويم المغناطيسي، عبر منطقة استراحته.

فقال هتش: حسناً يا سيدي، لنفعل ذلك. ثم حمل مذياعه والمجلات التي كان يتصفّحها وقاد الرئيس السابق إلى الداخل من جديد، تاركاً وراءه الباحة المسوَّرة بجدران إسمنتية تعلوها أسلاك شائكة. وكما كان يفعل دائماً، مشى هتش أمام صدام كي يتسنّى للرجل الكهل الاستناد إليه في حال فقدَ توازنه.

عند وصولهما، تنحَّى صدام جانباً وانتظر هتش ليفتح باب الزنزانة له. كان الرئيس المخلوع، الذي يعاني من رهاب الجراثيم، يتجنَّب لمس مقابض الأبواب كلما كان ذلك ممكناً.

ما إن وضع هتش الأشياء التي أخذها معه على منضدة الحرّاس خارج زنزانة صدام وأَجلَسَ جسده الضخم على إحدى كراسي الحرّاس حتى لاحظ أن صدام كان ما يزال واقفاً وينظر إليه راسماً على وجهه ذلك التعبير الذي يوحي بطريقة لا لبس فيها بوجود شيء ناقص.

وبعد ذلك ركل صدام باب الزنزانة ففتحه تعبيراً عن استيائه لتركه مفتوحاً. رغم أن صدام كان يحب أحياناً ما يتيحه باب الزنزانة المفتوح من حرية الحركة، بما أن ذلك كان يسمح له بالوصول إلى خزانته بسهولة أكبر أو الخروج مع أحد حراسه إلى منطقة استراحته، إلا أنه كان يفضِّل في أوقات أخرى إبقاءه مغلقاً.

قال صدام وهو يشير إلى الباب المفتوح على مصراعيه: «صديقي، صديقي».

لأنه كان يعرف ما يعنيه ذلك، قال هتش في داخله: اللعنة. ثم نهض مُكرَهاً عن كرسيه وذهب إلى الزنزانة وأغلق الباب.

فقال صدام بارتياح جليّ: شكراً لك يا صديقي. ثم جلس على كرسيه بجانب منضدته.

لم يستطع هتش منع نفسه من الابتسام، رغماً عنه.

الفصل السادس والعشرون
بغداد، العراق 2006

صرخ المجنّد بول سفار من مكانه في الغرفة موجّهاً كلامه للمجنّد تكر داوسون: إذا شغَّلتَ تلك الأغنية اللعينة مرة أخرى فسأركل مؤخرتك. كان داوسون يستمع لأغنية ليل واين «رجل الإطفاء» كل صباح تقريباً في الغرفة الضيّقة التي يتشاركانها، وكانت قد بدأت تثير جنون سفار. كانت مشاعر الغضب والضيق تتضخَّم بفعل الحرارة القاسية، والتوتر الضاغط، والتستوستيرون. ولهذا السبب، لم يكن هناك مفرّ من حدوث احتكاك وثورانات غضب في بعض الأوقات.

وعند حدوث ذلك، كان السوبر اثنا عشر يحلُّونها بطريقة عنيفة بعض الشيء لكنها فعّالة على نحو مثير للاستغراب. حول هذا الأمر، يقول المتخصص روجرسون: «إذا ضجرنا من بعضنا، كنا نأخذ بعضنا بعضاً إلى الميدان ونحل المسألة». وهذا يعني الاستعداد للقتال بالأيدي –أو كما يُدعى في التدريب في الجيش *«combatives»*- مع تحلُّق بقية الجنود حول المتصارعين لضمان عدم خروج الأمر عن السيطرة. لم يكن الضرب بالقبضات مسموحاً بل كان يتوجب على أحدهما إخضاع الآخر كما في مباريات المصارعة. أحياناً، كان الإنهاك المتبادل يؤدي إلى التعادل، وعندها كان كلا المتصارعين يساعدان بعضهما على النهوض وهما يلهثان. وكانت هذه النزالات تتّسم بطابع عائلي بالنسبة إليهم، بحسب روجرسون الذي يقول: «يمكن تشبيه الأمر بأن بمقدوري العبث مع أخي ولكن ليس أنت. لقد ضايقتُ بيركينز لمرات لا أستطيع إحصاءها، ولكن إذا أزعَجَنا شخص ما من الخارج، كنا نساند بعضنا».

ولكن في هذه الحادثة، لم يمتلك سفار الصبر لانتظار التعامل مع داوسون لاحقاً. في الحقيقة، لطالما كانت علاقتهما متوترة، ربما لأنهما انضمّا إلى الجيش من عالمين مختلفين أشد الاختلاف. كان سفار المليء بالوشوم مدمناً على ممارسة ألعاب الكمبيوتر، أما داوسون، المولع بالصيّد البري والبحري، فكان أكثر تجسيداً للمحافَظة الثرية الجنوبية.

فقدَ سفار قدرته على التحمُّل مع تواصل غناء ليل واين من كمبيوتر داوسون فهجم على الكارولايني الشاب بكتف محنيّ واصطدم به فسقط كلاهما على الأرض. لم يكن أي منهما يريد إيذاء الآخر، في الواقع، لكن البخار كان قد بلغ درجة الغليان وكان بحاجة لتنفيس. تخبَّطا في أرجاء الغرفة الفوضوية واصطدما بالجدران الخشبية التي تفصلهما عن الجنود المجاورين. وفي النهاية، كانت اليد العليا لسفار، الذي ثبَّت داوسون على الأرض. وفي تلك اللحظة اندفع الملازم توم فلاناغان إلى الغرفة بعد سماعه الضوضاء أثناء مروره في الممر.

صرخ فلاناغان: أوقفوا هذا الخراء!

أفلتَ المتقاتلان بعضهما على مهل، مع شعور ضمني بالارتياح لحصولهما على فرصة الهدنة بطريقة تحفظ ماء الوجه. لم يكن هناك شك بأن أمر فلاناغان سيُطاع، فالملازم كان يحظى بإعجاب الجميع لاجتهاده ونزاهته. توجَّه سفار وداوسون بانصياع إلى الحمامات لتنظيف نفسيهما والاستعداد ليوم آخر –أربعة وعشرون ساعة أخرى تفصل بينهما وبين الذهاب إلى الوطن أخيراً.

تتألف حياة الجنود من سلسلة لا نهاية لها من العد التنازلي، بدءاً من التدريب الأساسي – مع خربشة عدد «الأيام [xx] واستيقاظ» على المراحيض المتنقلة في مختلف أنحاء القاعدة، والتي تشير إلى عدد الأيام الباقية لتخرُّج المتدرِّب- ولا تنتهي بعد ذلك أبداً. حين يصل الجنود إلى وحدة ما في وقت الحرب، يكون هناك عد تنازلي للانتقال إلى ميدان القتال، وحالما يصلون إلى الميدان يكون هناك عد تنازلي لإجازة منتصف المهمة والعودة إلى الولايات المتحدة، وحالما يصبحون في الإجازة، يكون هناك عد تنازلي للعودة إلى ساحة القتال، وبعد عودتهم مباشرة يكون هناك عد تنازلي لنهاية المهمة. وعلى هذا الأساس فإن حدوث فورة عدوانية، مثل منافسة المصارعة التي وقعت سفار وداسون، لا يتعدّى كونه واحدة من الطرق التي يُنفِّس بها الجنود

عن شعورهم بالإحباط من حياتهم الشبيهة بـ «يوم قندس الأرض» –«*Groundhog Day*».

في عصر أحد الأيام، كان سفار وداوسون يلعبان الشطرنج في منطقة استراحة صدام في «الصخرة»، بعد مجيئهما من زنزانة الرجل الكهل بسبب تعليقه نصف المازح، نصف الجدِّي: «قفصي لا يستطيع احتجازي». كان صدام جالساً يدخّن وسط انهماكه في قراءته وكتابته، وكان مذياعه القديم يبثُّ مزيجه الغريب من الألحان الأميركية والعربية في الخلفية. كان يعمل على قراءة المجلدات العشرة للفيلسوف والمؤرخ التونسي، ابن خلدون، التي طلب من ابنته جلبها له، إلى جانب بعض دواوين الشعر العربي ودراسات أكاديمية حول القرآن. وكانت رغد تجمع الكتب وتعطيها لمحامي صدام، النعيمي، عند سفره إلى عمّان. يوحي دعم رغد المطيع بأنها لم تعد منزعجة –إن ازعجت أساساً- من الدور الذي لعبه والدها في قتل زوجها بعد عودتهما من عمّان في 1995. إنها مقاتلة، مثل والدها، وبحسب ما يقوله الجميع، انتهازية أيضاً، ولابد أنها كانت تعلم بأنها لن تكسب الكثير بتحمُّل المسؤولية بشأن زوجها الميت.

كان سفار وداوسون حريصين على إبقاء عينهما على صدام حتى مع اشتداد سخونة مباراتهما. وبينما كانا يلقيان نظرة عليه بين الحين والآخر، لاحظا أنه بدأ يختلس النظرات إليهما أيضاً. بدا بأنه مهتم بشيء ما ولكن دون أن يشير إليهما، كما اعتاد أن يفعل عندما يريد التحدث.

وبعد ذلك وضع صدام أوراقه على المنضدة ونهض ومشى نحوهما ثم وقف بجانبهما بينما كانا يركِّزان على خطواتهما التالية، وراح ينفث بسيجاره ويراقب اللعبة بعناية.

وأخيراً سألهما صدام: «هل يمكنني اللعب؟»

بما أن سفار كان هو الذي يتجه إلى الفوز، فقد افترض بأن صدام كان يتحدّاه، لذا أجابه: انتظر لحظة سيدي، دعني أتحقق. اتصل بالملازم فلاناغان، الذي كان في غرفة التحكم يشاهد شاشات المراقبة التلفزيونية مغلقة الدارة.

سأله سفار: هل من المسموح أن ألعب الشطرنج مع فيك؟

فقال فلاناغان: بالتأكيد.

نهض داوسون ليفسح المجال لصدام للجلوس مكانه أمام لوح الشطرنج. قبل أن يبدأ سفار بإعادة ترتيب القطع في مواقعهما الأولية، سأل صدام: هل تريد الأبيض أم الأسود؟

فأجابه الرئيس السابق: لا بأس، اختر أنت. أنا لم ألعب منذ سنوات. لعله قال ذلك تحسُّباً للخسارة.

بيد أنه لم يكن بحاجة للقلق فقد هزم سفار في هجوم كاسح وسريع. لم يقل صدام أية كلمة بعد تدميره الجندي الشاب. لعبا مرة أخرى وفاز صدام أيضاً. حول هذه المنافسة، يقول سفار: «كأنه كان يلعب مع طفل، وأنا كنت أمارس الشطرنج منذ سنوات».

رغم التوجيهات التي أُعطيت للجنود بعدم الانخراط مع صدام في أية مواضيع يُحتمَل أن تكون مثيرة للمشاعر، إلا أنهم لم يستطيعوا أحياناً منع أنفسهم من الرضوخ لفضولهم. ذات يوم، طرح داوسون -الذي يعتقد أن صدام «ارتكب على الأرجح معظم الأشياء الفظيعة المتّهم بها حتى قبل أن أُولَد أنا. لقد قتل الكثير من الناس»- على صدام سؤالين صريحين كانا يجولان في أذهان بعض الجنود.

«ما رأيك بشأن الحرب؟ هل أنت سعيد لأن الإرهابيين في الخارج يصيبوننا بالعبوات الناسفة المرتجلة والقنابل ويطلقون النار علينا؟»

فأجابه صدام: لا. كل ما أردته للعراق هو السلام. ولكن، دعني أسألك هذا السؤال. إذا جئنا إلى بلدكم وكنا ندير الأمور فيها، ماذا ستفعلون إن لم تكونوا تريدوننا هناك؟

فقال داوسون: حسناً، أجل، أفهم ما تقصده.

فقال صدام، مشيراً إلى المتمردين: بالضبط، ولهذا السبب لا يمكنني حقاً أن ألومهم، ولا يمكنني حقاً منعهم.

لعل داوسون تجرَّأ على فتح هذه المواضيع الحساسة لأن صدام كان يكنُّ له مودَّة خاصة -كان ذلك واضحاً بالنسبة للعديد من الجنود- ربما لأنه كان العضو الأصغر في السوبر اثني عشر. كثيراً ما سأل صدام داوسون عن حبيبته وقال له إنه كان ينبغي أن يكون في المنزل ويذهب إلى الجامعة معها بدلاً من القتال في العراق. حتى أنه وعد داوسون ذات يوم بأنه سيدفع له تكاليف الجامعة إن استطاع يوماً استخدام حسابه المصرفي.

في وقت متأخر من إحدى الليالي في الصخرة، فاجأ داوسون رفاقه بالمشي بطريقة استعراضية في ممر منطقة عيشهم (لم تكن أكثر من صفٍّ من المساكن الصغيرة تفصل بينها جدران من الخشب الصفائحي) مرتدياً إحدى بذّات صدام. قال لهم بابتهاج إن صدام أعطاها له. لكن البذة التي فُصِّلت من أجل رجل ذي كرش لم تكن تناسب قياس داوسون على الإطلاق، مما جعل المشهد أكثر إثارة للسخرية. ضحك الجنود من أعماقهم بينما كان داوسون يسير بخطوات مبالَغ بها عبر منطقة سكنهم المتقشِّفة كما لو أنه كان يمشي في استعراض للأزياء.

بعد أشهر، سيقول داوسون بخصوص علاقته بصدام: «لا أعتقد بأنه كان من الممكن أن يحاول إيذائي. لو أنني أعطيته سلاحاً –سلاح محشو- أراهن بأنه لم يكن ليطلق النار علي. أنا متأكد تماماً. بل إنه لم يفعل شيئاً لإيذائنا. إذا ناداك يا صديقي، فهذا يعني أنك صديقه».

القصر الرئاسي، بغداد -11 أيلول 1994

كان رعد الحمداني -الوطني العراقي والمحارب الحائز على العديد من الأوسمة- موجوداً في مقر قيادة لواء المدينة المنورة النخبوي التابعة للحرس الجمهوري في معكسر التاجي، الذي يبعد نحو عشرين ميلاً شمال بغداد، عندما رنّ جرس هاتفه في عصر يوم من أيلول. كان المتصل هو قصي، الابن الأكثر انضباطاً بين ابني صدام.

قال قصي: «سيادة اللواء، سوف نجمع كل قادة الجيش. اتصل بالقصر فوراً من فضلك». وبعد ذلك سمع رعد الكلمات التي «بدت مثل برق يصعق جسدي. يريد الرئيس غزو الكويت واحتلالها من جديد».

كان الحمداني معارضاً للغزو الأول، وبعد أن شهد بنفسه المجزرة التي تسبَّب بها التحالف بقيادة أميركا، والتي كاد هو نفسه أن يُقتَل فيها – «وصل السيف إلى رقبتي»- قرر ألا يألو جهداً لمنع تكرار ذلك الخطأ الكارثي.

عندما وصل الحمداني إلى القصر حيّاه قصي وأسرَّ له بأنه، هو أيضاً، كان قلقاً بشأن احتمال القيام بغزو متهور آخر. ثم سأل الحمداني بنبرة تشي بأنه كان يعرف الجواب مسبقاً: لسنا قادرين، أليس كذلك؟ ماذا سأقول للرئيس؟

فقال له الحمداني: قل له إننا لا نستطيع فعل ذلك.

كانت ملامح الشاب توحي بأنه كان يعي خطورة الوضع.

اجتمع القادة في القصر. وبدأ آخرون الحديث –متملقون إلى أقصى الحدود- مؤكدين لصدام: «لسنا فقط قادرين على احتلال الكويت، بل يمكننا متابعة طريقة حتى عُمان». بعد ذلك، التفت قصي إلى الحمداني وسأله: «كيف يقولون إن هذا سيكون يسيراً وأنت تقول إنه مستحيل». طرح قصي السؤال باحترام، بثقة محامٍ يعلم ما سيقوله شاهده الخبير.

فأجابه الحمداني: إذا تلقيتُ الأمر فسأرد بالتحية وأنفذه، كما أفعل دائماً، وستثبت النتائج من الذي يقول الصدق. كان المعنى الضمني واضحاً؛ لن تكون النتائج جيدة.

عاد الحمداني إلى مقر قيادته، غير واثق من وقع رسالته على الرئيس. لكن شكّه لن يطول ففي وقت متأخر من تلك الليلة –حوالي الساعة 10:30- رن جرس الخط الساخن الأحمر في مكتب الحمداني. لم يكن يتصل على ذلك الخط سوى ثلاثة أشخاص، وهم صدام أو قصي أو السكرتير الخاص للرئيس، عبد حمود. هذه المرة كان عبد هو المتصل. قال عبد: «رعد، العمّ يريدك»، مشيراً إلى صدام باللقب الودي –ولكن المهدِّد بعض الشيء- الذي كان مساعدوه يستخدمونه أحياناً. ركب الحمداني على وجه السرعة في سيارة سيدان عسكرية وتوجَّه جنوباً نحو القصر الرئاسي في بغداد، الذي كان يبعد خمساً وأربعين دقيقة تقريباً.

لم تكن الاستدعاءات في ذلك الوقت المتأخر من الليل غير مألوفة تماماً، بما

أن صدام كان يعمل لساعات طويلة وغير قابلة للتنبؤ بها. بينما كان سائقه يقود مسرعاً عبر شوارع المدينة، حاول الحمداني توقُّع أي نوع من صدام سيقابل. وازنَ ما بين خطورة إغضاب صدام بصراحته وبين خطر وقوع حرب كارثية أخرى، ودعا الله بأن يحميه.

وعند وصوله، لم يفعل عبد حمود شيئاً لتخفيف مخاوفه، حين قال له: «الرئيس غاضب جداً منك». أحسَّ الحمداني بخوف عميق يشلّ الحركة يسيطر عليه، من النوع الذي يشعر به المرء عندما يرى كابوساً في وقت متأخر من الليل.

سأل الحمداني عبد حمود: «هل يمكن أن يرافقني الحارس؟» كان يشير إلى حارس أمني مناوب في القصر في النوبة الليلية، على أمل أن يخفِّف وجود شخص آخر في الغرفة من غضبَ صدام.

فأجابه عبد: لا، يريدك لوحدك.

أخذ الحمداني نفَساً عميقاً وفتح الباب.

أخذ الحمداني وضعية الاستعداد وحيَّا الرئيس بينما كان يقدِّم اسمه: اللواء رعد الحمداني. كان كلاهما يرتديان الزي العسكري زيتوني اللون. كان الغضب بادياً على وجه صدام –وجهٌ يمكن أن يزيد نبضات قلبه إلى 120 نبضة في الدقيقة، حتى عندما يكون هادئاً. سحبَ الرئيس نَفَساً أخيراً من سيجاره ثم وضعه بحرص. وبعد لحظة من الصمت غير المريح، قال صدام:

رعد، لا يمكنني أن أحترم أي قائد يقول إنه لا يستطيع فعل شيء ما.

فقال له الحمداني، مفسِّراً: سيدي، لم أتلقَّ يوماً أمراً ولم أطعه. في هذه الحالة، أُمرتُ بأن أقدِّم رأيي، وهذا ما فعلته.

مرَّت بضع ثوانٍ بطيئة على نحو معذِّب واصل خلالها الحمداني الوقوف بجمود في وضعية الاستعداد بينما كان صدام ينظر إليه ببرود. كان الحمداني يعرف بشأن ادّعاء صدام بأنه كان قادراً على معرفة ما يفكر فيه الأشخاص قبل أن يفتحوا أفواههم. وأخيراً قال صدام: اجلس.

جلس الرجلان على طرفي الأريكة الوحيدة في الغرفة. لم يكن يوجد على طاولة المكتب سوى مجموعة متنوعة من الأوراق المكدّسة تحت ثقّالات ورق وبعض أقلام الحبر وأقلام الرصاص.

قال صدام: اشرح وجهة نظرك. ما تبرير تقييمك السلبي.

فقال الحمداني: سيدي، لقد قارنتُ قدراتنا مع قدرات عدونا –أميركا- وبحسب هذه المقارنة، لسنا قادرين على هزيمتهم.

على نحو مثير للاستغراب، بدت ملامح صدام بأنها تميل نحو الهدوء رغم أن كلمات الحمداني لم تكن، كما يُفترَض، ما يريد سماعه.

ثم سأل الحمداني صدام بشجاعة: هل يمكنني أخذ بعض الأغراض من طاولة مكتبكم واستخدامها لشرح شيء ما لكم؟ فأومأ صدام برأسه موافقاً.

رفع الحمداني ثقّالة الورق وقال: أترى ثقّالة الورق هذه؟ هذه T-72 روسية، دبابتنا الأكثر تطوراً. تخيَّل أن قيمتها تُقدَّر بـ 1.5 على مقياس من 1 إلى 5. حصلنا على هذه الدبابة في بداية الحرب العراقية الإيرانية التي دامت ثماني سنوات، ولم تُطوَّر أبداً بسبب العقوبات المفروضة علينا.

ثم رفع ثقالة الورق الأخرى وأضاف قائلاً: هذه دبابة M1 أميركية. إن قيمتها 4 على مقياس من 1 إلى 5.

كان صدام مركِّزاً لكنه ظل صامتاً على نحو مخيف.

تابع الحمداني شرحه، قائلاً: فوق دبابة M1 هذه باستطاعة الأميركيين تحليق مروحية أباتشي مزودة بصواريخ هليفاير، وهذا يضاعف فعاليتها 5 مرات. إذاً فهم يملكون الآن 25 ونحن ما زلنا نملك 1.5. بعد ذلك بحث الحمداني عن قلم وأمسكه فوق ثقّالة الورق التي ترمز إلى الدبابة، وأضاف: هذا القلم هو F-16 وباستطاعة الأميركيين تحليقها فوق الدبابة والأباتشي. وهذا يضاعف فعاليتهم مرة أخرى إلى 75. ونحن مازلنا نملك 1.5.

كان الحمداني مستعداً لانفجار صدام في أية لحظة، فقد كان يحطّ من قيمة مقدرات جيش صدام، لكن الانفجار لم يقع.

واصل الحمداني شرحه، متشجّعاً بعض الشيء لأنه لم يُقاطَع حتى تلك اللحظة: وفوق الـ F-16 ستكون هناك قاذفة B-1، وفوقها لديهم أقمار اصطناعية. إذا ما أخذنا كل هذه معاً، فإنه تحليل يشير إلى أن الأميركيين يمتلكون قدرات تُقدَّر قيمتها بـ 125 مقابل قدراتنا المقدَّرة قيمتها بـ 1.5. لهذا السبب لا يمكننا الانتصار في هذه الحرب، ولا يجب علينا أن نغزو الكويت من جديد.

وبذلك انتهى الحمداني من البوح بأفكاره المهرطقة لصدام.

أنهى صدام صمته أخيراً بقوله: أعرف أنك قاتلتَ ضد إسرائيل وإيران وأميركا، وأنك شجاع. شعر الحمداني بخوفه الخانق يبدأ بالانحسار، بيد أن صدام حوَّل كلامه بشكل مفاجئ: لهذا السبب لستَ بحاجة إلى كل هذه الأرقام.

كان صدام يشير ضمناً إلى قناعته الراسخة بأن الشجاعة الصرفة والجرأة قادرتان بطريقة ما على دفع العراقيين إلى الانتصار على أعداء يتمتعون بقدرات تكنولوجية فائقة التطور. هذا هو صدام البدوي الذي يضع إيمانه بالميزات الروحانية للمحاربين فوق المعايير العقلانية المستمَدَّة من الحواسيب. وقف صدام ومدَّ يده ليصافح الحمداني وقال: عد إلى لوائك. كنتُ أفكر في شيء آخر من أجلك –كان المعنى الضمني واضحاً، ومميتاً.

ثم أضاف دون أن يفلت يد الحمداني: ماذا تريد من صدام؟

كان الحمداني يعلم أن ما كان يجول بذهن صدام هو سيارة أو نقود. وهذا أيضاً هو صدام البدوي، الذي يريد أن يبدو كريماً أمام عشيرته ويجعلهم يعتمدون على عطاياه. رغم أن المقابلات الرسمية مع صدام كانت دائماً تحمل إمكانية أن تنتهي بالموت، إلا أن الكثيرين من الزائرين خرجوا ومعهم هدايا، وبعضها كان فاخراً حقاً. بيد أن الحمداني كان رجلاً عزيز النفس ولم يكن يريد أن يكون مديناً لصدام بأكثر مما كان مديناً به سلفاً، باعتباره كان قائداً رفيعاً في جيشه. فأجابه الحمداني: أنا مجرد جندي يقوم بواجبه، ولن أطلب أبداً أي شيء.

فكرر صدام سؤاله، كما لو أنه لم يسمع جواب الحمداني: ماذا تريد من صدام؟

فكَّر الحمداني بسرعة في رد محترم وفي الوقت نفسه لا يتضمَّن طلباً، فقال: ليحميك الله كي تحمي العراق. هذا ما أريده.

غير أن صدام ألحَّ على الحمداني للمرة الثالثة: ماذا تريد من صدام؟

حاول الحمداني جاهداً للخروج بجواب مرضٍ، إلى أن توصَّل أخيراً إلى جواب: «بما أنني في الجيش فأنا لا أحتاج أي شيء، لكنني إذا غادرت، أرجو أن تسمح لي بالنقر على بابكم بأي حاجة قد أن أكون بحاجة إليها حينئذ».

أرضت هذه الإجابة صدام أخيراً، فأفلت يد الحمداني وسمح له بالمغادرة. وبينما كان الحمداني يخرج من المكتب، أوقفه سكرتير الرئيس، عبد حمود، وطلب منه الانتظار في غرفة الاستقبال قليلاً.

وبعد بضع لحظات، خرج السكرتير وقال: «يعتقد العمُّ أنه من الأفضل بقاء هذا الحديث هنا، بما أن تحليلك يمكن أن يؤثر سلباً على المعنويات».

فأجابه الحمداني: أعدك.

وبعد ذلك، صافح عبد ثم خرج إلى هواء الليل، ودخل إلى المقعد الخلفي لسيارته المنتظرة، وبدأ رحلة العودة إلى منزله عبر الشوارع المهجورة في ذلك الوقت المتأخر من الليل.

الفصل السابع والعشرون
بغداد، العراق 2006

في عصر أحد الأيام، رفع صدام رأسه عن المجلة التي كان يقرؤها في منطقة استراحته ونظر إلى هتش. كانت الشمس تسقط عليهما، كالعادة، منتزعةً حبّات من العرق من جبهتيهما.

وشرع بالحديث، قائلاً: الإيرانيون ...

لم يكن هتش بحاجة لسماع أكثر من هذه الكلمة ليعرف أين سيصل صدام في حديثه، فهو لم يحاول أبداً إخفاء هوسه الواضح بالتهديدات –الحقيقية والمتخيَّلة على حد سواء- التي كانت تشكِّلها جارته الشرقية، إيران. ضرب صدام بغضب على ما قال إنها صورة قائد إيراني في المقال الذي كان يقرؤه.

قال صدام بسخرية: أخبرني بأنه سيشرب الشاي في بغداد ذات يوم -في إشارة ضمنية إلى أن الإيرانيين كانوا يتبجحون بغزو العراق. ثم أضاف بافتخار: لكنني حرصت على ألا يفعلوا ذلك أبداً.

فكرةُ أنه منع ما كان يعتقد أنها غايات إيرانية شريرة جلبت له البهجة، فصمتَ قليلاً، مستمتعاً بما أثارته الذكرى في نفسه من مشاعر الرضا. لكن الندم على مئات الآلاف من الجنود والمدنيين الذين قضوا من كلا جانبي الحرب العراقية الإيرانية لم يلقِ غيمةً فوق ذكراه العزيزة.

تابع صدام حديثه بزخم أكبر: إنهم يريدون العراق. حاولوا تضليل مواطنينا من أجل مساندتهم لسنوات. كان غضبه المتصاعد مفاجئاً لهتش، الذي كان معتاداً

أكثر على صدام الهادئ، والقانع بتمضية الوقت في أرجاء منطقة الاستراحة، وسقاية نباتاته، وإطعام الطيور.

كلما كان الموضوع أشد تعقيداً، كلما زادت معاناة صدام مع لغته الإنكليزية، ولهذا السبب وجد هتش صعوبة في فهم ذلك الهجاء. ولكن، مما استطاع تجميعه، كان المقال يحوي بعض الإشارات الإيجابية للقيادة الإيرانية التي كانت تشير إلى أن طموحاتها كانت سلمية أكثر منها عدوانية.

شتم الرئيس السابق المقال معتبراً أنه هراء محض.

كان هذا جانباً مختلفاً من شخصية صدام، ما دفع هتش للتفكير فيما إذا كانت تيارات الغضب تندفع دائماً تحت الواجهة الخارجية الهادئة المميّزة لصدام، مثل نهر راكد تعتمل أعماقه بالاضطراب.

هزَّ هتش برأسه دلالةً على الموافقة، مكتفياً بالاستماع بشكل سلبي إلى أن يُفرغَ صدام غيظه في نهاية المطاف. بدشداشته البسيطة وصندله ونظارته غير العصرية الجاثمة على أنفه، بدا صدام مختلفاً جداً عن –مع أنه كان يتصرف أحياناً مثل- الرجال المسنّين النزقين الذين يقرؤون الجريدة الصباحية في مقهى وافل هاوس في مسقط رأس هتش، جورجيا، عندما كانوا يبدون استياءهم بصوت عالٍ لأي شخص يستمع. قال هتش في داخله: لا يهم، على الأقل هذا يجعل النوبة تمضي بسرعة أكبر.

بغداد، العراق –اليوم السابع عشر من محاكمة الدجيل

بالفعل، لم يشرب الإيرانيون الشاي في بغداد، وقد حرص صدام على عدم حدوث ذلك، أياً تكن الكلفة. عندما استأنفت محاكمة الدجيل جلساتها، جهدَ الجميع في القاعة لسماع صوت صدام في تسجيل مصوَّر قديم:

«أي شخص يقف في وجه الثورة، حتى لو كانوا ألفاً، ألفين، ثلاثة آلاف، عشرة آلاف، سأقطع رؤوسهم دون أن تهتز شعرة واحدة من رأسي أو يهتز قلبي من أجلهم. عندي قلب، وأنا لا أبالغ، إذا توقفت نملة عن التنفس، فإنني أشعر بقلبي يتألم من أجلها. ولكن، مثل هذا النوع من الناس، أقسم بالله، أياً يكن عددهم، لا أشعر بأي

عطف نحوهم».

بعد التصريح، أظهر الفيديو أشخاصاً يرتعدون على الأرض خوفاً بينما كانت القوات الأمنية في حقبة صدام تضربهم بالعصي. ومن ثم سُمع صوت صدام مجدداً، يقول: «إذا مات شخص ما في التحقيق، فهو بلا قيمة». صحيح أن الفيديو لم يستغرق سوى دقيقة واحدة، لكنه لخَّص جوهر حقبة من الزمن.

اعترض محامو الدفاع بحجة أن محتوى الشريط لم يكن له صلة بقضية الدجيل. صحيح أنهم لربما كانوا محقين، لكن كلمات صدام الشريرة، المترافقة مع المشاهد المزعجة، أثّرت في المحاكمة التي لم يكن يفصل فيها خمسة قضاة في قاعة المحكمة وحسب، وإنما الملايين في محلات الكباب والمقاهي في شتى أنحاء العراق والعالم العربي.

بذل صدام ما بوسعه لعرقلة جلسة ذلك اليوم من خلال ادعائه المألوف بأن المحكمة غير شرعية، وواصل ما تشدَّق به في جلسة سابقة حين هاجم «الغزاة، الأقزام المجرمين، وعبيد الأجانب الكفرة». لكنه هذه المرة أضاف بأن المحكمة أُنشئت «تحت رماح الغزاة»، مشيراً إلى «الدبابات الأميركية حول قصره» كدليل على استحالة إجراء محاكمة عادلة.

مستمتعاً بأية فرصة لحرف مسار المحاكمة، أعلن صدام بفخر أنه ألَّف ثلاثة أبيات من الشعر للقاضي رؤوف، «لأنني لاحظتُ أنك تحب الاستماع للشعر». وهنا قال رؤوف بعزم إنه سمع ما يكفي من ثرثرته الهزلية وقطع الميكروفونات.

وأخيراً تمكَّن القاضي رؤوف من إعادة توجيه اهتمام المحكمة إلى التهم الموجَّهة ضد الرئيس السابق، مركِّزاً على الاتهام الذي يشير إلى أن صدام صادقَ بنفسه على أحكام إعدام 28 مراهقاً من بين الضحايا الـ 148. رفض صدام بقوة التهمة بقوله «أنا لا أصدر الأمر بإعدام عراقي صغير، حتى لو اقتلعتَ عيني». وعندما أُعلم بأن المدّعي يمتلك بطاقات هوية الضحايا، رد صدام ببساطة: «أعتقد أنها مزوّرة». ثم أضاف بأنه ليس من مسؤولية رئيس الدولة معرفة أعمارهم.

الكثير من المراقبين تعجَّبوا من سبب بذل كل ذلك القدر من الطاقة من أجل محاكمة صدام على جرائم ارتُكبت ردّاً على الدجيل، التي كانت تركِّز فقط على

مصائر 148 شخصاً فقط جُمعوا إثر محاولة اغتيال فاشلة، في ضوء جرائم أشد شناعة بما لا يُقاس بحق الإنسانية، وعلى الأخص منها حملة الأنفال سيئة الصيت في 1 و1988، التي قُتل فيها ما لا يقل عن خمسين ألف كردي عراقي –ويُرجَّح أن يكون الرقم أقرب إلى مائة ألف.

ذات يوم، فاجأ صدام نفسُه حارسَه ستيف هتشينسون بادِّعائه من تلقاء نفسه بأنه لم يكن يعرف تفاصيل الدجيل مُلمِّحاً في ذات الوقت إلى تواطئه في قتل الآلاف نتيجة اعتداء الأنفال. ويبدو أن الأنفال –التي تعني «الغنائم» بالعربية، وتشير إلى معركة وقعت في العام 624 بين المسلمين والكفار- كانت تستهدف الميليشيات الكردية التي تحالفت مع إيران خلال الحرب العراقية الإيرانية، لكنها كانت تهدف بشكل أوسع إلى القضاء على المقاومة الكردية لحكم صدام بشكل نهائي. تفيد التقارير بأنها كانت هجمات بالأسلحة الكيماوية وإعدامات جماعية لم يكن محصّناً منها أي شخص، حتى النساء والأطفال.

وقد أشرف علي الكيماوي على العملية الكبيرة، فبحسب أدلة توثيقية جمعها الإف بي آي وقدَّمها في تقريره «الاتّهامي حول التحقيق المتعلق بصدام حسين»، أمرَ علي الكيماوري الكردَ بمغادرة منازلهم، مصدراً أوامر عسكرية تنذر بأن «القرى ستُعتبَر مناطق عمليات محظورة كلياً على جميع الأشخاص والحيوانات، ويمكن فيها للجنود أن يفتحوا النار حسب مشيئتهم، بدون أية ضوابط». وأمر علي «بقصف عشوائي، باستخدام المدفعية والمروحيات والطائرات، في جميع أوقات النهار أو الليل، من أجل قتل أكبر عدد من الأشخاص المتواجدين في هذه المناطق المحظورة». وقال علي لمرؤوسيه إنه «سيكون من الأفضل إرسالهم إلى الأمن للتحقيق قبل إعدامهم».

كانت الشهادات مروِّعة، وقد تضمنت رواية حول ثلاثة رجال كانوا «معصوبي الأعين وأُجبروا على الوقوف على كراسٍ، وأذرعهم مرفوعة فوق رؤوسهم. بعد ذلك رُكلت الكراسي تاركةً أقدام السجناء متدلية على ارتفاع بضعة أقدام عن الأرض. ومن ثم رُبط طرف خيط بأسطوانة غاز فارغة والطرف الآخر بكيس صفن كل من السجناء الثلاثة. وعندما كانت تُعطَى الإشارة، كان الحارس يرمي أسطوانة الغاز فتقتلع خصيتي الرجل. خلال نصف ساعة مات الثلاثة».

ووصف شاهد كردي آخر «ثلاثين شاحنة كبيرة بدون نوافذ تصل إلى المعسكر. اقتادونا إلى الشاحنات وأصعدونا إليها وقادوا بنا طوال النهار بدون طعام ومع القليل من الماء. مات ثلاثة أطفال ما بين سن السادسة والسابعة خلال الرحلة. دخلت امرأةٌ مرحلة المخاض وكانت الرغوة تخرج من فمها بسبب التجفاف ... عندما توقفت الشاحنات للمرة الأخيرة، رأيتُ حفراً في الأرض ويقف وراء كل حفرة جنديان يحملان بندقية كلاشينكوف. أُرغمنا على النزول وأُنزلنا إلى الحفر حيث تمدَّدنا منهكين وجائعين. وبدأ الجنود بإطلاق النار. نظرتُ حولي ورأيت المرأة التي دخلت المخاض مثقَّبة بالرصاص».

لم ينجُ الشاهد إلا بالتظاهر بأنه كان ميتاً والاستلقاء بلا حراك وسط كومة من الجثث المتعرِّقة والنازفة.

بعد سنوات، سيقول الرجل الذي عيَّنه صدام للإشراف على عملية الإبادة الجماعية، علي الكيماوي، لمستجوبيه من الإف بي آي: «هناك وجهان لصدام، أحدهما لرجل كان يقوم بخطوات استثنائية من أجل تقديم المساعدة للمحتاجين وكان أحياناً يبكي عندما يتوقف من أجل مساعدة شخص فقير، والآخر لرجل وحيد بدون أصدقاء، سواء داخل أم خارج العائلة، ولم يكن يثق حتى في أبنائه». وهذا الوجه الثاني، «وجه الشرير» كان «متوحشاً لدرجة لا يمكنك تخيُّلها».

الفصل الثامن والعشرون
بغداد، العراق –صيف العام 2006

بووووم! تردَّد صدى الانفجار عبر منطقة الاستراحة الخارجية في الصخرة، واهتزّت الجدران الإسمنتية حيث كان صدام يجلس بجانب مترجمه، جوزيف. كان المجند جيمس مارتن، أحد السوبر اثني عشر، جالساً قبالتهما. التقت أعين الثلاثة لوهلة وجيزة، ثم نظر صدام إلى مارتن وهزّ رأسه، كما كان يفعل دائماً عندما يقطع صوت إطلاق نار أو انفجارات صفو يوم هادئ. كان الجنود يتساءلون أحياناً إن كانت تلك النظرة تعني أن كل ذلك كان يمكن تفاديه لو كان ما يزال على رأس السلطة. وكان هناك احتمال بأنه كان يعتبر تلك الانفجارات المتقطعة وأصوات إطلاق النار البعيدة دليلاً على المخلصين له سيحاولون في نهاية المطاف تحريره. سيحذِّر سكرتيره، عبد حمود، مستجوبيه من السي آي إيه من هذه النتيجة المحتملة: «هذا مكان متوحش، وستجدون مشقة كبيرة في ضبطه. لم ينتهِ الأمر بعد. أنتم تسيطرون الآن – لقد وضعتموني في السجن. لكنني أستطيع سماع الانفجارات وإطلاق النار في الخارج. سنرى ماذا سيحدث؟»

بعد سنوات، سيقول وليام وايلي، المحامي الكندي الذي عيَّنه «مكتب الاتصال الخاص بجرائم النظام» التابع لوزارة الخارجية ليقدم النصح لفريق دفاع صدام: «لم يكن صدام يشعر بأي قلق من أنه سيُعدَم. كان يعتقد أن ذلك مجرد فترة إزعاج مؤقتة، وأنه سيحكم العراق مجدداً».

في وقت لاحق، تذكَّر المجند مارتن، البنسلفاني صاحب البنية القوية الضخمة، أن صدام عبَّر عن قلقه بعد الانفجارات القريبة وسأله: أين أصدقاؤك؟ هل هم بخير؟ لم يكن بوسع مارتن أبداً معرفة إن كان قلق صدام حقيقياً أم مزيفاً. ولكن،

على الأقل، في وجوده ووجود الجنود الآخرين، نادراً ما تحدّث صدام -وربما لم يتحدّث أبداً- بصورة مسيئة عن الجيش الأميركي. كان في العادة يعترف بأنهم كانوا يؤدون واجبهم. أما بالنسبة لعائلة بوش ووزير الدفاع رمسفيلد والمسؤولين العراقيين، الذين كان يعتبرهم «دمى» و«عملاء» أميركيين، فلم يكن يكنُّ لهم سوى الاحتقار.

أحياناً، لم يكن باستطاعة صدام مقاومة إسداء النصح للحراس -من تلقاء نفسه- بشأن الطريقة التي يمكن من خلالها أن يدير الأميركيون الاحتلالَ بفعالية أكبر ويهدّئوا البلد.

قال صدام ذات يوم: «الناس معتادون على أن يُحكَموا»، قبل أن يضيف واحدة من تشبيهاته التي يحب استخدامها، «أنتم لا تتركون باب أحد البنوك مفتوحاً»، في إشارة ضمنية إلى أنه بالقوة الكافية فقط يمكن تجنُّب الفوضى والخروج على القانون. بعد تلك الأحاديث مع صدام، كان من الصعب على الجنود ألا يتساءلوا أحياناً -مثلما فعل آدم روجرسون- ما إذا «كانوا موجودين هناك فقط لمحاولة إيقاف شيء كان يجري منذ الأزل».

كان يبدو على صدام الاستمتاع بصحبة جوزيف، المترجم الأميركي اللبناني الذي كان قد أمضى حتى ذلك الحين سنة معه منذ أن التقيا لأول مرة مع بدء مهمته في صيف العام 2005. كان جوزيف رجلاً ضخماً في العقد الخامس من عمره، وكان يتصرَّف بثقة –تلامس الغرور- لا تتوافق مع موقعه كمترجم، ولعلها ساعدته في تطوير علاقة ودية مع صدام. قبل التقائه بالرئيس للمرة الأولى، لم يكن لدى المترجم أدنى شك بأن صدام كان «طاغية متوحشاً يستحق الموت» نتيجة ما اقترف من جرائم. بيد أنه مع الوقت بدأ يستمتع بتواصله اليومي مع الرئيس السابق. ووجد نفسه معجباً ببعض الأشياء نفسها التي فاجأت دوك إليس والسوبر اثني عشر –على سبيل المثال، عادة الرئيس السابق بالوقوف لتحيّة ضيفه والتلويح له بصورة احتفالية للمجيء إلى زنزانته، كما لو أنه كان يحاول لا شعورياً إقناع زائره، وربما حتى نفسه، بأنه كان ما يزال رئيس دولة يرحِّب رسمياً بزوّاره رفيعي المستوى في مقر إقامته الخاص.

إن التقارب الذي تطوَّر بين صدام وجوزيف كان متناقضاً مع العلاقات الحقيقية القليلة –إن وُجدت- التي كوَّنها صدام خلال حكمه الذي دام ما يقرب من

ثلاثة عقود. وفقاً لجون ماغواير من السي آي إيه، «لم يكن لدى صدام أصدقاء. الكثير من الأشخاص كانوا يحبونه، لكن ذلك الحب لم يكن متبادلاً. كان وحيداً كقائد». الشيء الوحيد الذي لم يكن باستطاعة صدام فرضه خلال حكمه هو التفاعل الإنساني الحقيقي الصادق. ولأنه كان واحداً من ضحايا شخصيته الشكوكة، فقد كان يتوق، بوضوح، إلى ذلك النوع من الحوارات الصادقة التي كانت طبيعته المتوحشة تكفل عدم حدوثها أبداً.

حلَّت مصائر فظيعة بمستشارين رفيعي المستوى تجرَّؤوا على قول الحقيقة، مثل ذلك الوزير الذي ارتكب خطأ الاقتراح لصدام بأن يتنازل عن الحكم مؤقتاً من أجل إنهاء الحرب مع إيران وضمان شروط أفضل بعد الحرب. مجرد اقتراح التنازل عن أية سلطة –ولو لفترة وجيزة—كان يمثِّل وقاحة لا تُحتمَل بالنسبة لصدام. لقد علَّمَته نرجسيتُه الطاغية -االنابعة على الأغلب، وفقاً لعلماء النفس، من إحساس دفين بعدم الأمان- بالانقضاض على أي تهديد محتمَل. اعتُقل الوزير سيئ الحظ على الفور بواسطة أجهزة صدام، وعندما علمت زوجته باختطافه، توسَّلت لصدام بأن يكون رحيماً ويرسل زوجها إلى المنزل. وهذا ما فعله صدام بالفعل، فقد أرسل لها زوجها بعد بضعة أيام، ولكن في كيس أسود، ومقطّعاً إلى قطع صغيرة.

لم يرَ جوزيف هذا الجانب من صدام أبداً، وما عرفه هو رجل مسن «أظهرَ صدقاً وحباً للآخرين»، وكان «متواضعاً ... طبيعياً ... مثل أي شخص آخر». وقد تأثَّر جوزيف بشكل خاص عندما أشار له صدام خلال إحدى زياراته وقال إن لديه هدية خاصة له. وكانت الهدية كتاباً بعنوان «زبيبة والملك»، قال صدام إنه ألَّفه. كان فخوراً بعمله، وعندما كان يعطيه الكتاب، ألحَّ صدام على جوزيف بأن يَعِدَه بقرائته.

فأكَّد له جوزيف، الذي كان مسروراً وممتناً لاهتمام صدام، بأنه سيقرؤه.

كان كتاب «زبيبة والملك» واحداً من عدة كتب ادَّعى صدام تأليفها. وقد بدأ لجوؤه إلى مخيّلته قبل سنوات، حين كان ما يزال في السلطة. مع استطالة مدة حكمه، بات صدام يقضي وقتاً متزايداً في الاهتمام بالفن والتاريخ والشعر. في الحقيقة، قُبيل نهاية حكمه أصبح منفصلاً جداً عن الإدارة اليومية لبلده لدرجة أن نائبه السابق، طه ياسين رمضان، قال إنه حتى في أوقات الأزمات كان الأمر يتطلب أحياناً «ثلاثة أيام للوصول إليه».

قصر الفاروق، تكريت، العراق ـخريف العام 1996

سمع اللواء رعد الحمداني، قائد الحرس الجمهوري في تكريت في ذلك الحين، جرس هاتفه يرن.

قال له أحد مساعدي صدام: أيها اللواء الحمداني، أنت مطلوب في قصر الفاروق. يريد سيادة الرئيس منك ومن بقية القادة المجيء إليه في الحال.

فقال الحمداني: **ماذا، الآن؟** حسناً، أنا قادم حالاً. كان يعرف بأن جلب قادة الألوية من الموصل وكركوك وبغداد سيستغرق بضع ساعات.

بعد بضع ساعات، وصل الحمداني ومساعدوه إلى الشارع العريض المفضي إلى البوابة الضخمة المقبَّبة لقصر الفاروق في تكريت. كان يوماً خريفياً جميلاً في العراق، وكانت السماء زرقاء صافية. كان هناك قوس ضخم يُتوّج طريق دخول طويل، مثل شارع شانزليزيه في غير مكانه ينبثق من تلك الأرض المنبسطة المفروشة بالأعشاب والأجمات. ولكن، ما إن أشار لهم عناصر الأمن للدخول حتى رأوا عالماً مختلفاً. كانت أرض القصر مغطاة بأشجار التمر ومروج مقلَّمة جميلة تصل إلى نهر دجلة الذي كان يجري بوهَن جنوباً نحو العاصمة.

كان القادة العسكريون يتساءلون بشأن سبب استدعائهم، متخيِّلين وجود حالة طارئة وأنهم سرعان ما سيُقادون إلى غرفة عمليات عسكرية. لكنهم بدلاً من ذلك أُدخلوا إلى صالة احتفالات فاخرة. عندما رؤوا الرئيس، الذي كان يرتدي ثياباً مدنية عادية، أخذوا على الفور وضعية الاستعداد، فحيّاهم الرئيس بابتسامة عريضة. لاحظ الحمداني، بينما كان يمسح القاعة بعينيه، جمعاً من الفنانين والشعراء العراقيين الجالسين على كراسي أنيقة قبالة صدام، الذي كان يجلس على كرسي أَشبَهَ بعرش عند مقدمة الصالة، وبجانبه منصَّة سيتناوب الفنانون الصعود عليها لإلقاء بعض من الأعمال والمحاضرات.

قال الرئيس مع ابتسامة عريضة: «الله محيي الحرس الجمهوري»، رادَّاً التحية للعسكريين وفي الوقت نفسه مقدِّماً إياهم للفنانين المجتمعين. مع أن صدام بدا بأنه كان في واحد من أحسن أمزجته، إلا أن الخوف استبدَّ بأحد مساعدي الحمداني

نتيجة الالتقاء المفاجئ بالرئيس لدرجة أن الجمود أصابه حين حيّاه فلم يعد فمه قادراً على النطق للتعريف بنفسه.

ابتسم صدام ببساطة لتوتر الضابط ودعا الواصلين الجدد للجلوس.

لم يكن لديهم حتى ذلك الحين أدنى فكرة عن سبب وجودهم هناك. ولم تهدأ حيرتهم عندما بدأ الشعراء الصعود على المنصة واحداً تلو الآخر لقراءة أعمالهم لصدام، الذي بدا مسترخياً ومسروراً حسبما يتذكَّر الحمداني. كان يقاطع الإلقاء أحياناً ليصفِّق، وإلا فإنه كان يسند ظهره على كرسيه وينفث دخان سيجاره بسعادة. أما الضباط فظلوا متصلّبين في كراسيهم.

أخذ الشعراء فترات استراحة لتناول المعجّنات وشرب الشاي والقهوة، أما الضباط فلم يشعروا بالرغبة في الاختلاط، لشعورهم بعدم الانتماء للمكان، ولهذا السبب بقوا متسمِّرين بارتباك في مقاعدهم. وبعد نحو ساعتين من الشعر، غادر صدام الفنانين المجتمعين، الذين توجّهوا بعد ذلك إلى حديقة خارجية. تبعهم الحمداني إلى الخارج، لكنه كان يشعر مثل شخص أفسد حفلة، ويدرك كم كان يبدو نشازاً ببذته العسكرية، لذا اقترب من أحد مساعدي صدام وسأله إن كان الرئيس ما يزال بحاجة للضباط، فأجاب الرجل بلا، وهكذا غادروا أخيراً.

ولم يكتشفوا أبداً سبب استدعائهم إلى القصر أساساً.

ولا أحد من الحاضرين في ذلك اليوم كان باستطاعته أن يعرف إلى أين ذهب صدام بعد مغادرته، لكن هذه الصالونات الفنية المرتجلة والمفاجئة بدت بأنها كانت تهدف، جزئياً، إلى إذكاء طاقاته الإبداعية. فبعد أن يُقرِّبَ وجودُ فناني البلد الكبار صلتَه بموهبته، كان يجلس فوق أوراقه ويجرِّب حظه في تأليف أعماله الأدبية الخاصة –أعمالٌ تبدو مواضيعُها موحيةً مثل «زبيبة والملك».

تتحدث القصة الرمزية عن ملك مسجون في قصر يعجُّ بمستشارين غير مخلصين، يدبِّرون المكائد في الظلال. يتوق الملك لتواصل إنساني صادق ويجده في شخص زبيبة، وهي فلاحة صريحة تفوز بقلبه بصدقها وعاطفتها. تقول زبيبة له: «أليس الشعور بالوحشة عدواً لدوداً لمن يحكم؟ وما الذي يبدد الوحشة غير الخروج منها؟ وعندما يعلِّق الملك على كلامها بقوله: «إن الملك يحب أن يمزح مع الناس

العاديين»، تسأله زبيبة: «لماذا تحصر نفسك في قصر؟ .. كل هذا يحاصرك، من غير قصد من الحرس والخدم الذين ينفذون عليك الحصار». وبعد ذلك تقول: «إن الشياطين تفرّخ في القصور المهجورة، ومع الشيطان تكثر المؤمرات وتفرّخ حسداً، كما أن زواياه المظلمة تساعد على إخفاء كل الخناجر المبيتة بنيَّة سوء وكل السهام التي تتبربص بك يا جلالة الملك».

الفصل التاسع والعشرون
بغداد، العراق –صيف العام 2006

كان وزن صدام ينقص، وكان قلق الأميركيين يزداد. لإدراكه بأن حالته الجسدية الصحية كانت تمثِّل رافغةً من نوع ما، بدأ صدام إضراباً عن الطعام – جزئياً، احتجاجاً على ما ادّعى أنه نقص الإجراءات الأمنية المحيطة بفريق دفاعه، بعد اغتيال خميس العبيدي في بغداد؛ ثالث عضو يُقتَل من فريق دفاعه. ومع حزم المحامين المنتقين من قبل صدام لحقائبهم ومغادرتهم إلى عمّان، كان الفريق القضائي العراقي المعيَّن من قبل المحكمة مضطراً لاستلام واجبات الدفاع.

كانت نتائج إضراب صدام قد بدأت بالظهور. لم يكن متوهماً بأن احتجاجه سيؤثر على نتائج المحاكمة، لكنه كان يعرف بأن ذلك، بالحد الأدنى، سيُلقي غيمة أخرى فوق الإجراءات القضائية. وكل ذلك كان يثير قلق الأميركيين، الذين كانوا عازمين على ضمان تنفيذ المحاكمة والاحتجاز بأكبر قد ممكن من الاحترافية. حول هذا الأمر يقول وليام وايلي، المحامي الكندي المشارك في فريق الدفاع عن صدام: «[كانوا] مرعوبين من إمكانية أن يموت صدام».

سواء بضغط من صدام أو بدافع تضامني، بذل المتهمون الآخرون جهداً رمزياً على الأقل لرفض الطعام، مع أن أحد مساعدي صدام –نائبه السابق طه ياسين رمضان- سيجد مشقة خاصة في فعل ذلك. كان رمضان قد اكتسب سمعة سيئة في 2 عبر اقتراحه بأن يُحَلَّ التوتر المتنامي بين العراق والولايات المتحدة من خلال إقامة مبارزة بين صدام والرئيس جورج بوش الابن تحت إشراف الأمين العام للأمم المتحدة في حينه، كوفي عنان. على أي حال، إضافة إلى مخيّلته الكبيرة بوضوح، لقد أثبت الرجل أنه كان يملك شهية كبيرة أيضاً. لابد أنه كان يظن أن بوسعه التهام

طعامه بسرعة دون أن يراه أحد، إذ كان يتلفّت حوله خلسةً بعد تقديم صينية الطعام له من قبل حراس المحكمة، ومن ثم يبدأ بالتهام وجبته. إما أنه لم يكن مدركاً لـ، أو أنه نسي، وجود كاميرات المراقبة التلفزيونية التي كانت تغطي أحشاء مبنى المحكمة العراقية العليا المراقَبَة على مدار الساعة بواسطة مجموعة كبيرة من الموظفين الأمنيين. ومن الملفت للنظر أن صدام اكتشف الأمر أيضاً –حتى في السجن، يبدو أنه كان يعلم بكل شيء- وكما هو متوقَّع، تلقّى رمضان «توبيخاً جيداً» من رئيسه السابق، بحسب وليام وايلي.

مع ازدياد القلق من إضراب صدام عن الطعام، سأل ممثِّلٌ عن «مكتب الاتصال الخاص بجرائم النظام» –المكتب الذي أنشأه الأميركيون للمساعدة في إدارة المحاكمة- وايلي إن كان بوسعه إيجاد طريقة لحمل فريق الدفاع عن صدام على إقناع موكِّلهم بإنهاء صومه. كان وايلي يمتلك جاذبية فطرية مترافقة مع حنكة راوٍ، ولهذا فقد كان اختياراً جيداً للعب دور سفير. لم يكن أحد من فريق الدفاع راغباً بتوصيل هذه الرسالة إلى صدام، باستثناء رجل واحد -حسبما سيكتشف وايلي- وهو عميد ركن متقاعد وقور متقدِّم في السن من القضاء العسكري بدا بأنه، على نحو ملفت للنظر، لم يكن خائفاً من صدام. ولهذا السبب، وكَّله فريق الدفاع للتحدث مع صدام ومناشدته التوقف عن الإضراب.

دون إهدار أي وقت، اتصل العميد المسنّ بالرئيس السابق بواسطة محطة التواصل عن طريق الفيديو التي كانت تربط زنازين المتهمين تحت الأرض مع غرفة فوق الأرض كان محاموهم يستخدمونها. منتقياً كلماته بعناية، قال العميد: «سيدي الرئيس، نحن قلقون جداً على صحتك، لأنك لم تأكل منذ عدة أيام».

على نحو مثير للدهشة، لم يقاطعه صدام، لذا تابع العميد كلامه قائلاً: كلنا قلقون عليك، ونحن نحثُّك على استئناف الأكل، أياً كان رأيك بهذه العملية. ويجب عليك أن تفعل ما أقول ... لأنني أكبر سنّاً منك.

حبس المحامون الآخرون المجتمعون في محطة التواصل أنفاسَهم وجهّزوا أنفسهم.

وبعد لحظة صمت مشحونة بالتوتر، انفجر صدام بالضحك، وقال: حسناً،

سوف آكل.

كان العميد المسنُّ يفهم شخصية صدام، ولهذا السبب عرفَ حدسيّاً أي نوع من المقاربات يُرجَّح أن تكون مثمرة. بحسب وليام وايلي، راهن العميد بذكاء على أن الرئيس السابق كان «يبحث ربما عن طريقة تحفظ ماء الوجه لإيقاف الإضراب عن الطعام، وداعب غرور صدام من خلال التعبير في البداية عن مدى القلق الذي كانوا يشعرون به بشأن صحته، ومن ثم أَقدَمَ بجرأة على تلطيف الجو بإنهاء كلامه بنكتة». ويعتقد وايلي أيضاً أن نجاح الخطة يرجع جزئياً إلى أن ناقل الرسالة كان رجلاً عسكرياً محترماً وليس سياسياً وضيعاً.

في تلك الأثناء، كانت المرافعات الختامية في قضية الدجيل قد بدأت، وكان صدام غائباً عن المحكمة منذ بضعة أسابيع. بهدف الحفاظ على النظام، قرر القاضي بحكمة جلب كل متّهم لوحده. ومع بدء اليوم الخامس والثلاثين من محاكمة الدجيل، حان دور صدام الذي اشتكى على الفور من أنه كان مضرباً عن الطعام لمدة تقارب عشرين يوماً، وأنه كان في المستشفى في الأيام الثلاثة الأخيرة حيث غُذِّي رغماً عنه بواسطة أنبوب.

في ذلك اليوم، كان صدام بدون فريق دفاعه الدولي، الذي استأجره بمساعدة ابنته رغد، والذي اختار معظم أفراده البقاء في عمّان القريبة احتجاجاً على وضعهم الأمني. كما كانوا يشعرون بأن حضورهم كان يضفي شرعية على ما اكتشفوا أنها محاكمة غير نزيهة بطبيعتها. أما صدام فكان منذ البداية يعتبر المحاكمة صورية، وخلال جلسات وضع استراتيجية الدفاع مع فريق دفاعه، غالباً ما كان يبدو أشد اهتماماً بقصص رمزي كلارك حول العمل في البيت الأبيض في عهد الرئيس ليندون جونسون من اهتمامه بتفاصيل قضيته. ولهذا السبب، كانت المرافعة الختامية، ردّاً على التهم الناشئة من قمع الدجيل، في عهدة المحامين العراقيين البدلاء المعيّنين من قبل «مكتب الاتصال الخاص بجرائم النظام».

شرع صدام على الفور بترهيب فريق دفاعه المعيَّن من قبل المحكمة، لأنه كان يعتبرهم متواطئين في تمكين المحاكمة المزيفة، في نظره، من مواصلة عملها. تحت أنظار الحضور في القاعة ومن كان يشاهد التلفزيون من جمهوره، وجَّه صدام إصبعه مهدِّداً نحو محامي دفاعه ورمقهم بنظرة ثلجية -من النوع الذي كان من

الممكن أن يمثِّل حُكماً بالموت قبل سنوات- وقال لهم محذِّراً: «إذا حضرتهم المرافعة، فسأعتبركم عدوي الخاص وعدو الدولة. سوف تقرؤون ما كتبه الرجل الكندي [وليام وايلي]. أتحداكم، هل كتبتموها؟ لا أريد أن يُلطِّخ التاريخ بهذا الدفاع». في الحقيقة، لم يكن صدام يريد أن يقدِّم المحامون المعيَّنون من المحكمة أي نوع من الدفاع، لأنه كان يخشى من أن يضفي ذلك شرعية أكبر على المحاكمة.

تدخَّل القاضي رؤوف، بهدف قطع تهديدات صدام ومحاولته جذب الأنظار، قائلاً: «انت لا تكتب التاريخ، الشعب هو الذي يكتب التاريخ».

عندما حان أخيراً وقت تقديم المرافعة الختامية، بلغ التوتر بمحامي الدفاع المعيَّن من المحكمة درجةً جعلته يدّعي أنه مريض، فعُيِّن أحد زملائه بدلاً عنه. يمكن تلخيص جوهر مرافعة الأخير –التي ساعد في وضعها الكندي وايلي، في حقيقة الأمر- بأن الادعاء لم يقدم أية أدلة مقنعة على أن صدام أشرف على أجهزة الدول التي نفَّذت عملية القمع التي أعقبت محاولة الاغتيال الفاشلة في الدجيل. دفع المحامي بالقول إنه لم تكن هناك سلسلة أوامر أو أدلة جنائية تربط صدام بأحكام السجن اللاحقة والإعدامات المزعومة.

رغم أنه كان دفاعاً ذكياً، إلا أن الإشارة إلى عدم مسؤوليته عما فعله مرؤوسوه كان أكثر مما يمكن أن يحتمله صدام النرجسي، ما دفعه إلى مقاطعة مطالعة الدفاع بالقول: «لا يمكن أن تُقلع طائرة واحدة بدون أمري».

كان تصريحه المفاجئ كاشفاً على نحو مذهل وذا نتائج عكسية في آن واحد. في الحقيقة، لم يكن بالإمكان تبيان أولوياته بطريقة أفضل مما فعله هو نفسه -كان الدفاع عن مكانته المتخيَّلة كحاكم مطلق السلطة أشد أهمية من استغلال حجة قانونية دقيقة لدعم دفاعه.

بعد ذلك تحوَّل صدام إلى الموضوع الذي كان يضايقه حقاً: «عندما تصدر الحكم بالإعدام، يجب أن يكون رمياً بالرصاص. تذكَّر أنني عسكري ولا يجب أن أُشنَق مثل مجرم عادي». ذكَّر القاضي صدام بأن المحاكمة لم تنتهِ بعد وأن المحكمة لم تُصدر حُكمها بعد. غير أن مناقشة موضوع الإعدام المحتمَل ألهب عدوانية صدام الذي قال: «أنا متأكد بأنك تسمع أصوات الأسلحة كما نسمعها نحن، رغم أننا في

السجن. هذه أصوات الناس».

فقال له رؤوف: «أنت تحرِّض على قتل الناس بالسيارات المفخَّخة».

فردَّ عليه صدام بانفعال: «أنا أحرِّض ضد أميركا وضد الغزاة. أنا أحرِّض الناس على قتل جميع الغزاة المعتدين».

ثم قدَّم القاضي رؤوف ما يُعتبَر ربما أكثر تعليقاته إثارة للجدل في المحاكمة: «حوالي ستين عراقياً يُقتَلون يومياً، في حين يُقتَل جنديان أميركيان فقط. مَن الضحايا هنا؟»

فأجابه صدام: «أنا لا أحثُّ على القتل».

قال رؤوف: «حسناً، إذا كنت تسيطر على مجموعاتك من المجاهدين، أو أياً تكن تسمياتهم، أطلب منهم مهاجمة الأميركيين في معسكراتهم، وليس المدنيين في الشوارع؛ إنهم أبرياء».

رغم أن تعليق رؤوف يُظهر حساسية معدومة على نحو مثير للاستغراب حيال الدم الأميركي الذي أُريق من أجل جلب صدام إلى العدالة، إلا أنه يبدو منطقياً إذا ما نُظر إليه من زاوية وطني عراقي يحاول أن يُبيِّن لصدام أن المدنيين العراقيين كانوا يتحمَّلون الجزء الأعظم من المعاناة التي يسبّبها التمرُّد.

وفي الوقت نفسه، كانت دعوة صدام النارية لقتل الأميركيين متناقضة كلياً مع السلوك الأبوي للسجين، الذي أشار مرة إلى حراسه الأميركيين بأنهم أولاده.

من هو صدام الحقيقي؟ كل ما يمكن قوله بشكل قاطع هو أن سلوكه كان يتغيَّر لحظة انضمامه إلى الحراس في المصعد بعد كل ظهور له في المحكمة. سواء أكان يومه جيداً أم سيئاً في المحكمة، فإنه «يتركه في قاعة المحاكمة ... حتى لو ثار غضب صدام للتو في وجه القاضي، كان يخرج من قاعة المحاكمة ويمزح معي»، على حد تعبير المجند داوسون.

في لحظة ما، يكون صدام في قاعة المحكمة «يصرخ ويلوِّح بذراعيه ويدعو القاضي بالمخنَّث»، بحسب تعبير هتش، وفي اللحظة التالية يكون جالساً برضاً في

زنزانته تحت الأرض، «كأنه فخور بنفسه لأنه أراهم الجحيم». كان الرئيس السابق ينتقل بيسر من «وقت خوض المباراة» إلى «وقت المرح».

غالباً ما كان هتش يجلب لصدام بعضاً من رقائق *«Rain Bran Crunch»* [رقائق نخالة القمح المخلوطة مع الزبيب والمكسرات] التي كان يحبها ويشاهده وهو يستمتع بها مع الشاي. وبعد ذلك، يخلعُ، مَن كان يحرِّض ويشاكس في قاعة المحكمة منذ نصف ساعة فقط، بذَّتَه ويشعل سيجاراً وينفث دخانه لبضع دقائق قبل أن يهوي في سريره لأخذ قيلولة، «مُنهَكاً من العرض».

الفصل الثلاثون

بغداد، العراق –خريف العام 2006

إذا كان هناك يوم أو يومين فقط بين جلسات المحاكمة، كان الحراس الأميركيون يُبقون صدام في مبنى المحكمة العراقية العليا لتجنُّب تعريضه لمخاطرة غير ضرورية من خلال نقله بالمروحية ذهاباً وإياباً بين المحكمة و«الصخرة». خلال وجودهم في «السرداب»، كان السوبر اثنا عشر يركّزون على الشؤون المملة للحياة العادية أكثر من تركيزهم على دراما صناعة التاريخ المتكثِّفة في قاعة المحاكمة في الأعلى. كانوا يتقبَّلون أن مساهمتهم في المحاكمة تتمثَّل في ضمان حصول صدام على الرعاية اللائقة.

من بين مسؤولياتهم اليومية التأكد من تغذية صدام جيداً، ولهذا الغرض طوَّروا روتيناً خاصاً، مثل أي شيء آخر في الحقيقة. كان هتش يجلب طعام صدام من قاعة الطعام ويقدِّمها لزنزانته في علبة كرتونية. وكان يحرص على بقاء كل نوع من أنواع الطعام على الطبق الورقي المقسَّم إلى فراغات مختلفة منفصلاً عن الأنواع المجاورة الأخرى، مستخدما منديلاً لمسح الحواف الفاصلة فيما بينها. كان صدام يحب المأكولات البحرية أو اللحم الأحمر كمقبِّلات. وكان أحياناً لا يلمس الطعام المقدَّم له إذا لم يكن يحبه. صحيح أنه لم يكن يتذمَّر، لكنه كان عنيداً في بعض الأوقات. كان ببساطة يفتح العلبة ويتفحّصها ثم يغلقها ويدفعها بهدوء جانباً.

خلال فترة وجوده في السرداب، كان هتش، في أوقات فراغه، يحب الدخول إلى الإنترنت في غرفة وسائل الإعلام، التي كان مسموحاً للجنود استخدامها عندما تكون الحواسيب شاغرة ومتاحة. وكان يمضي معظم وقته في مراسلة زوجته وأولاده

عبر الإيميل، والتحقّق بين الحين والآخر من نتائج فريقه لونغهورنز مع اشتداد سخونة موسم كرة القدم الجامعية.

وكان يوجد أيضاً غرفة صغيرة بالقرب من السرداب، حيث كان بوسع الجنود وصل قارئ *DVD* أو *PlayStation* كوسيلة أخرى لتمضية الوقت المحدود المتاح لهم خارج نوبات الحراسة. ذات يوم، كان المجند داوسون في الربع الرابع من مباراة حامية في لعبة كرة قدم أميركية (*NFL 2K5*) عندما جاء عضو آخر من السوبر اثني عشر، الملازم جاكسون، وقال له: «كفى»، مطالباً داوسون بإيقاف لعبته وإتاحة الفرصة لجاكسون وضابط آخر برفقته لمشاهدة «برنامج أنثوي ما من نوع 'الجنس والمدينة'»، حسبما ذكر هتش لاحقاً. كان هتش منزعجاً من عجرفة الضابطين بقدر ما كان محتاراً بشأن اختيارهم للبرامج.

كونه محارب أُرسل إلى عدد من المهمات القتالية خارج البلد، بخلاف الملازم جاكسون الذي لم يشارك في أية مهمة قتالية، قفز هتش للدفاع عن داوسون، قائلاً: «لا يا سيدي، لا تجري الأمور بهذه الطريقة». كان سئماً مما اعتبره استبداداً غير ضروري من جهة الملازم، وخصوصاً لأنه «تخرَّج للتو من الجامعة ولم يكن ينبغي له أن يأمر الجنود في وقت فراغهم». في نهاية المطاف، دخل نقيب ورقيب أول إلى الغرفة لتهدئة الوضع. لم يكن هتش طرفاً في المسألة لكنه كان يرد على ما شعر أنه انتهاك للقانون غير المعلن الذي يحكم العلاقة بين الضباط الشبّان والمحنّدين. ولعل روتين تلك المهمة جعله ينزعج من حياة الجيش، التي تُحدِّد فيها الرتبة غالباً ما يمكن أو ما لا يمكن أن يفعله المرء.

عندما عادوا إلى «الصخرة»، لاحظ هتش أن الأوراق والكتب كانت تزداد بعثرةً في زنزانة صدام. رغم أن منطقة الاستراحة الخارجية كانت توفِّر للرئيس السابق مكاناً يلوذ به هرباً من زنزانته المثيرة لرهاب الأماكن المغلقة، ونوعاً من التغيير، ومزيداً من المساحة، إلا أن الجو كان من الممكن أن يكون بارداً على نحو غير مريح في الخارج مع تقاصر النهار واقتراب الشتاء. كانت هناك غرفة صغيرة شبه فارغة ما بين زنزانة صدام ومنطقة الاستراحة الخارجية. خطر في بال هتش أن بإمكانهم تنظيفها وتحويلها إلى مكتب صغير ومكان داخلي للتدخين من أجل صدام. وبهذه الطريقة يتوفر له مزيد من المساحة للقراءة والكتابة والاستمتاع بسجائره

وإدارة مراسلاته. دون طلب من أحد، بدأ هتش وتاسكر وبضعة جنود آخرين العمل على تحويل غرفة التخزين الصغيرة إلى «مكتب» للرئيس السابق.

أمضوا عصر أحد الأيام فيي إفراغ الغرفة (3×5 أمتار) من محتوياتها وتحضيرها لصدام. وأنفق هتش بضع ساعات في إزالة آثار الخدوش على الجدران. كما جلب الجنود طاولة خشبية وكرسي مكتب جلدي تُركا في مكان ما من القصر القديم، ووضعوهما في منتصف الغرفة. وعلَّقوا علماً عراقياً صغيراً خلف الطاولة لجعل الغرفة تبدو أكثر رسميةً ومناسبة لرئيس دولة.

كان هتش يتطلّع لأن يكون أول من يرافق صدام إلى المكتب الجديد الذي أعدَّوه له. بعد انتهاء الجنود من لمساتهم الأخيرة، قاد هتش صدام من زنزانته نحو منطقة الاستراحة الخارجية، لكنه انعطف في اللحظة المناسبة وفاجأ الرجل الكهل بالكشف عن مكتبه المجهَّز حديثاً. ابتسم هتش بفخر بينما كان الرئيس السابق يتأمّل ما كان موهوباً فيه.

كان صدام يعتقد أنه متجه إلى منطقة الاستراحة ولهذا السبب كان يحمل معه علبة المناديل الرطبة المملوءة بسجائره وزجاجة ماء. شرح له هتش ما فعلوه فراح صدام يتمعَّن في الغرفة، كما لو أنه كان يتفحَّصها، مجرياً تعديلات صغيرة على موقع الطاولة والكرسي ومتحققاً من ثبات الكرسي. وبينما كان يفعل ذلك، أزال هتش بسرعة بعض الغبار الباقي عن الطاولة والكرسي بواسطة منديل طفل.

تراجع صدام إلى الخلف وألقى على المكان الجديد نظرة أخيرة ثم أشرق وجهه بابتسامة عريضة.

وبعد ذلك عاد صدام ليجلب أكداس كرّاساته القانونية الصفراء من زنزانته إلى مكتبه الجديد. ثم جلس وراء الطاولة بدشداشته وسترته الغامقة وراح يفتِّش بين أوراقه. في تلك الأثناء، جلس هتش وحارس آخر قبالته –في نفس المكان الذي كان يجلس فيه من كانوا يُستدعَون لمقابلته خلال السنين الماضية. كان المشهد يبدو غير حقيقي بعض الشيء، كما لو أن صدام كان يتظاهر – طفلٌ يلعب لعبةً من نسج خياله.

كان الرئيس السابق يمضي جزءاً من كل يوم في ذلك المكتب، منهمكاً في القراءة والكتابة بطريقة تتَّسم بالعَجَلة. وكان يحمل معه مذياعه المهترئ القديم ليستمع

إلى خليطه الغريب من الموسيقا العربية والأميركية. كان يدوّن إضافات إلى مفكِّرته كي «يعرف الناس الوقائع كما هي وليس كما يريد أولئك الذين يسعون لتزييفها»، ويؤلف قصائد أيضاً.

كان الجنود يسعدون بإرضاء صدام، جزئياً لأنه كان لطيفاً معهم بالمقابل وقليلَ الطلبات على نحو مثير للاستغراب. حول هذا الأمر يقول هتش: «الجميع كانوا يجلبون أشياء له لكنه لم يكن يطلبها. دائماً ما نسمع قصصاً حول أشخاص أثرياء ومشهورين يغضبون لأن شخصاً ما لم يأخذ كل سكاكر M&M الخضراء من وعاء سكاكرهم أو شيء من هذا القبيل. إنه لم يكن كذلك أبداً. كان يُقدِّر كل ما يمتلكه. كان يعتني جيداً بثيابه وأشيائه، لأنه تربَّى على هذا النحو».

رغم أن هذا التقييم صحيح عموماً، إلا أنه يغفل بعضاً من عادات صدام صعبة الإرضاء، مثل رفض أكل «العجَّة الممزّقة» أو إصراره على أن ينهض الحارس ويغلق باب الزنزانة من أجله -بسبب خوفه من الجراثيم. كونهم مجنَّدين من الرتب الدنيا –الكثير منهم ينتمون إلى أسر من الطبقة العاملة- معظم السوبر اثني عشر كانوا يقدِّرون لرئيس دولة سابق إبداء الاحترام لهم بطريقة لم يكونوا يلقونها أحياناً من رؤوسائهم الضباط بالذات. لهذا السبب كانوا يتحمّلون بعض سلوكياته الغريبة.

لم يعرف السوبر اثنا عشر أبداً صدام القاسي، وإنما صدام السجين الكهل. وكانوا يعتقدون أنهم يفعلون الصواب بتوفير بعض الكرامة لوجوده. ذلك الصدّام الذي كانوا يجهدون لإرضائه كان رجلاً لا يمكن للعراقيين، الذين جلسوا قبالته في ظروف أخرى حين كان في السلطة، أن يتخيَّلوه.

بغداد، العراق –أواخر السبعينيات

قالت الخادمة: «الاتصال من القصر».

كانت شميم رسّام مقدِّمة أخبار مشهورة في بغداد. وبما أنه لم تكن هناك سوى قناتين تلفزيونتين فقط، فقد كانت شميم شخصية معروفة في مختلف أنحاء المدينة. لم تكن منزلتها فريدة بالنسبة لامرأة في ذلك الزمن لأن صدام كان يفخر بانتهاج سياسة

تقدُّمية فيما يتصل بالنساء في القوة العاملة، والجيش أيضاً، حيث كان يمكن لهن الارتقاء إلى مواقع تتمتّع ببعض الأهمية. بل نُقل عنه ذات مرة قوله إنه يفضِّل وجهات نظر النساء التي تتَّسم برأيه بصدق أكبر.

بيد أن أياً من ذلك لم يُطَمئِن شميم حين رفعت السمّاعة وعرفت على الفور صوت «العم» العميق المميز. كانت أشعة الشمس المتدفقة إلى داخل غرفة جلوسها المريحة والمرتّبة قد بدأت تصبح ألطف مع نهاية فترة العصر، وكانت شميم قد وصلت لتوّها من العمل عندما أجابت على المكالمة، وكانت ما تزال ترتدي ملابسها العصرية التي ظهرت بها على الهواء.

محاولةً أقصى جهدها ألا يعكس صوتها خوفاً، قالت: «مساء الخير».

قال صدام: «هل يمكنك القدوم لمقابلتي الآن؟»

بارتباك، ولكن مع الحرص على أن يبدو صوتها هادئاً قدر الإمكان، قالت: «ماذا؟»

رغم عملها كمذيعة بارزة، فقد كان من الغريب جداً أن يتصل صدام – أو «المبارك» كما كان يُدعَى أحياناً- بها في المنزل.

فقال صدام بصوته الرتيب الذي لا يكشف شيئاً من نواياه: «هذا صدام. تعالي الآن».

قبل مغادرتها المنزل حرصت على إخبار زوجها بشأن الاستدعاء الغريب فانزعج لكنه كان يدرك أنه لم يكن باستطاعتهما فعل شيء. وبينما كانت تقود سيارتها التويوتا في شوارع بغداد في وقت الذروة باتجاه القصر الذي يبعد خمسة عشرة دقيقة، راح ذهنها يعمل بسرعة محاولةً تخمين سبب استدعائها. لم تستطع إلا أن تفكر في زملائها الذين «طُردوا بدون تفسير وبدون سبب» على مرِّ السنين. كانت حالتها تشبه حالة الكثير من العراقيين الآخرين الذي تلقوا استدعاءً من صدام، إذ من المؤكد أنه عقلهم كان منهكماً حينئذ على نحو محموم في محاولة فهم سبب استدعاء الرئيس لهم. كانت محاولة معرفة طبيعة اهتمامه وكيفية الرد على أسئلته تشبه التحضير لمقابلة عمل، ولكن مع فارق أن الأداء السيئ هنا يمكن أن يفضي إلى الموت.

طمأنت شميم نفسها بالتفكير في احتمال أن يكون صدام – الذي كان يهتم بشدة في ما كان يُبَث- يريد فقط مناقشة البرامج في محطتها. استبعدت أن يكون للأمر علاقة بشقيقها وأبيها اللذين اعتُقلا بواسطة أجهزة صدام الأمنية قبل بضع سنوات، ولكن من يدري؟ بعد الإفراج عنهما، نادراً ما تحدَّثا عن أسرهما في سجن أبو غريب الفظيع، لكن صمتهما كان يشي بوضوح بأن ما حدث في المعتقَل ترك ندبة لا تُمحَى.

عند مبنى البرلمان، قادها بعض الرجال إلى مركز للزوّار، حيث فُتِّشت وأُرغمت على تسليم ممتلكاتها. كان صدام شديد الارتياب، ولهذا السبب فإن أي شخص كان يُدعَى لمقابلته كان يتوقَّع إجراءات أمنية متطفِّلة ودقيقة.

بعد ذلك قيدت إلى قاعة استقبال خارج مكتب صدام الخاص. كانت غرفة انتظار جميلة مفروشة بأرائك مريحة تحيط بطاولة قهوة. وكان يوجد بضعة أشخاص آخرين ينتظرون هناك، غير أن أياً منهم لم ينبس ببنت شفة.

بعد فترة انتظار قصيرة، أشار إليها أحد الحراس فنهضت شميم كي تدخل إلى مكتب صدام. أخبرها الحارس بأنه سيراقب محفظتها أثناء مقابلتها مع الرئيس، وأعطاها توجيهاً واحداً: لا تصافحي يد الرئيس.

لم تكن شميم بحاجة لمعرفة السبب فهي كانت تعلم بشأن خوف صدام من الجراثيم.

كانت الساعة تقارب السادسة عصراً، لكن اجتماعات كهذه لم تكن نادرة بالنسبة لصدام، الذي كان يمتلك طاقة تحمُّل مثيرة للإعجاب ومبادئ عمل قوية. حتى في تلك المرحلة من حكمه كان ما يزال يعمل من أربع عشرة إلى ست عشرة ساعة في اليوم.

أخذت شميم نفساً عميقاً، محاولةً إرغام نبض قلبها على إبطاء سرعته، ثم دخلت إلى مكتب الرئيس يتبعها الحارس الأمني. نهض صدام على مهل وبدا بأنه يتألّم مما بدا أنها إصابة حديثة في الظهر، فقالت شميم بشكل شبه غريزي: «سلامتك».

فقال صدام: «هذه لعنة أن يكون الشخص طويلاً». بقامة تبلغ 185 سنتمتراً،

وبوضعية صلبة في العلن، كان صدام ينظر من مستوى أعلى إلى معظم العراقيين. وكان هذا أمراً ذا قيمة في ثقافة قَبَلية كان الحجم فيها ما يزال في بعض الأحيان يعني الفحولة والسلطة.

بعد ذلك لفَّ حول طاولة مكتبه ومدَّ يده ليصافحها، فأحسَّت شميم بموجة ذعر تجتاحها. لقد طُلب منها عدم مصافحته، وهاهو ذا يدعوها لفعل ذلك. لاحظ صدام تردُّدها فقال: «ألن تصافحيني؟»

تمكَّنت من رسم ابتسامة مرتبكة ثم أشارت إلى الحارس الذي كان ما يزال واقفاً خلفها، وقالت: «هو أخبرني ألا أفعل». كانت يد صدام ما تزال ممدودة فتلقَّفتها وصافحتها بأكبر ما استطاعت استجماعه من ثقة. لكنها كانت مصافحةً باردة وضعيفة بالنسبة لرجل مثل صدام.

فُتح باب خلف طاولة صدام ودخل رجل يرتدي زياً رسمياً حاملاً بيده صينية عليها كأسان من الشاي. أشار صدام لشميم كي تجلس ثم عاد إلى كرسيه خلف الطاولة. كان الرجل الذي قدَّم الشاي يحمل أيضاً ملفاً كي يوقِّعه صدام، وهذا ما فعله بسرعة.

من شدة توترها وحذرها لم تكن شميم لتجرؤ على النظر إلى محيطها إلا خلسةً وعلى نحو خاطف، ولكن لم يكن بإمكانها إلا أن ترى المكتبة الضخمة المصفوفة بالكتب والمجسَّمات التزيينية التي كانت تغطي الجدار من الأرض حتى السقف خلف صدام، والعلم العراقي بجانبها. كان يوجد عدة مجلات عربية ملقاة على طاولة الرئيس غير بعيدة عن كأس الشاي القابع أمامها. وكانت تخشى أن تأخذ الرشفة الأولى، ولهذا السبب لم تلمسه.

ولعل صدام لاحظ ارتباكها، لذا رفع رأسه وقال لها: تفضَّلي.

فقالت: من بعدكم.

فأخذ رشفة وابتسم، لكنها كانت ابتسامة غريبة تفتقر إلى الدفء. تحرَّكت عضلات فمه لكن بقية وجهه بقيت ساكنة. بعد ذلك، دخل في صلب الموضوع مباشرةً: يملك والدك عقاراً في الموصل. نحن نريده. ثم شرح لها بأن الحاجة لتوسيع

مرفق حكومي في الموصل جعل من الضروري مصادرة أرض عائلتها المجاورة.

بعد ذلك سألها بشكل يكاد يكون عفوياً: كيف حال والدك، بالمناسبة؟

بدا السؤال بريئاً تماماً، لكن شميم كانت تعرف أن الإجابة عليه يمكن أن يقودها إلى حقل ألغام محتمَل، إذ لربما كان يعلم باحتجاز والدها قبل بضع سنوات. راحت تبحث عن جواب مناسب، ولكن قبل أن تتمكَّن من قول أي شيء، استبقها صدام بالقول: قولي له إننا سنأخذ الأرض. كالعادة، لم تفصح ملامح وجهه عما كان يجول في ذهنه، فعلى الرغم من أنه كان يتفحَّصها بعناية، إلا أنه لم ينظر في عينيها تماماً.

أومأت شميم برأسها دلالة على الموافقة. كل ما كانت تستطيع التفكير فيه آنذاك هو الخروج من هناك بأسرع وقت ممكن. وبعد ذلك، ودون أن يقول أية كلمة أخرى، بدأ صدام بالبحث في بعض الملفات والأوراق على مكتبه، كما لو أنها لم تعد موجودة. وهي لم تكن تعرف ما ينبغي عليها فعله. وبعد ما بدا لها أنه دهر بأكمله – مع أنه ربما لم يتجاوز الدقيقة- دخل حارس أمني وقادها إلى خارج مكتب الرئيس، فتنفَّست شميم الصعداء.

فور وصولها إلى المنزل، أخبرت زوجها بشأن اللقاء وبالخبر المتعلق بأرض عائلتها في الموصل. كانت ملامحه تُظهر غضباً، ولكن هكذا كانت الحياة في عراق صدام – حيث قول أي شيء ناقد بحق الرئيس كان يُعاقَب بالموت- عضَّ على لسانه بحكمة وقال ببساطة: «الحمد لله أن الجميع على قيد الحياة».

لم تكن شميم مستعدة بعد لإخبار والدها بما حصل لأرضه، لأنه كان ما يزال يعاني من الوهن بعد نوبة قلبية أصابته حديثاً، وفي بعض الجوانب، لم يعد والدها أبداً كما كان منذ الإفراج عنه من أبو غريب، أو بحسب تعبير شميم، كان «ما يزال عالقاً بطريقة ما في صدمة الاحتجاز، ما يزال عالقاً في عالم مختلف». مع أنها لم تكن تريد أن تزيد عليه آلامه، لكنها كانت تعرف بأنها ستضطر لإبلاغه في نهاية الأمر. وعندما فعلت، شتم بهدوء المصادرة الظالمة، لكنه أكَّد لها بأن شعوره بالارتياح لعودتها سالمة يطغى على أي شعور آخر يحسُّ به.

كانت شميم في منزلها، وهذا هو المهم.

الفصل الواحد والثلاثون
بغداد، العراق -5 تشرين الثاني 2006

كانت شوارع بغداد أشد توتراً من المعتاد مع اقتراب صدور الحكم على صدام. إنه يوم 5 تشرين الثاني 2006، بعد ما يقرب من ثلاث سنوات على اعتقال صدام. كان الضباب والرطوبة يغلِّفان المدينة مع بلوغ درجة الحرارة 40 مئوية. في السماء، بدت الغيوم الملبَّدة العابرة بأنها تنذر بما كان يوشك أن يحدث في الأسفل. كان رئيس الوزراء العراقي، نوري المالكي، قد أمر بحظر تجوال على مدار الساعة في المدينة، إضافة إلى مناطق أخرى حيث كانت الحكومة تخشى من حدوث قلاقل. وكانت القوات العراقية والأميركية معاً على أهبة الاستعداد. شقَّت مقاتلات أميركية عنان السماء على علو منخفض قبل أن تختفي في الأفق مع دوي انفجار اختراقهما جدار الصوت في شوارع المدينة. كان حضورها إشارة قوة يُقصَد بها ثني كل من كان يفكِّر في الاحتجاج العنفي. كانت المحكمة العراقية العليا، المحمية جيداً بصفة دائمة، محاطة بطوق أمني أشد إحكاماً في ذلك اليوم. وكان الجنود يقفون بيقظة على أبراج العربات المصفَّحة التي تحرس المبنى، وكانت أصابعهم تلمس بقلق أدوات الأمان على أسلحتهم.

دخل صدام حسين إلى قاعة المحاكمة بمشيته المميزة، مثل ملاكم محترف يدخل الحلبة. كانت هالته المهيبة، غير القابلة للوصف بسهولة، في أشد حالاتها ظهوراً. قِيدَ الرئيس السابق إلى مقعده الجلدي في قفص الاتهام. كان يرتدي بذة غامقة وقميصاً أبيض، وكان اللون الأسود الغامق لشعره وحاجبيه يُشكِّل تبايناً صارخاً مع لحيته الرمادية. وحدها الأكياس أسفل عينيه كانت تُظهر حقيقة أنه – في عمر التاسعة والستين وفي مواجهة حكم قاس- كان يدنو من نهاية رحلة حياة مرهقة.

متلهّفاً لبدء الجلسة، حدَّق القاضي رؤوف من خلال نظارته الكبيرة الجاثمة على أنفه الذي يشبه منقار الصقر وأمر صدام بالوقوف.

فقال له صدام: «لا، أنا أريد أن أجلس».

طلب القاضي ثانيةً بأن يقف صدام ولكن مع الإشارة هذه المرة إلى رجال الأمن لإرغامه على الوقوف.

كانت الساعة تقارب 12:30 ظهراً عندما تلا القاضي رؤوف الحكم: «قررت المحكمة الحكم على المدان صدام حسين المجيد بالإعدام شنقاً حتى الموت».

وما أن بدأت الكلمات بالخروج من فم رؤوف حتى مدَّ صدام إصبعه في الهواء وشرع في استنكار قاس: «يعيش الشعب. تعيش الأمة. يسقط العملاء. يسقط الغزاة». كان الكره في عينيه يذكِّر بما قاله رئيس وزراء أردني سابق: «كان صدام في الغالب لطيفاً ومرحاً وودياً»، ولكن كانت هناك أوقات يشعر فيها المرء بأنه «ينظر إلى عيني شيطان».

تابع القاضي رؤوف تلاوة لائحة التهم والأحكام مع مواصلة صدام احتجاجه المحموم – كل منهما كان يحاول الإطغاء على الآخر بصوته. حمل صدام قرآنه الأخضر الضخم ولوَّح به. بدا كأنه كان يستمتع بالمشهد الصاخب، بل إنه أظهر في إحدى اللحظات طيف ابتسامة سخرية ممزوجة بالسرور. لقد عرقل الإجراءات القضائية مجدداً وضمن أنه سيكون، وليس القاضي، موضع تركيز الكاميرات التلفزيونية. اختار المترجم الإنكليزي للبث أن يترجم تقريباً كل كلمة من مونولوج صدام الغاضب، تاركاً الكثير من تفاصيل حكم رؤوف دون ترجمة.

بدا الأمر كما لو أن صدام بدأ يفقد اكتراثه بينما كان القاضي يواصل قراءة الحكم الطويل، لكنه لم يكن يرغب بالتنازل عن مركز الاهتمام فتابع خطبته الانتقادية: «يسقط أصحاب الدم الخسيس. نحن أهلها. نحن مهد الإنسانية أما الغزاة فهم مجرمون. إنهم أعداء الإنسانية. العملاء أعداء الإنسانية. الله أكبر. عاش الشعب العراقي العظيم. أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا قرارات. أنتم طغاة. أنتم خدم الاحتلال. عاشت الأمة العظيمة والموت للأعداء».

بعد انتهائه من قراءة الحكم، أشار القاضي لإخراج صدام من القاعة. وبينما كان الحراس يقتربون منه لإخراجه، سُمع صدام وهو يقول لأحدهم: «لا تدفعني يا ولد».

وجدت المحكمة صدام مذنباً بجرائم القتل العمد، والإبعاد أو النقل القسري للسكان، والتعذيب، وأفعال غير إنسانية أخرى، وفقاً لأحكام القانون الجزائي العراقي وقوانين المحكمة الجنائية العراقية العليا. وكانت تهمة القتل العمد هي التي نالت حكم الموت شنقاً. كان لدى فريق الدفاع عنه ثلاثين يوماً لتقديم طلب تمييز، رغم عدم وجود ما يدعو للتفاؤل، نظراً لأن الحكومة كان يطغى عليها الشيعة الذين لم يخفوا رغبتهم بمعاقبة صدام على جرائمه.

أُعيد صدام إلى السوبر اثني عشر فور انتهاء يومه في المحكمة. حدث التسليم عند باب المصعد الذي سيُنزله إلى زنزانته في أحشاء المحكمة العراقية العليا، حيث سينتظر رحلة العودة إلى «الصخرة» على متن مروحية بلاك هوك.

لم يلاحظ المجند داوسون أي تغيير على سلوك صدام عند نزولهما في المصعد بُعيد إصدار الحكم. قال له صدام بواقعية: إنها مشيئة الله. أنا جندي، وما يريده الله يفعله.

وفي نوع من الازدراء المغرور، استخفَّ صدام بالحكم بقوله: لقد حُكم علي بالموت سابقاً، ولم يحدث ذلك أبداً.

يقول آدم روجرسون أنه حتى عندما أصبح موته شبه مؤكد، ظل صدام مقتنعاً بأنه «سيخرج، ويتزوج مجدداً، وأن كل هذا سيُلقَى خلف ظهره. كان واثقاً مائة بالمائة».

إن الصلابة التي اكتسبها الكثير من السوبر اثني عشر من خلال النشأة القاسية والتدريب العسكري – الأخيرة تنطبق على جميعهم- فضلاً عن إعجابهم بقيم القوة والشجاعة، جعلاهم يتأثَّرون برباطة جأش صدام. وفي هذا الخصوص، يقول المجند جيف برايس، الذي لم تكن نشأته قريبة من نشأة صدام بقدر بعض رفاقه، لكنه مع ذلك ظل يكنُّ له احتراماً رغماً عنه: «إنه يستحق الثناء على مواجهة الأمر كرجل. يجب أن تكون قوياً إلى حد كبير لتفعل ذلك».

كان رد الفعل المحلي والدولي على الحكم موحياً. قال الرئيس بوش: «تمثِّل محاكمة صدام حسين مَعلماً بارزاً في سياق جهود الشعب العراقي لاستبدال حكم طاغية بحكم القانون. سيسجِّل التاريخ حكم اليوم على أنه إنجاز هام على الطريق نحو إقامة مجتمع حر وعادل وموحَّد». في حين قالت جريدة «الزمان» العراقية المستقلة في عنوانها الرئيسي: «العراقيون منقسمون حول حكم إعدام صدام». كما مالت التغطية الإقليمية، على نحو متوقَّع، للانقسام طائفياً بين السنّة والشيعة، حيث استنكرت صحيفة «الشرق» القطرية الحكم واعتبرته «حكماً بالموت على العرب السنّة، يُبدِّد كل أمل في إقامة حوار بين أطياف الشعب العراقي المتنوعة». أما صحيفة «القدس» الفلسطينية اليومية، فقد تنبّأت بأن حكم الإعدام سوف «يفاقم الانقسام المجتمعي والطائفي بدلاً من الإيذان بحقبة جديدة من التفاهم بين العراقيين».

فور إعلان الحكم، دوَّت أصوات الأعيرة النارية في الأحياء الشيعية، مثل مدينة الصدر في بغداد، ورقص الناس في الشوارع، وأطلقوا أبواق السيارات فرحاً بالخبر. في حين نزل المتظاهرون السنّة في مدينة تكريت إلى الشوارع رافعين بفخر صور الزعيم السابق وصور شيوخ العشيرة، متعهّدين بغضب بالانتقام على ما اعتبروه حكماً ظالماً.

أما الرجل الذي كان في قلب تلك الدوّامة فقد حافظ على هدوئه أثناء إعادته إلى زنزانته في الصخرة. وسرعان ما استأنف روتينه المريح المتمثِّل في تدخين سجائره وسقاية نباتاته وكتاب قصائده وتبادل الأحاديث الودية مع مترجمه جوزيف والسوبر اثني عشر. لم يكن يبدو عليه أنه كان مُثقَلاً بالذنب. بالنسبة إليه، كل ما فعله كان منسجماً مع المبدأ الذي عبَّر عنه في قصته «زبيبة والملك»: «أية وسيلة مبررة إذا كانت تحقق الغاية التي تمليها مصالح السلطة والأمن».

في ذلك الحين، كان بوسع صدام العودة إلى شرنقة زنزانة سجنه، معزولاً عن الجنون الذي ساعد في توليده. سواء أكانت شجاعته الهادئة حقيقية أم مصطنَعة – وإذا كانت كذلك فإنها تُعتبَر أداء فنياً باهراً- فقد أعطى كل انطباع بأنه سيكون مستعداً إن جاءه الموت حقاً.

الفصل الثاني والثلاثون
بغداد، العراق – خريف العام 2006

كان هتش يتصفَّح مجلة «بيبول» بينما كان يحرس صدام في زنزانته في الصخرة. لقد تغيَّر الكثير منذ تلك اللقاءات المرتبكة الأولى حين كانوا يخشون الرجل داخل الزنزانة - الزعيم الذي أصبح وجهه الخبيث مرادفاً للشر. وبعد فترة من الوقت، أصبح واجب الحراسة يبدو أحياناً مثل الانتظار لقص الشعر في محل الحلاقة وتصفُّح المجلات لتمضية الوقت. وإذا كان هناك أحد يملك سبباً للقلق فهو صدام، فعلى الرغم من أن فريق دفاعه سيسرع لاستئناف الحكم الذي صدر بحقه، إلا أنه كان يعرف بلده بما يكفي ليدرك أن نجاته لن تأتي من حكومة يهيمن عليها الشيعة.

بينما كان هتش يراقب صدام، سرحت به أفكاره إلى الأيام التي كان يمضي فيها الوقت مع مسنّ آخر يدنو من موته؛ وهو جدّه المحارب القديم في سلاح البحرية. صُدم هتش عندما علم أن جده وصدام كانا يتشاركان يوم المولد نفسه؛ 28 نيسان. تذكَّر هتش غرفة الجلوس التي كان يمضي فيها الوقت مع جده في تلك الأشهر الأخيرة، قبل استسلامه للسرطان الذي يُرجَّح أنه التقطه من تنظيف العزل المحشو بمادة الأسبيستوس في الغواصات. كان هتش يجد الوقت دائماً لزيارة جده عندما كانت صحته تتدهور، رغم أنه هو نفسه كان يقبع في مكان قاس، ويسير على درب مهني متذبذب.

خطرت في ذهن هتش صورة جده عندما كان جالساً أمام التلفاز وموصولاً بأسطوانة الأوكسجين، ويشاهد واحداً من أفلام جون وين لرعاة البقر التي كان يستمتع بها. كانت إحدى الأغطية الأفغانية التي كانت تحيكها جدة هتش متدلية بعناية من فوق ظهر الكرسي. ما أن بقي الجد والحفيد لوحدهما وخرج جميع أفراد المنزل

لجلب بعض الحاجيات حتى سأل الجد حفيده بنبرة تآمرية: «هل جلبتها؟

ففال هتش وهو يُخرج علبة سجائر محظورة من جيبه ويعطيها لجده: بالتأكد. لكنني أشعر بالسوء لأنني أعطيك إياها.

فقال الجد: أوه، إلى الجحيم. كان يجب أن أموت منذ زمن طويل.

بينما كان المرض يخرِّب جسده رويداً رويداً، كان جد هتش يلازم منزله المتواضع، لكن ذهنه – مثل صدام في زنزانته- كان ما يزال يجول في رحاب ماضيه الواسع.

كان الجد يحب أن يقول لهتش مع هسيس أسطوانة الأوكسجين في الخلفية: أتعلم؟ الشيء الوحيد الذي تملكه في مثل سني هو ذكرياتك. لذا، إحرص على أن تجعلها جيدة.

خلال جلوسه ومراقبته لصدام، كانت تتسلَّل أحياناً إلى ذهن هتش واحدة من ملاحظات جدِّه الأشد رمزيةً، يقول فيها: تتضمَّن أفلام رعاة البقر دائماً أشخاصاً صالحين يرتدون قبعات بيضاء، وأشراراً يرتدون قبعات سوداء. الأشخاص المخادعون ذوو القبعات الرمادية الذين تتغيَّر ولاءاتهم دائماً هم الذين يجب أن تحذر منهم. إذا كنتَ ستتخذ خياراً، فاذهب إلى آخر مدى ممكن.

كان المعنى الضمني يشير إلى أن أولئك الذين يسكنون العالم الرمادي الضعيف هم الأقل احتراماً بين الجميع.

أحسَّ هتش بيد تمسك كتفه فاجتاحت موجةٌ من الأدرينالين جسده بسرعة البرق. اللعنة، كنتُ نائماً بعمق. كان منهكاً عند بدء نوبته أمام المنضدة الصغيرة الكائنة بجانب باب زنزانة صدام من الخارج. بقي السوبر اثنا عشر صاحين لفترة طويلة من الليل في التحضير لإعادة صدام من مبنى المحكمة العراقية العليا إلى الصخرة، قبل أن يقوموا بالرحلة أخيراً في ساعات الصباح الأولى. آخر شيء كان هتش يتذكَّره هو أنه كان يقلِّب في صفحات مجلة بيبول.

قال له صدام وهو واقف بجانبه ويضع يده الكبيرة على كتفه: أعذرني يا

صديقي. كان هتش ما يزال يحاول دفع نفسه للصحو.

ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك يا سيدي؟ كان يبذل قصارى جهده للتظاهر باليقظة، كما لو أن التيقظ المفاجئ يمكن بطريقة ما أن يخفي حقيقة أنه وُجد نائماً في نوبة حراسته بواسطة الرجل الذي كان هتش مكلَّفاً بحراسته.

حان وقت الخروج من أجل التدخين يا صديقي. كانت نبرة صوته صبورة وهادئة كأنه كان يتيح لهتش فرصة كي يصحو ذهنه تماماً.

حسناً يا سيدي، ليست هناك مشكلة.

فقال صدام: أنا مستعد عندما تكون أنت مستعداً.

أطلق هتش شتيمة خافتة بينما كان ينهض بألم. إن الأثر التراكمي لمهماته الأربع جعل ظهره يتيبَّس في وقت مبكر بالنسبة لعمره.

فقال له صدام مداعباً: «إنك تنهض مثل رجل مسن».

ابتسم هتش بينما كان يجمع مسندة الورق وجهازه اللاسلكي وزجاجة الماء والمجلة التي كان يتصفَّحها.

حالما انتهى من جمع أشيائه تنحى صدام جانباً ليفسح المجال لهتش كي يمشي أمامه المسافة القصيرة نحو منطقة الاستراحة الخارجية. كان الرئيس السابق يصرُّ دائماً على أن يمشي الحرّاس أولاً، بخلاف البروتوكول المتَّبَع. كانت هذه الطريقة مألوفة لديه من الأيام التي كان فيها في السلطة عندما كان فريقه الأمني يمشي أمامه ليحميه. ولم يكن هتش يمانع هذا الانحراف عن العرف. بل كانت هذه الطريقة مفيدة في بعض الأحيان، فقد حدث في بضع مناسبات أن امتدَّت يد صدام وأمسكت بذراعه من الخلف فجأةً ليستند عليه عندما كانا يتفاديان درجةً أو مطبّاً على الطريق.

رغم أن الرئيس السابق كان يحارب كي لا يُظهر أية إشارة ضعف خلال وجوده في قاعة المحاكمة أو على مرأى من الناس – حول هذا الأمر يقول هتش متعجِّباً: «كان يتحرَّك مثل شاب في الخامسة والعشرين في العلن»- إلا أنه كان في خفاء «الصخرة» يُظهر أحياناً علامات وجع في الورك أو الظهر، أو انتفاخ في

القدمين.

عند وصولهما إلى الخارج وضع صدام الكرسي البلاستيكي بحيث لا يكون في مواجهة شمس بغداد المعمية، ثم جلس على مهل وأشعل سيجاراً.

قال صدام من تلقاء نفسه: كنت أستمتع بالأفلام الأميركية. وهل تعلم أياً منها المفضَّلة لدي؟

أجابه هتش: لا، أيها كنتَ تفضِّل يا سيدي؟

أفلام رعاة البقر.

قال هتش مبتسماً: حقاً؟ أنا أحبها أيضاً.

ثم أضاف صدام: جون وين، رعاة البقر والهنود.

طريقة صدام في البدء بسرد قصة عشوائية بشكل مفاجئ ذكَّرت هتش بجدِّه. أدرك هتش أن «هذا ما بقي لصدام – ذكرياته- وأنا كنتُ أتيح له المجال للتحدُّث».

الفصل الثالث والثلاثون
بغداد، العراق – كانون الأول 2006

كان هواء كانون الأول البارد يضرب جدران قصر صدام السابق، الذي أصبح سجنه، آتياً من فوق البحيرة الاصطناعية. كان انخفاض درجات الحرارة إلى ما دون العشرين درجة مئوية يؤذن بدخول فصل جديد، ويذكِّر في الوقت نفسه بأن إعدام صدام المحتمل كان يقترب بسرعة، إلا في حال نجاح استئناف حكم إعدامه، الأمر الذي لم يكن يتوقعه أحد.

بينما كان آدم روجرسون يجلس مع صدام في منطقة الاستراحة الخارجية في «الصخرة»، نظر الرئيس السابق إليه وسأله: هل تريد الجلوس بجانب النار معي؟ مشيراً إلى كرسي بلاستيكي بالقرب من المدفأة الكهربائية الصغيرة التي كان يحب تسميتها «نار».

لقد نشأ روجروسون معتاداً على شتاءات كليفلاند القاسية، غير أن الهواء كان فيه بعض البرودة أيضاً، لذا قَبِل عرض صدام.

أشعل صدام واحداً من سيجاراته الكوهيبا الضخمة، وراح دخان كل نَفَس يتصاعد بتؤدة في سماء الليل. كان روجرسون يود تدخين سيجارة، ولكن لم يكن مسموحاً لهم التدخين خلال النوبة، الأمر الذي كان يؤثر بشدة على المدخنين من السوبر اثني عشر؛ روجرسون وهتش وتاسكر وبيركينز وداوسون وفلاناغان. بل إن بعضهم، مثل تاسكر، كان يُكمِّلون النيكوتين الذي يحصلون عليه من السجائر بمضغ التبغ.

كان روجرسون قد جلب معه طرداً صغيرة أرسلته له زوجته إلى منطقة الاستراحة الخارجية في تلك الليلة. كان فيه بعض الشموع التي اشترتها زوجته من وولمارت في أوهايو. كان للتوصيل البريدي طريقة غريبة في ربط حياة زوجته السلمية في الوطن بحياته في العراق، إذ كانت رؤية طابع بريدي من مدينة روجرسون تبعث في نفسه شعوراً مريحاً ومحزناً في آن واحد.

لاحظ روجرسون أن صدام كان يتمعَّن فيه بدقة بينما كان يفتح الطرد، وبدا بأنه مهتمّ بمحتوياته. فقال روجروسن: ترسل زوجتي هذه الشموع مؤخراً.

فقال صدام: أرى ذلك. ماذا تفعل بها؟

فقال روجرسون ضاحكاً: في الحقيقة، لست بحاجة إليها حقاً، ولكن أعتقد بأن بإمكاني استخدامها لجعل رائحة مكان عيشنا أفضل. تعرف كيف يكون الوضع حين ينفق الكثير من الأشخاص وقتاً طويلاً معاً. يمكن أن تكون الرائحة مقرفة.

ضحكا كلاهما.

سيستخدم روجرسون الشموع لاحقاً في إنارة وتلطيف رائحة منطقة التدخين حيث كان السوبر اثنا عشر يجلسون للاستمتاع بسجائرهم، وكانت عبارة عن منطقة مغلقة متداعية من الخشب الصفائحي بمحاذاة القصر بالقرب من بركة سباحة مهجورة كانت ذات يوم سطحاً رقراقاً من الماء الأزرق البارد قبل أن تصبح حفرة إسمنتية فارغة في الأرض.

كانت الشموع المعطَّرة تبدو غريبة في يدي الشرطي العسكري الموشوم الضخم. أعطى روجرسون واحدة لصدام كي يلقي عليها نظرة أقرب.

فسأله صدام: هل تعتقد أنه يمكنني أن آخذ واحدة؟

فأجابه روجرسون: بالتأكيد.

فقال صدام مبتسماً: شكراً لك يا صديقي. ثم أخرج قلماً وبدأ بكتابة كلمات بالعربية على الشمعة. كانت يده تتحرك بدقة شديدة. وبعد انتهائه من الكتابة، قال لروجرسون: لقد كتبتُ قصيدة لابنتي. ثم طلب منه إعطائها للصليب الأحمر من أجل

تسليمها إليها.

بعد سنوات، كانت لحظات كهذه تجعل روجروسون يعتقد بأن «صدام عاش أفضل حياة يمكن أن يعيشها في السجن، وهو كان يحبنا. أنا متيقّن بأنه إذا سقطت مروحيتنا وجاء المتمردون لإخراجه، فإنه لن يؤذينا. كانت تربطنا علاقة جيدة. لا أعتقد بأنه كان يمكن أن يؤذيني. وأعلم بأنه لم يكن ليؤذي داوسون. أعلم على نحو أكيد بأنه لم يكن ليؤذيه».

بعد بضعة أسابيع، حلَّ عيد الميلاد، وظل صدام في الصخرة، منتظراً صدور القرار بشأن استئنافه. كان الجو شديد البرودة بمقاييس بغداد حيث كانت درجة الحرارة تنزل إلى 16 درجة مئوية خلال الليل. كان هناك القليل من الزينة التي تدل على موسم الأعياد، بعيداً عن شجرة عيد الميلاد الصغيرة التي اشتراها شخص ما من مخزن الجنود ووضعها في الغرفة التي يوجد فيها ثلاث توصيلات خاصة بالكمبيوتر من أجل السوبر اثني عشر. لم يكن هناك الكثير غير ذلك مما يميِّز يوم الميلاد عن أي يوم عادي، باستثناء بضعة طرود عائلية أخرى وصلت بالبريد. كان روجرسون متلهفاً لفتح طرد كبير على نحو غير عادي احتوى ما يكفي من أكياس حبوب الإفطار «*cap›n crunch christmas*»، إضافة إلى مأكولات أخرى ومستلزمات النظافة للفرقة بأكملها.

كان المجند جيمس مارتن جالساً مع صدام في منطقة الاستراحة الخارجية بالقرب من «ناره». وكان صدام يرتدي دشداشته وفوقها معطفه السميك الداكن المفضَّل. لم يلاحظ الجنود تغييراً كبيراً على سلوك صدام في الأيام التي تلت صدور الحكم عليه. كان جالساً تحت الضوء الخارجي الوحيد، مركِّزاً بدقة على شمعة أخرى أعطاه إياها روجرسون مستقرة فوق حجره. كانت الشمعة بحجم كأس كبير تقريباً وكان صدام يكتب عليها كلمات عربية. وبعد أن عمل بجهد لبعض الوقت رفع رأسه ونظر إلى مارتن، الذي كان يحاول البقاء دافئاً في الجانب الآخر من منطقة الاستراحة.

وقال له: هذه من أجل زوجتي.

فقال مارتن بشيء من الدهشة: حقاً؟ نادراً ما كان صدام يتحدث عن زوجته،

إذ كان في العادة يحرف الحديث إلى أولاده عند التطرُّق إلى موضوع العائلة.

قال صدام: أجل، لدينا تقليد. في كل عام في عطلة الكريسمس كنا نشعل شمعة. أنا أكتب قصيدة من أجلها على هذه.

ظنَّ مارتن بأنه لمس شيئاً من الحزن في الرجل الكهل. رغم الأفكار الشهوانية المتعلقة بإيجاد امرأة أصغر عمراً قبل بضعة أسابيع، إلا أنه بدا في تلك الليلة بالذات بأنه يفتقد زوجته حقاً. لعله هو أيضاً أحسَّ بأن النهاية باتت قريبة. كانت أصوات العيارات النارية والانفجارات تُسمَع بين الحين والآخر من بعيد منذ بضعة سنوات، لكن أحدا لم يأتِ لإنقاذه، رغم تطرُّقه كثيراً إلى هذا الاحتمال. كان صدام يُبدي قوة عظيمة أمام الكاميرات في قاعة المحاكمة، لكنه في لحظات كهذه كان يبدو أكثر ضعفاً مع تحوُّل وضعيته المنتصبة الفخورة إلى وضعية رخوة.

لم يكن التزام صدام الغريب بتقليد متعلق بعيد الميلاد المرةَ الأولى التي يُظهر فيها ارتباطاً مثيراً للدهشة مع شيء متصل بالمسيحية. لقد فاجأ مؤخراً المجند جيف برايس عندما طلب منه مشاهدة فيلم «آلام المسيح». لم يسبق له أن استغلّ وجود قارئة الدي في دي التي قُدِّمت له، مفضِّلاً عليها إشغال نفسه بكتابة القصائد. لكنه كان بحاجة للتوقيع على ورقة إعفاء عن المسؤولية إذا ما أراد مشاهدة هذا الفيلم بالتحديد، بسبب محتواه المحرِّض دينياً. وقَّع صدام الورقة برحابة صدر وبعد انتهاء الفيلم عبَّر عن غضبه من معاملة الشخصيات اليهودية في الفيلم للمسيح، مؤكِّداً بأن «العراقين كانوا سيعاملونه بشكل أفضل». وبعد ذلك قال إنه أفضل فيلم شاهده في حياته، الأمر الذي وجده برايس «لطيفاً جداً».

في اليوم التالي -26 كانون الأول 2008- رُفض طلب الاستئناف من قبل القضاة العراقيين في قرار من ثماني عشرة صفحة صدر بسرعة ملفتة للنظر، وبذلك أصبح صدام على موعد شبه مؤكد مع الموت شنقاً، والذي يقتضي القانون تنفيذه خلال مدة أقصاها ثلاثين يوماً. لقد تفاجأت القيادة الأميركية بسرعة اتخاذ القرار. في ذلك الحين، كان السفير الأميركي والكثير من كبار المسؤولين الأميركيين الآخرين العاملين في بغداد يمضون إجازة فترة الأعياد في الولايات المتحدة. من المرجَّح أنهم أساؤوا تقدير الدرجة التي يمكن أن تسرِّع فيها الأحقاد الطائفية عملية مراجعة الحكم.

لم يفاجَأ السوبر اثنا عشر برفض الاستئناف. معظمهم كانوا شبه واثقين بأن صدام مذنب بالعنف المتهم بارتكابه، ولم يكونوا يتوقعون نجاته. خلال وجودهم في المحكمة العراقية العليا، تسنَّى لهم سماع الشهادات المروِّعة المتعلقة بالهجمات الكيماوية التي شنّها على الأكراد. لكنهم، مع ذلك، وجدوا صعوبة في ربط وحشية ماضي صدام بالرجل الذي كانوا يتعاملون معه بصفة يومية.

حول هذا الأمر يقول روجروسون: «عندما كنت أشاهد سير المحاكمة وما فعله بشعبه، كنتُ أُصاب بالصدمة. هناك عدد هائل من الناس القتلى. لقد قتل مدينة بأكمها. لكنني بعد ذلك كنتُ أراه، ولم أنظر إليه يوماً بطريقة 'أنت سايكوباتي معتوه'، لأن [ذلك الشخص] لم يكن معي ... كان أشبه ما يكون بجدٍّ».

في الحقيقة، سيكتب صدام قصيدة أخرى على واحدة من شموع روجرسون في عيد الميلاد ذاك من أجل السوبر اثني عشر. وقد أخبرهم بأنه يقول فيها -بحسب ترجمته- إنه يتمنى لو كان بوسعهم العودة إلى منازلهم في أميركا والاحتفال مع عائلاتهم بعيد الميلاد بدلاً من حراسته في العراق.

الفصل الرابع والثلاثون
بغداد، العراق – 30 كانون الأول 2006

كان صدام نائماً بعمق في زنزانته داخل «الصخرة». كان السوبر اثنا عشر على أهبة الاستعداد منذ بضعة أيام لعلمهم بأن الأوامر لتنفيذ الإعدام يمكن أن تأتي في أي وقت. وبينما كانوا يقومون بمهماتهم اليومية، كانوا يدركون على نحو مجرَّد بأن وقتهم مع صدام يوشك على الانتهاء، ولكن بما أنهم لم يشاركوا أبداً في إعدام من قبل، فإنهم لم يكونوا يعون تماماً ثقل الموقف. لم يكن يبدو حقيقاً أن ذلك الرجل الكهل الكاريزماتي، الذي أمضوا معه الكثير من الوقت، سيموت قريباً. كان يبدو في حالة جيدة حقاً، باستثناء ألم في الظهر وبعض العظام المتيبّسة.

يتذكَّر كريس تاسكر أن قلة منهم انزعجوا من حقيقة أن الإعدام الوشيك كان يعني أنهم سيضطرون لتفويت مشاعدة عرض المغني، كيد روك، الذي جاء لزيارة الجنود في عيد الميلاد. مع أن تاسكر تمكَّن من رؤية مغني الروك الشهير عندما خرج من قاعة الطعام للتدخين بعد العشاء ذات ليلة.

لم يعلموا بأن المهمة ستُنفَّذ إلا قبل يوم واحد من الإعدام؛ أي يوم الجمعة 29 كانون الأول. كان صدام قد انتهى لتوّه من الاستمتاع بما سيتبين أنها وجبته الأخيرة، ملتهماً بشغف أذيال سرطان البحر التي جلبها الجنود له من مطعم مقهى التحالف *(Coalition Café)* في معسكر النصر. كان صدام قد اكتسب بعض الوزن في الاحتجاز لدرجة أنه علَّق مازحاً ذات يوم بأنه أصبح «بديناً مثل أميركي».

بعد بضع ساعات، تمنَّى صدام ليلة سعيدة للمتخصِّصين آدم روجرسون وآرت بيركينز، اللذين كانا يراقبانه بهدوء من المنضدة الصغيرة خارج زنزانته. أطفأ

الحارسان ضوء صدام بعد استلقائه على سريره وحرصا على التحدُّث بصوت منخفض كي لا يزعجانه. قبل ساعات عطَّل الرقيب باتاغليا خفيةً مذياع صدام القديم الصغير ليضمن عدم سماعه توقيت إعدامه دون قصد، بما أن البرامج الإخبارية كانت قد بدأت تتحدث عن قرب إعدامه.

جلس المتخصصان خارج زنزانة صدام يتصفّحان المجلات بينما كان الرجل الكهل غافياً بعمق كالمعتاد، غير مكترث لما يمكن أن يخبئه القدر من أجله. كان الحارسان مكتئبين، ولهذا السبب لم يتطوَّع «الختيار» بيركينز للتحدث عن أي من معلوماته العامة العشوائية التي كانت تضايق وتُسلِّي بالتناوب شركاءه في النوبات الليلية الطويلة.

حوالي الساعة الثالثة صباحاً جاء الملازم جاكسون والمترجم الأميركي اللبناني الضخم جوزيف إلى زنزانة صدام. كل ما تعلَّمه جاكسون في سياق برنامج تدريب الضباط الاحتياط أو في تدريبه اللاحق ليصبح ضابطاً في الشرطة العسكرية لم يحضِّره حقاً لتلك اللحظة. أضاءا المصباح ودخلا.

أخبرا الرئيس السابق بأن تلك الليلة هي الليلة الموعودة وبأنه كان بحاجة للنهوض وبدء تحضيراته النهائية لإعدامه الذي سيُنفَّذ خلال بضع ساعات. كان يعلمان بأنه لا يحب أن يُستعجَل ولهذا السبب منحاه الوقت الكافي للاستعداد.

استقبل صدام الخبر بهدوء، وبدا تقريباً بأنه كان يترقَّبه. وقال لهما إنه حُكِم بالموت سابقاً وإن الأمر لا يزعجه.

بالنسبة لجوزيف، الذي أصبح مقرَّباً جداً من صدام خلال الأشهر الخمسة عشر التي أمضياها معاً، سيقول لاحقاً إن نقلَ ذلك الخبر كان أصعب لحظة في حياته كلها، لأنه كان حينئذ ينظر إلى علاقتهما على أنها علاقة «صداقة أكثر منها علاقة مترجم بمجرم».

كانت أمسية الجمعة في أولها في الولايات المتحدة حينئذ، وكان معظم الأميركيون يبدؤون عطلة نهاية الأسبوع ونهاية السنة ربما بعشاء في الخارج، أو بالاسترخاء على الأريكة ومشاهدة مباريات مسابقة كرة القدم الجامعية. تمنَّى هتش لو كان باستطاعته مشاهدة فريقه المحبوب لونغهورنز وهو يفوز على فريق آيوا في

بطولة ألامو. كانت أذهان معظم الأميركيين قد انحرفت مسبقاً عن العنف الذي كان يعصف في العراق، راضين بالعودة إلى إيقاعات الحياة الهانئة في أميركا التي لم يتغيَّر فيها الكثير حقاً منذ هجمات الحادي عشر من أيلول، رغم التصريحات الرنّانة بأن الأمور لن تكون كما كانت أبداً.

أبلغ ستيفين هادلي، مستشار الأمن القومي الأميركي، الرئيسَ بوش بالإعدام الوشيك قبل مغادرته العمل.

كان اختيار السلطات العراقية إعدام صدام في وقت مبكر من الصباح التالي، مع بداية عيد الفطر السعيد بالنسبة للعرب السنّة (أما الشيعة فكانوا سيحتفلون بالعيد في اليوم الذي يليه) نذير شؤم بالنسبة لمن يفهم الإسلام. بدا ذلك مثل إهانة مجانية من الحكومة الشيعية، الأمر الذي كان سيصبُّ مزيداً من الزيت على نار العداوات الطائفية المتّقدة سلفاً.

عندما تلقيا الأوامر لم يكن روجرسون واثقاً مما يمكن أن يتوقّعه، في حين كان تاسكر قلقاً من تدهور الأوضاع بصورة جنونية. فجأةً بدت أفكار صدام الخيالية بشأن الهرب من السجن أقل غرابة بقليل. في محاولة لتهدئة قلقه، ركَّز تاسكر على القيام بما تدرَّب على فعله، وهو تنظيف سلاحه والتحقُّق من محازن ذخيرته والتأكُّد من أنه مستعد قدر الإمكان في حال انفجرت الأوضاع. رغم الطبيعة الفريدة لمهمتهم، إلا أن السوبر اثني عشر لم يختبروا إلا القليل من القتال الحقيقي حتى ذلك الحين، لدرجة أن أحدهم سيقول لاحقاً بتواضع إنهم كانوا أكثر بقليل من «مجالسي أطفال *(babysitters)*».

بينما كان بقية السوبر اثني عشر يستعدون لمهمتهم الأخيرة فيما يتعلق بحماية صدام، ضحك اثنان منهم على مزحة فيما بينهما فسمعهما صدام وانزعج وسألهما إن كانا سعيدين بما يجري. كان هذا الاستياء واحداً من بضعة انحرافات قليلة عن سلوكه الهادئ والمتماسك.

طلب صدام الاستحمام، ثم بدأ الوضوء أمام مغسلة زنزانته. هناك شيء من الضعف في التعرّي أمام مجموعة من الغرباء. لقد بدا الرئيس السابق، الذي تسبَّب بالكثير من الألم والمعاناة خلال حياته، مثل أي رجل كهل آخر بينما كان يغتسل للمرة

الأخيرة. أما بالنسبة للسوبر اثني عشر، فإن إدراكهم بأنهم سيلعبون عما قريب دوراً في إعدام كائن بشري حيٍّ يتنفَّس – شخص كان دائماً طيباً معهم- كان قد بدأ ينخر في دواخلهم. لقد أمضى صدام عمراً بأكمله مخدَّراً حيال هذا النوع من التعاطف بالذات – إما بسبب نشأته الوحشية أو نتيجة العنف الذي شاب حكمه.

واصل الرئيس السابق الاستعداد بعناية لظهوره الأخير على مسرح العالم. وجد صعوبة في إيجاد الجورب المناسب، فساعده بضعة جنود في البحث بين حقائبه حتى وجده. مع أنه كان أكثر توتراً من المعتاد بقليل بينما كان يحضِّر نفسه للتوجُّه إلى موقع الإعدام، إلا أن صدام بدا، حتى حينئذ، بأنه مهتم بصدق بحالة السوبر اثني عشر، حتى أنه سألهم إن نالوا ما يكفي من النوم قبل مهمة الصباح الباكر.

قال هتش فيما بعد إن صدام أمضى بعض الوقت في القيام بجرد ذهني لمجموعة ممتلكاته الصغيرة بينما «كان جالساً هناك ينظر إلى أغراضه». كان الجندي القادم من جورجيا مصدوماً من حقيقة أنه «من بين كل ما كان يمتلكه صدام ويسيطر عليه»، لم يعد يمتلك إلا مجموعة مثيرة للشفقة من الكتب القديمة والأوراق إضافة إلى بضعة أطقم. بعد ذلك، تصفَّحَ الرئيس السابق بعضاً من المواد التي كتبها، متحققاً منها للمرة الأخيرة للتأكُّد، فيما كان يبدو، من أنه نقل أفكاره بدقة.

وبعد إنفاق بضع دقائق أخرى في البحث بين أشيائه، رفع صدام رأسه ونادى «يا صديقي»، كما كان يفعل عادة عندما يحاول جذب انتباه أحد الحرّاس، مشيراً لهتش كي يأتي.

في البداية قال هتش لنفسه: **حسناً، ماذا يريد الآن؟** ثم لاحظ أن صدام كان يحمل علبة زرقاء أعطاها لهتش من خلال القضبان. وبعد ذلك مدَّ ذراعه عبر القضبان وخلع ساعة ريموند ويل غالية الثمن التي كان يرتديها وأعطاها لهتش أيضاً.

استغرق هتش لحظة ليدرك أن صدام كان يعطيه ساعته، ولم يعرف كيف يرد. بحث عن الكلمات المناسبة ثم قال: «لا، لا أستطيع أن آخذ هذه».

فقال له صدام: «أريدك أن تأخذها – أنت صديق طيب».

كان هتش يعلم أنها الساعة الثمينة التي كان صدام يفضِّل ارتداءها في قاعة

المحاكمة. أما في الزنزانة فكان يكتفي بساعة تايميكس بسيطة. كان هتش يخشى ألا يكون مسموحاً له قبول هدية كهذه، بما أنه كان يعلم أن للجيش قواعد تحكم كل جانب من حياتهم.

قال هتش بتردُّد: «يجب أن أسأل». وهنا قال الرئيس السابق بإصرار: «خذها»، قبل أن يبتسم ويضيف: «سيكون الأمر بيني وبينك. لن أخبر أحداً».

بعد ذلك أمسك معصمَ هتش بيد وألبسه الساعة باليد الأخرى. لم يشأ هتش أن يصنع من الأمر دراما، لذا سمح للرجل المسنّ إلباسه الساعة، مبرّراً الأمر بأن قبولها سيساعد على إمضاء تلك الليلة الأخيرة بسلاسة.

ثم أخرج بعناية واحدة من أفضل بذّاته ليرتديها، كما اعتاد أن يفعل قبل مغادرته الزنزانة من أجل الظهور في العلن. وبعد ذلك وضع على نفسه الكثير من الكولونيا. حول هذا الأمر يقول أحد الجنود: «كان بوسعك أن تشم رائحته من بعد ميل».

في ذلك الحين، كان معظم السوبر اثني عشر قد تجمَّعوا بالقرب من زنزانته من أجل بدء التحرُّك نحو موقع الإعدام. كانوا يرتدون «معداتهم القتالية الكاملة»، إضافة إلى صديريات كيفلر المضادة للرصاص والخوذ المزوّدة بمناظير الرؤية الليلية. وكل واحد منهم كان يحمل مخازن ذخيرة تحوي مئات الطلقات.

عندما لاحظ جلبة الحراس المتجمِّعين بالقرب منه، أوقف صدام لوهلة تحضيراته النهائية وتوجَّه نحوهم وقال برأس شامخ وصدر بارز إن جنود الشرطة العسكرية الاثني عشر أصبحوا «عائلة بالنسبة إليه أكثر» مما اختبره في حياته مع أي عراقي. وقال إنه سيموت كجندي، وشكرهم على معاملتهم الحسنة. ثم صافحهم تعبيراً عن امتنانه.

لم يعد هناك أي داعٍ للخوف من الجراثيم.

لاحظ بضعة حراس دموعاً تنساب على وجهه.

الفصل الخامس والثلاثون
بغداد، العراق - 30 كانون الأول 2006

كان واحداً من أبرد الصباحات التي شهدها السوبر اثنا عشر في العراق، مع انخفاض درجة الحرارة إلى 15 درجة مئوية في ساعات ما قبل الفجر. بعد رحلة قصيرة بالمروحيّة فوق بغداد النائمة، تلتها رحلة سريعة أخرى على متن الراينو المصفَّحة، سلَّم الجنود المدجَّجون بالسلاح – الذين تطلَّبت مهمتهم ضمان سلامة ورفاه الرئيس السابق- صدام حسين إلى مصيره النهائي.

من سخرية القدر أن الإعدام كان سيُنفَّذ في مقر الاستخبارات العسكرية القديم، الذي يُقال إنه كان يحوي غرف تعذيب عانى فيها «أعداء الدولة» المفترَضين ألوان العذاب في ظل حكم صدام. كانت الإجراءات الأمنية مشدَّدة، مع طوق أمني محيطي أمَّنه لواء أميركي وبحر من رجال الأمن العراقيين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة المحيطة مباشرةً بموقع المشنقة. أُعطيت للأميركيين أوامر صارمة بعدم دخول الموقع، لأنها اعتُبرت عملية عراقية بحتة.

عند خروج صدام من العربة المصفَّحة الضخمة، بدا تصميمه يشتدُّ مع كل دَرَجة ينزلها، كما لو أنه كان يرغم نفسه على قبول مصيره برباطة جأش، متسلِّحاً باعتقاده الراسخ الفخور بأنه كان يموت من أجل بلده.

انتظر السوبر اثنا عشر خارج مبنى المشنقة الضعيف المشيَّد من ألواح معدنية تشبه الصفيح، والمفتوح جزئياً إلى الخارج كالحظيرة. لم يكن باستطاعة الجنود رؤية المشنقة بشكل مباشر من موقعهم، ولكن كان بوسعهم رؤية ظلال شبحية للمنصة المرتفعة والحبل المتدلّي منها.

في أثناء انتظارهم، أحسَّ هتش بالانزعاج لمعرفته بأن صدام كان يكره فكرة أن يُشنَق، أكثر حتى من الحكم عليه بالموت.

كان موفق الربيعي، مستشار الأمن القومي للعراق، هو من تسلَّم صدام، وهو من كان مسؤولاً عن إدارة عملية الإعدام. كان ذات يوم عضوا في حزب الدعوة الشيعي العراقي – نفس الحزب المسؤول عن محاولة اغتيال صدام في الدجيل، التي أثارت الرد الفظيع الذي حوكم صدام، وحُكم عليه بالموت، بسببه. قيل إن الربيعي نفسه تعرَّض للتعذيب مراراً على يد أجهزة صدام الأمنية قبل هربه إلى لندن في 1979 وبقائه في المنفى حتى 2003.

تسلَّم الربيعي صدام المكبَّل من الأميركيين وقاده إلى غرفةٍ حيث قرأ قاضٍ بصوت عال لائحة الاتهامات عليه. كان صدام يحمل قرآنه وبدا للربيعي «طبيعياً ومسترخياً». ولم يُبدِ أية علامات على الندم بينما كانت الاتهامات تُقرأ عليه.

بعد ذلك قاده الربيعي إلى المشنقة.

في تلك اللحظة حدث شيء غريب. بينما كانا يصعدان الدرجات الأولى، توقف صدام ونظر إلى المشنقة ثم نظر إلى الربيعي من الأعلى إلى الأسفل، وقال: «يا دكتور، هذه للرجال». يبدو أن صدام كان يحاول إظهار شجاعة شبه مسرحية.

بعد ذلك، قاد جلّادان مقنَّعان الرئيس السابق فوق سلسلة درجات أخرى نحو أنشوطة ضخمة وغطاء قابل للفتح في الأرضية. لم يكن الجلادان يرتديان زياً رسمياً – أحدهما كان يرتدي جاكيتاً جلدياً والآخر معطفاً قماشياً. أما صدام فكان يبدو مثل رجل دولة في معطفه الغامق وقميصه الأبيض الظاهر من تحته. كان أطول من قاتليه بعدة سنتمترات. وكانت طريقة مشيته ووقفته مثيرة للدهشة إذ حافظ على جسده منتصباً مع تعبير شبيه بتعبير رجال الأعمال على وجهه. بدا بأنه كان يستخرج ما بقي لديه من احتياطيات ذلك التصميم الصلب عديم الرحمة الذي كان يتّسم به في أيام شبابه، عندما كان يرسل العراقيين ببرود إلى حتفهم وهو ينفث دخان سيجاره دون اكتراث بينما كانت أرواحهم تُزهَق. لقد نجح في حرمان الحشد من سعادة رؤيته يرتجف، بل اتّبع إرشادات الجلادين بانصياع دون أي خوف ظاهر.

ورفض تغطية رأسه.

غالباً ما كان صدام يوجّه مرؤوسيه لـ «الثبات في المشهد الأخير»، بحسب الفريق الركن السابق رعد الحمداني. كانت فكرة بدوية مفادها أن الحياة تتضمن مشاهد عديدة، لكن المشهد الذي سيُحفَر في التاريخ هو المشهد الأخير. يتذكَّر الحمداني كيف جمع صدام، في زيارة إلى الخطوط الأمامية خلال الحرب الإيرانية العراقية، مجموعة من الجنود المنهكين الذين كانوا ما يزالون يلعقون جراحهم من هزيمة حديثة، ليقول لهم إنهم سيُذكَرون إلى الأبد إن ماتوا وهم يقاتلون بشجاعة، أياً تكن النتيجة.

كان صدام يعلم أنه سيكون مشهده الأخير؛ فرصةٌ لإصلاح صورته ومحو تلك الذكرى المخزية المتصلة بإخراجه من الحفرة مستسلماً قبل ثلاث سنوات. أما بالنسبة لهتش، فقد كان موقفه الثابت في اللحظات التي سبقت شنقه متوافقة مع طبيعته.

كونه الشخص الوحيد المرئي على المشنقة بدون قناع منحه نوعاً من الكرامة في سياق عملية فوضوية وغير محترفة. كان المشهد الكئيب برمَّته يذكِّر المرء بأن الشنق، رغم المظاهر المتمدِّنة للمحاكم العصرية مثل المحكمة العراقية العليا، يظل عقوبة جسدية مغرقة في بدائيتها. باستخدام أدوات بسيطة مثل الحبال والسقّالات، يسبِّب الشنق آثاراً كارثية على الجسد البشري، حيث يكسر الفقرات في الغالب ويمزِّق العضلات والأوعية الدموية ويؤدي إلى إخراج البول والبراز. ثمة شيء محزن على نحو خاص في الطريقة التي وضع فيها أحد الجلادين، برفق إلى حد ما، وشاحاً حول عنق صدام، كأنه يريد بذلك تفادي التسبب بإزعاج زائد في اللحظات التي تسبق انكسار الرقبة.

شقَّت صرخات «مقتدى، مقتدى، مقتدى» السكون المخيف. ثم لمعت ومضات كاميرا، مما زاد من الطبيعة الرخيصة والشبحية للمشهد. ضحك صدام وردَّ بسخرية على المضايقات الطائفية: «هل تعتبر هذه شجاعة؟»

فصاح أحدهم: «إلى جهنم».

فأجابه صدام: «جهنم يعني العراق؟»

كانت المضايقات كاشفةً من حيث الطريقة التي نُطقت فيها والكلمات التي

قيلت. يقول الضابط السابق في السي آي إيه، جون ماغواير: «إذا استمعتَ إلى الفيديو مع عراقيين، فسيقول لك الجميع إن الأشخاص في الغرفة كانوا خائفين – هناك خوف في الغرفة. لم تكن تلك أصوات انتصار – 'نحن سنقتلك أيها السافل'- بل كانت 'نحن بحاجة لقتلك الآن قبل أن يحدث شيء سيئ'».

ويضيف ماغواير: «كانوا خائفين لأن صدام لم يكن خائفاً».

الفصل السادس والثلاثون
بغداد، العراق - 30 كانون الأول 2006

كان السوبر اثنا عشر يجلسون بهدوء خارج موقع الإعدام. لقد تحوَّلت عَجَلةُ التحضيرات التي سبقت مغادرتهم «الصخرة» والتوتر المصاحب لتسليم سجينهم دون أي خلل إلى صمت غير مريح بينما كانوا ينتظرون سحب غطاء الفتحة تحت صدام وإنهاء حياته. كان بعض الجنود قد بدؤوا يشعرون بقلق غريب. لم يكونوا يدركون ذلك تماماً في حينه، لكن الفكرة بدأت تتكَّون في أذهانهم، وهي أن لعبَ دور في موت شخص توطّدت معرفتهم به مختلفٌ جذرياً عن إطلاق النار على متمرد مجهول على بعد مائتي متر.

وأخيراً، قُطعت أفكارهم الكئيبة، بعد نحو ساعة من الانتظار، بصوت سقوط مدوٍّ تردَّدَ صداه في أجسادهم. يتذكَّر هتش أنه بدا مثل انفجار قنبلة، وأن الصوت قطع أنفاسه.

كان صدّام في منتصف تلاوة الشهادتين عندما فُتحت الأرضية من تحته. سُمع صوت طقطقة انكسار رقبته داخل غرفة الإعدام. وظل جسده معلَّقاً لبضع دقائق قبل أن يصغي طبيب لنبض قلبه بواسطة سمّاعته الطبية ويعلن موته بعد بضع دقائق من الساعة السادسة صباحاً. تلا ذلك صوت إطلاق نار جعل الأميركيين يظنون لوهلة حدوث محاولة إنقاذ في اللحظة الأخيرة، غير أنه كان مجرد إظهار للفرح من قبل أعداء صدام بعد أن أصبحت اللحظة التي انتظروها مطوَّلاً حقيقة واقعية.

كان صدام الشخص الأكثر جدارة بالاحترام في تلك العملية القذرة – نصرٌ بالموت تحقَّقَ بإرادة ذاتية محضة لرجل لم تُكسبه جرائمه البربرية أي نُبل في حياته.

حتى موفق الربيعي، الذي عانى بشدة على أيدي أجهزة صدام الأمنية، كان مصدوماً من هدوء ورباطة جأش صدام عند دنوّه من نهايته.

«مجرم؟ صحيح. قاتل؟ صحيح. جزّار؟ صحيح. لكنه كان قوياً حتى النهاية».

وقف السوبر اثنا عشر بصمت بينما كان جسد صدام الملفوف بكفن أبيض يُنقَل من المشنقة ليوضَع في مؤخرة عربة همفي منتظرة. ولكن، قبل تحميل الجثة، شكَّل حشد من العراقيين المسعورين صفاً حولها وراحوا يرقصون بهياج وينشدون بفرح غامر ويبصقون عليها ويركلونها. لم يستطع المتخصص روجرسون التصديق بأنهم كانوا مضطرين للوقوف بلا حراك بينما كان العراقيون «يطلقون النار في الهواء ويصرخون ويحملون ويرفسون جسده الميت ... لقد أغضبني ذلك بشدة. لماذا كانوا يفعلون ذلك؟ كنت أراقب هذا وكان لسان حالي يقول 'لابد أنكم تمزحون معي'».

هتش أيضاً كان مصدوماً مما كان يراه، ومن الأمر الذي أُعطي لهم بعدم التدخُّل. «لقد تربّيتُ تربية قاسية. أنا لا أبكي في الجنازات، ولا أحد من الرجال في عائلتي يفعل ذلك، لكنني انفعلتُ حين رأيت ما حدث في ذلك الإعدام. كانت خيانة. لقد بذلنا أقصى جهودنا لجعل الأمر محترماً، وفي فترة قصيرة من الزمن خرَّبوا كل شيء».

بعد أن أمضوا فترة مهمتهم بأكملها في العمل على ضمان سلامة صدام وصحته ومعاملته باحترام، كان من المؤلم بالنسبة للأميركيين أن يُرغَموا على الوقوف بعجز بينما كان العراقيون يقومون بازدراء منحرف لمهمتهم الحساسة الأولى «ما بعد صدام».

وكان جوزيف، المترجم الذي أصبح مقرَّباً جداً من صدام، الأشد انزعاجاً بينهم، حيث اندفع بغضب نحو الحشد الهائج، آملاً بمنح الشخص الذي عرفه – وبخلاف كل التوقعات، أُعجب به- ذرة أخيرة من الكرامة. غير أن هتش أمسك بالرجل الضخم من الخلف من درع جسده، خوفاً مما يمكن أن يحدث في حال تغلَّب عليه الغوغائيون.

روَّجت إدارة بوش طويلاً لفكرة أن إعدام صدام سيؤذن بحقبة جديدة من

المصالحة العراقية. بيد أن هذه الحقبة الجديدة لم تدم خمس دقائق.

كان العنف الطائفي خارج موقع المشنقة يتفجَّر أيضاً في أماكن مختلفة أخرى عبر البلد. وكان لصدام حسين علاقة كبيرة بالموت العنيف في ذلك اليوم، ذلك أن جزءاً كبيراً منه كان نتيجة استهداف الشيعة من قبل مقاتلين سنَّة غاضبين. فخلال ساعات من الإعدام، قُتل خمسة عراقيين بواسطة انتحاري في تلعفر، وعُذِّب أربعة أشخاص ثم قُتلوا في المحمودية، وقُتل ستة وثلاثون وجُرح ثمانية وخمسون شخصاً في انفجار سيارة مفخّخة في سوق يعجُّ بمتسوّقي العيد في مدينة النجف الشيعية المقدسة، وقُتل ستة وثلاثون شخصاً وجُرح ثمانية وسبعون شخصاً نتيجة انفجار ثلاث سيارات مفخّخة في حي شيعي في بغداد، واكتُشفت اثنتا عشرة جثة عليها آثار تعذيب في أماكن متفرقة من العاصمة.

كانت الشمس تبدأ بالظهور عندما كان السوبر اثنا عشر في طريق عودتهم إلى «الصخرة» من موقع الإعدام. بعض الجنود لم يناموا منذ أربع وعشرين ساعة تقريباً، لذا فقد كانوا بالكاد قادرين على فتح أعينهم في أثناء اجتيازهم شوارع بغداد باتجاه المكان الذي باتوا يعتبرونه منزلهم. وعندما وصلوا أخيراً إلى الصخرة، وجدوا زنزانة صدام على حالها منذ مغادرتهم. ثيابه وأوراقه وزجاجات الماء والسجائر كانت ما تزال هناك – كل ما بقي من الرجل الذي بنى ذات يوم ثمانية وأربعين قصراً بكلفة قُدِّرت بـ 2.2 مليار دولار حسب بعض التقارير.

رتَّب السوبر اثنا عشر ممتلكات صدام الباقية كي يتمكَّنوا من جمعها وإعادتها إلى عائلته بواسطة محاميه.

في تلك الأثناء، نقلت مروحية جثمان صدام من موقع الإعدام إلى مقر إقامة رئيس الوزراء نوري المالكي في المنطقة الخضراء، كما لو كانت صيداً تذكارياً من رحلة صيد. وُضعت الجثة على أرضية المروحية التي طارت بأبواب مفتوحة لأنها كانت مكتظة ولأن الجثمان كان طويلاً بحيث لم يكن بالإمكان وضعه بطريقة أخرى. رافق موفق الربيعي الجثمان في رحلته فوق المدينة التي كان صدام يحكمها بسلطة مطلقة منذ وقت ليس بطويل. عند وصوله، كشف الربيعي الجثمان للمالكي الذي قال له: «بارك الله فيك».

لابد أن الربيعي لم ينزعج كثيراً بالحدث الشنيع الذي أشرف عليه، بما أنه طلب لاحقاً، واحتفظ بالأنشوطة التي كسرت رقبة صدام.

بعد ذلك نُقل جثمان صدام بالمروحية إلى تكريت، أرض أجداده، وسُلِّم إلى الشيخ علي الندا، زعيم عشير البوناصر (الذي سيُغتال هو أيضاً بعد سنتين). دُفن الرئيس السابق في عتمة الليل بالقرب من ولديه عدي وقصي، اللذين قُتلا في اشتباك مع جنود أميركيين قبل بضع سنوات. لعل صدام الشاعر كان سيقدِّر ذلك التناظر الدراماتيكي. لقد وُلد صدام بالقرب من تكريت فقيراً لا يملك شيئاً، وبفضل تسلُّحه بطموح شرس وقساوة لا تعرف الشفقة ودهاء شديد، راكم سلطة لا مثيل لها. وبعد عقود، جُرِّد من كل شيء، وتحوَّل إلى هارب يلاحقه أقوى جيش في العالم ولجأ إلى حظيرة قذرة قبل أن يُكتشَف في حفرة صغيرة تحت الأرض. ومن ثم عاد إلى موطنه للمرة الأخيرة، تاركاً وراءه أثراً عمره عقوداً من الدماء والحزن نتيجة عطش لا يرتوي للسلطة.

في واشنطن، أملَ السياسيون والدبلوماسيون بأن يشكِّل إعدام صدام مرحلة جديدة أكثر مسالمةً في تاريخ العراق. ورغم أن الرئيس بوش اعترف بأن الإعدام لن ينهي العنف في العراق، إلا أنه قال إنه سيمثِّل «محطة هامة في مسار العراق ليصبح دولة ديمقراطية قادرة على أن تحكم وتحافظ على، وتدافع عن نفسها، وتكون حليفة في الحرب على الإرهاب». وقال الناطق باسم البيت الأبيض، ديفيد أولماسي، إنه في صباح الإعدام «استيقظ الرئيس بوش قبل الخامسة صباحاً بقليل بحسب التوقيت المركزي (Central Time) وبعد ساعة أجرى اتصالاً دام عشر دقائق مع مستشار الأمن القومي ستيفين هادلي لمناقشة رد فعل العالم على الإعدام».

وبعد ذلك قال أولماسي إن الرئيس تلقى إيجازه الاستخباري اليومي و«خطط لإمضاء بقية اليوم في قطع خشب السيدار في مزرعته، والذهاب في جولة على الدراجة الهوائية وتمضية الوقت مع السيدة الأولى لورا بوش، والتفكير في خطواته التالية في العراق».

لكن الجنود الذين نفّذوا بنجاح رغبات الرئيس لن يمضوا الوقت مع عائلاتهم في أي وقت قريب. كانوا ما يزالون في منطقة حرب، وسيبقون فيها لأشهر، يعملون سبعة أيام في الأسبوع في ظروف خطرة، دون أن يتمكَّن بعضهم من نسيان ذلك

الصباح البارد في آخر شهر كانون الأول. رغم أنهم لم يشكّوا أبداً في عدالة الحكم الذي ناله صدام، إلا أنهم شعروا بالاشمئزاز من بشاعة موت الرجل المسن.

يقول المتخصص آدم روجرسون: «لم يصدمنا الأمر حقاً إلا بعد أن أُتيح لنا الوقت لإبعاد أنفسنا. ولكن، عندما يستقر الغبار، وتكون مستلقياً على سريرك في الليل، يسرح ذهنك بعيداً وتفكر، هل فعلتُ ذلك حقاً؟ لقد أصبحنا مقرَّبين جداً منه ...» هنا خفتَ صوته لدرجة أنه بالكاد كان مسموعاً حين قال: «أشعر أنني خذلته».

كان الإعدام هو المرة الأولى التي يواجه فيها الشاب تكر داوسون الموت عن قرب. لقد عانى من التأقلم مع حقيقة أن ذلك الرجل – الذي توطّدت معرفته به- قد مشى منذ فترة وجيزة إلى المبنى تحت سلطته وخرج منه في كيس جثث. «كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها شخصاً يموت. في ذلك الحين، حاول أحد الضباط غير المفوَّضين الأكثر تمرُّساً إراحةَ ذهنه المضطرب بالقول: «إنه جزء من الحياة. انظروا إلى ما فعله الرجل. ذلك هو عقابه. لقد تعامل معه. انتهى الأمر. كانت مهمة».

مع ذلك، لم يستطع داوسون محو ذكريات فترات العصر التي أمضاها مع صدام في منطقة الاستراحة الخارجية. كان يتذكَّر الرجل الكهل عندما كان يناديه ليسأله عن حبيبته في الوطن.

بعد أشهر، قال المترجم جوزيف ببساطة: «هل سأفتقد صدام القاسي؟ بالطبع لا. ولكن، هل سأفتقد الجلوس في المساء معه كإنسان؟ أجل، سأفتقد ذلك؟»

عندما أُرسل هتش إلى العراق في 2006، لعله بدا مرشحاً غير محتمَل ليكون عضواً في السوبر اثني عشر، لكنه قد يكون أكثرهم تأثُّراً بما حدث خلال عملية الإعدام وبعدها. بعد أشهر من الحدث، فكَّر في الوقوف أمام الله في يوم الحساب فشعر بالقلق بشأن تفسير سبب عدم محاولته فرض النظام في ذلك الصباح. قال هتش إن مشاهدة العراقيين يبصقون على صدام كان يساوي «البصق على خدمتي العسكرية». عندما عاد إلى الوطن بعد عدة أيام من الإعدام، كان ما يزال يشعر بالاشمئزاز والخزي مما حدث لدرجة أنه لم يشعر بالتطهُّر إلا عندما خلع زيه العسكري.

قال هتش لاحقاً: «أشعر بأنني مضطر لشرح سبب انزعاجي كثيراً مما حدث. أن نقف جانباً هناك وندعهم يعاملون كائناً بشرياً بتلك الطريقة – كنت أعتقد أننا موجودون هنا لنمنع مثل تلك المعاملة. أحسستُ حقاً أنني كنت مذنباً بقدر أي شخص آخر. لم أشعر أبداً بوخز الضمير حيال كل ما فعلتُه هنا. فيما يتعلق بالإنسانية، لقد رأيتُ أشياء سيئة جداً، ولكن هذا ما كان يجب علي فعله، هذا ما كان مطلوباً مني، كان عملي. لكن عملي لم يقل أبداً من قبل أنني مضطر للوقوف هناك ومشاهدة أشخاص يبصقون ويركلون جثة شخص. وهل تعلم؟ أنا مسرور لأني أشعر بهذه الطريقة، أنا مسرور حقاً. لأنني لو لم أكن أشعر بذلك، لاعتقدتُ بأنني أعاني من خطب ما».

بعد الالتحاق بالجيش بعد الحادي عشر من أيلول مباشرةً، والخدمة بشرف لمدة ست سنوات وفي أربع مهمات خارج الوطن، قرر هتش ترك الجيش في اليوم الذي أُعدم فيه صدام.

خاتمة

رأيتُ جثث رجال سقطوا في المعارك، عدد لا يُحصى منها،

ورأيت الهياكل العظمية البيضاء لشبّان صغار، أجل رأيتها،

رأيت بقايا وبقايا الجنود المذبوحين في الحرب،

لكنني رأيت أنهم ليسوا كما نعتقد،

هم أنفسهم كانوا راقدين بسلام، دون معاناة،

الأحياء، الذين بقوا، هم من كانوا يعانون.

– وولت وايتمان، «عندما أزهرت أشجار الليلك

آخر مرة في الحديقة الأمامية».

الفصل السابع والثلاثون

كان انتقال الجنود من كونهم السوبر اثني عشر، المرتبطين معاً بـ «مهمة العمر»، إلى «الاثني عشر العاديين»، على حد تعبير المتخصص روجرسون -مع مسحة من الحنين الحلو والمر في آن واحد- قد بدأ. ولكن، سيكتشف بعضهم مع مرور الوقت أن الانتقال إلى الحياة «العادية» كانت أصعب مما توقعوا. كما أثَّر صدام على حياة العراقيين بطرق لا يمكن محوها – بالنسبة للأشخاص الذي نجوا من حكمه، ليس هناك قدر من الوقت قادراً على محوها- لقد أثَّر أيضاً على حياة مجموعة صغيرة من الأميركيين بطرق ستدوم حتى آخر العمر.

كريس تاسكر

بعد شهرين من إعدام صدام، وفي يوم بارد وكئيب، صادف عيد القديس باتريك، جاءت صديقة كريس تاسكر، أماندا، لتقلَّ كريس من مطار هوبكنز الدولي في كليفلاند. كانت تلك نهاية رحلة طويلة من بغداد في إجازة مدتها أسبوعين. لكن الساعات انقضت بسرعة في التفكير بكل الأشياء الأولى التي سيختبرها كريس عند وصوله إلى الوطن – أول مشروب، على أمل أن يكون ويسكي بلاك جاك مع كوكاكولا، أول قبلة مع أماندا، أول زيارة إلى مطعم هوت دوغ هيفين وسوق ويست سايد ماركت، حيث سيطلب ساندويتش سجق مع التوابل (ربما سيذهب إلى كلا المكانين في اليوم نفسه).

في وقت سابق من ذلك اليوم أرسلت أماندا رسالة نصّية إلى والديّ تاسكر تقول فيها إنها ستمرُّ لتلقي عليهما التحية، منفِّذةً الجزء الأول من خطة كريس التي كانت تقتضي إيصالها إلى هناك قبل دخوله وبدون إثارة انتباههما. كان يحب دائماً

مفاجأة والديه بحيَل مضحكة، وكان يأمل بأن يكون الظهور على عتبة بابهما دون علم مسبق – في وقت يعتقدان فيه أنه في بغداد على بعد آلاف الأميال- أفضل حيَله على الإطلاق. كانت فكرة جيدة، لكن رسالة أماندا زرعت بذرة في ذهن والد كريس، ستيف -رئيس مجموعة في شركة جنرال موتورز، كان قد أمضى الكثير من طفولة كريس في العمل لساعات إضافية طويلة من أجل تأمين عيش كريم لعائلته. أملَ ستيف أن يكون ابنه يريد مفاجأتهما؛ وإلا لماذا ستأتي أماندا؟ كان يعلم بأنها لا تحب لحم البقر المحفوظ الذي يعدِّه دائماً في يوم القديس باتريك. لهذا السبب، حضَّر ستيف خفيةً كمية إضافية في حال جاء كريس بالفعل.

بعد فترة قصيرة، طلب كريس من أماندا أن تنزله عند نهاية شارعه كي يمشي المسافة الباقية على قدميه، وأرسل أماندا لوحدها إلى منزله.

عند وصول أماندا، حيَّت والد كريس وشقيقه بفرح، لكن كلب العائلة، بيبر – كلب مهجَّن من نوع كلاب الراعي الألمانية- بدأ ينبح بقوة بعد ذلك. هرع الأب والشقيق إلى النافذة ليعرفا ما الذي تسبَّب بهذا الهياج فشاهدا شخصاً طويل القامة يرتدي بذة عسكرية يقترب من المنزل. إنه كريس. عندما وطأت قدم كريس غرفة الاستقبال رأى أمه تنزل على السلَّم.

تسمَّرت في مكانها وبكت.

بينما كان الجميع متجمّعين في غرفة الطعام ومستعدين لتناول اللحم المحفوظ الذي أعدَّه ستيف تاسكر احتفالاً بعيد القديس باتريك، أظهروا فضولاً متحمّساً لمعرفة ما شهده كريس في العراق. سأله ستيف: ماذا تفعل هناك؟

كان كريس سعيداً لرؤية الجميع، لكنه لم يكن يرغب في التحدث عن مهمته. ولكن، في نهاية المطاف، وبعد التملُّص من عدة أسئلة أخرى، قال كريس: هل تذكرون أنني كنت أقول لكم إنني أقوم بمهمات الحراسة فقط؟ بدا الأمر مملاً نوعاً ما، صحيح؟

هزّوا برؤوسهم دلالةً على الموافقة.

في الحقيقة، كنت أحرس صدام حسين.

خيَّم الصمت على الجميع.

ثم سألته أمه: هل تعني صدام صدام، زعيم العراق؟

أجل، صدام، الرجل الكبير.

مستحيل!

لاحظ كريس أن الجميع حول الطاولة كانوا يجدون صعوبة في استيعاب ما قاله. لذا أضاف قائلاً على الفور: لا يُفترَض بي أن أتحدث حول الأمر، ولا أرغب في ذلك أيضاً، لكنني اعتقدتُ بأنكم يجب أن تعلموا.

كيف كان صدام؟

في الحقيقة، لم يكن رجلاً سيئاً – معنا على الأقل. أعني، لقد لعب الشطرنج معنا، وأحياناً كان يدعونا لتدخين سيجار معه. حتى أنه كان مرحاً نوعاً ما. كان دائماً يقول مازحاً إنه سيصبح «قوياً مثل غزال» على دراجة التمرين كي يتمكّن من الهرب.

فقالوا: غير ممكن.

ثم حكى كريس بضع قصص أخرى من النوع الذي يروق للسامعين، لكنه حتى عندما كان يفعل ذلك أدرك أنهم لم يكونوا يدركون تماماً العالم السريالي الذي جاء منه.

أحسَّ بالراحة لكسر الصمت الذي فرضته مهمته عليه، لكن الصعوبة التي وجدها في وصف طبيعة علاقته بصدام، وردود عائلته، جعلتاه يختم حديثه بالقول إن أحدا لن يفهم حقاً كيف كان الوضع.

سيكمل تاسكر بقية مهمته مع السوبر اثني عشر ويترك الجيش في 2008، مع انتهاء عقده. ولأنه لم يكن يعرف ماذا سيفعل بعد ذلك، عاد إلى منزله في أميرست.

كان والداه مرتاحين لعودته إلى المنزل وابتعاده عن الأذى. لكنهما بدآ يكتشفان أن ابنهما تغيَّر في بعض الجوانب. لم يكونا يعرفان متى حدث التغيير أو الشيء الذي تسبَّب به، بل لم يكونا قادرين بسهولة على وضع إصبعهما بالضبط على الأشياء التي تغيَّرت فيه. حول هذا الأمر، قالت أمه بشرود: كان كريس طفلاً لطيفاً، ولكن هناك أوقات الآن لا يكون فيها لطيفاً جداً. ولاحظ أفراد آخرون من العائلة إنه كان يشرب بكثرة، إضافة إلى بعض الهمس حول وجود سلوكيات أخرى مثيرة للقلق. لقد استُبدلت مخاوف والديه من سماع طرق مدمِّر على الباب من مسؤولي الإبلاغ عن إصابات الجيش بمخاوف تتعلق بتلقي اتصالاً من الشرطة أو الإسعاف المحليين.

في هذه الأيام، يقول كريس إنه يستمتع بوجوده في المنزل وعودته إلى حياة البلدة الصغيرة في أوهايو مع أصدقائه القدامى. إنه يحب البقاء على تواصل قريب مع فريقي كرة القدم، براونز وكافالييرز. ومع أنه حصل على شهادة طيّار كانت مصدر فخر لعائلته، لكنه لم يستطع حتى الآن الحصول على عمل منتظم رغم مرور عدة سنوات على ذلك. ولا يستطيع والده فهم السبب في ذلك، فبالنسبة إليه، لطالما كان كريس شاباً ذكياً، قادراً على تحقيق أي شيء يضعه نصب عينيه.

رغم أن كريس نادراً ما يحدِّث والده عن العراق، إلا أن ستيف يتذكَّر شيئاً ملفتاً أخبره به ذات يوم، وهو أن صدام قال له عند اقتراب موعد إعدامه: أنا أسامحكم لأنكم تقومون بعملكم.

بالنسبة لكريس، كان من الأسهل بما لا يُقاس لو أن صدام تصرَّف بطريقة أكثر انسجاماً مع شخصية الطاغية القاتل الذي توقعوا مقابلته.

بول سفار

بعد بضع سنوات من إعدام صدام، لم يعد بول سفار حارساً، بل سجيناً وأصبح سجن هيز كاونتي في وسط تكساس منزله الجديد. لم يعد مسؤولاً عن السجين الأشهر في العالم في القصر الذي تحوَّل إلى سجن، بل أصبح هو نفسه السجين، ووجد نفسه، مثل صدام، مرغماً على التأقلم مع روتين جديد لم يكن يتحكَّم به إلا في جوانب قليلة.

خلال وجوده في الجيش عانى سفار من وزنه ومن الحياة العسكرية الصارمة، لكنه مع ذلك كان فخوراً بخدمته العسكرية. بيد أن ذلك الافتخاز تبدَّد بعد عودته إلى الوطن، مع سقوطه في شرك الكحول والمخدرات. شُخِّصت إصابته باكتئاب ما بعد الصدمة (PTSD)، مع إدمان على المسكِّنات التي وُصفت له في البداية من أجل معالجة ألم مزمن من إصابات في الساق والكاحل. حول تلك الفترة يقول سفار إنه «اختفى من وجه الأرض لبعض الوقت»، معترفاً بأنه «ذهب بعيداً جداً» قبل أن يحط رحاله في سجن هيز كاونتي بسبب تحرير شيكات بدون رصيد من أجل تمويل إدمانه على المخدرات.

كان يمضي الفترات الصباحية في ساحة السجن المشتركة -عادةً في مشاهدة البرنامج التلفزيوني (ظواهر خارقة للطبيعة)- وبعد ذلك فترة التمرين، ثم لعب الورق، وبعدها قيلولة، ومن ثم مشاهدة التلفزيون مجدداً مع نزلاء آخرين – ربما مسلسل *SCI* أو *Hawaii Five-0*. كان هناك إيقاع روتيني لأيامه، مثلما كان الحال في بغداد.

أدرك أنه كان يعاني من مشكلة للمرة الأولى عندما أحسَّ بنوبة ذعر ساحقة بينما كان يقود سيارة F-250 في تكساس خلال عمله في تبديل اللافتات الطرقية لصالح قسم الطرق العامة في الولاية. لم يعلم بالضبط ما الذي أثار تلك النوبة، لكنه اشتبه في أن مساعدته على «سَوق رجل كهل إلى موته» في العراق قد تكون عاملاً مساعداً.

لم يكن فقط يشعر بالخزي بسبب إعدام رجل مسن استمتعَ بصحبته مع مرور الأيام، بل إنه عندما حاول أخيراً أن يشرح للناس ما حصل، وجد أن القليل منهم صدَّقوه في البداية، بمن فيهم والدته. وحتى أولئك الذين صدّقوه، كان معظمهم غير ميّال للتعاطف مع شخص يخجل من الدور الذي لعبه في إنهاء حياة أحد أسوأ الطغاة في القرن العشرين.

كان هاوي ألعاب الكمبيوتر المليء بالوشوم في الحضيض عندما وجد إلهاماً في مكان لا يخطر في البال. بينما كان سفار يعدُّ الساعات في زنزانة سجنه التكساسي، أدرك – على نحو غريزي- أنه يحس بتقدير جديد لما مرَّ به الرئيس

العراقي السابق. يقول سفار: «يمكن أن تكون على قمة جبل في لحظة معينة، وفي اليوم التالي قد تكون، مثلاً، الشخص الأسوأ على الكوكب. رأيتُ صدام على هذا النحو؛ قوة لا تُقهَر ينحدر به المقام ويصبح تحت سلطة شاب في التاسعة عشرة من عمره يتحكَّم به طوال اليوم. لقد اختبرتُ ذلك قليلاً، بدوري. ذات يوم كنتُ جندياً موكَلاً بتلك المهمة الحساسة وفي اليوم التالي كنت أتعارك مع مراهق في السجن لأنه يظن أنني سرقت حساءه».

بينما كان جالساً في منطقة الاستراحة في السجن، محدِّقاً بشرود في محطة CW، وجد سفار نفسه يفكر في قدرة صدام ليس فقط على تحمُّل فقدانه للسلطة، وإنما في قدرته على إيجاد المتعة حتى في ظروفه الوضيعة. ولهذا السبب، جهد سفار على استجماع تصميم مشابه لتصميم صدام من أجل تجاوز الأشهر التسعة التي سيمضيها في السجن.

نجح سفار أخيراً في اجتياز مدة سجنه وأُطلق سراحه. لكن الشعور بالضياع عاد إليه عند خروجه من السجن إلى شمس تكساس القاسية. لم تكن لديه شبكة دعم لتساعده في التغلُّب على اكتئاب ما بعد الصدمة وإدمانه. وبعد فترة قصيرة، وجد نفسه مشرّداً يعيش تحت الجسور في أوستن، التابعة لولاية تكساس.

كانت الحياة صعبة لبعض الوقت، لكنه وجد أخيراً مساعدةً من معالج نفسي يعمل مع إدارة المحاربين القدامى، وهو يجد اليوم درجة من التوازن في العمل كنادل في مطعم لوغان رودهاوس على مقربة من الطريق السريع I-35 في تكساس. لقد تغلَّب على إدمانه على الكحول والمخدرات. لكن ذهنه ما زال يعود به أحياناً إلى الأيام، غير البعيدة، التي كان يحرس فيها صدام حسين. لم يعد يستيقظ كل يوم للعمل في قصر في بغداد، لكن موقع عمله كان يطل على موتيل لونغ جون سيلفرز وحديقة مكاتب تضم مركزاً للتجنيد في القوات المسلحة، حيث سيعبر الجيل الذي يلي بول سفار بوابةً نحو عالم آخر.

روبرت «دوك» إليس

رغم أنه لم يكن جزءاً من السوبر اثني عشر، إلا أن روبرت «دوك» إليس كان أحد أقرب الأميركيين إلى صدام حسين خلال سجنه. عندما عاد إلى منزله

المتواضع الذي كان يتشاركه مع زوجته، ريتا، في سانت لويس بعد انتهاء مهمته، أدرك أن كليهما كانا بحاجة لعطلة. لذا قرر استخدام «نقود مهمته» لأخذها في رحلة بحرية بين الجزر الكاريبية توقفوا خلالها في كايمانز وجامايكا وكونزوميل.

رغم المناظر الخلابة للمحيط، إلا أن جزءاً من ذهن إليس كان ما يزال حبيس العراق، وخصوصاً في المساء، حين كانت تعود إليه ذكريات تدخين السيجار مع صدام. كان يفتقد الرجل إلى حد ما.

لكنه كان وحيداً مع هذه المشاعر المتناقضة، التي لم يكن يتوقّع من زملائه في الرحلة البحرية من أميركا الوسطى بقمصانهم الهاوائية (نسبةً لهاواي) أن يفهموها. وللترفيه عن نفسه، أوعز لنفسه مهمة جديدة عند توقف السفينة لفترة وجيزة في جزر كايمان. كان بحاجة إلى سيجار جيد، لذا بحث عنه في نسخة الجزيرة من «سوق الحجي»، ووجده في نهاية المطاف. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، وبينما كان جالساً باسترخاء على سطح السفينة، أخرج سيجار كوهيبا وراح يستنشق دخانه وينفثه برضى، وهو يحدِّق بعينين نصف مغمضتين في شمس المغيب شارداً مع ذكرياته.

لسوء الحظ، لم تكن الإيقاعات اليومية السعيدة لرحلته البحرية تنبئ بالحياة التي سيعيشها إليس بعد فترة وجيزة، حيث سيكتشف إصابته بسرطان متفشٍّ ويجد نفسه مُقحَماً في حرب لا تقل خطورة عن تلك التي خلَّفها وراءه. لقد تركه علاجه الكيماوي أصلع وهزيلاً وضعيفاً، ومما زاد في اكتئابه انزعاجه المتزايد من ذكريات خدمته العسكرية. لقد أحسَّ بأن مهمته في العراق – بل المشروع الأميركي برمّته هناك- كانت «مضيعة هائلة للوقت والمال والطاقة والأرواح».

«لقد قمتُ بعملي، لكنه كان أمراً قذراً. إنه لمن المفجع أن ترى ما يحدث هناك الآن. لم يكن ليحدث ذلك أبداً تحت سلطة صدام».

منزوياً في المنزل المتواضع الذي كان يتشاركه مع زوجته في الضواحي، كان إليس على بعد عوالم من المشاريع السكنية التي نشأ فيها وكذلك زنزانة السجن البغدادية التي أمضى فيها ساعات كثيرة برفقة صدام، لكن الحياة لم تكن أسهل بالنسبة إليه. في البداية، أحسَّ بالحيرة بسبب شعوره «بالبرود الشديد والبعد»،

والانزعاج من عاطفة زوجته. لكنه عزا الأمر إلى حاجته لبعض الوقت «ليستعيد توازنه».

غير أن ذلك لم يحدث، فقد وجد نفسه واقعاً أسير مشاعر ندم مضاعفة؛ ندم لعدم وجوده في المنزل في الأيام الأخيرة من حياة أمه وشقيقه، إضافة إلى شعور بالمشاركة في موت رجل استمتع بصحبته.

حول هذا الأمر يقول: «أعلم أنه يجب علي أن أكره صدام، لكن الأمر ليس سهلاً».

أحسَّ إليس ببعد أكبر عن زوجته ريتا مما كان يشعر به عندما كانت تفرّق بينهما آلاف الأميال، وعندما كانا يتبادلان رسائل حب تقليدية. وبدأت تنتابه «أفكار انتحارية، وأفكار قتل، واضطرابات في النوم».

لكن إليس كان يتمتع بالقوة وعزة النفس، ولم يكن مستعداً للاستسلام لليأس. وبينما كان يحارب لاستعادة شيء من السعادة وجد نفسه متعجّباً مرة أخرى من قدرة صدام على الانتقال بيسر من «الشراشف الحريرية إلى سرير عسكري قابل للطي»، ومن قدرته على إيجاد الرضا في زنزانة سجن من خلال مزج محتويات مغلّفات قهوة فولغرز قديمة في الماء بإصبعه. وبسبب هذه الذكريات، ظل إليس يأخذ خفيةً بضع سحبات من سيجار كوهيبا من حين لآخر، محاولاً استمداد السعادة من أبسط متع الحياة.

احتفظ إليس بالقصيدة التي كتبها صدام لزوجته ريتا داخل ألبوم صور؛ القصيدة التي شبَّه جمالها فيها بـ «النجوم والقمر في السماء».

لقد حلم دائماً بالعودة إلى العراق ذات يوم وزيارة المنطقة الجبلية الشمالية التي وصف له صدام جمالها مراراً. كان إليس ينتظر أن «تستقر الأمور» بما يكفي ليقوم بذلك، بيد أنه لن يحظى بهذه الفرصة.

بعد خوض معركة شجاعة، استسلم إليس لسرطانه في 21 آذار 2016، في عمر السادسة والستين.

رود ميدلتون

في ليلة 29 كانون الأول 2006، اقترب عميل الإف بي آي، رود ميدلتون، وابنه البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، من البار في حانة فوكس آند هاوند في تكسون التابعة لأريزونا. لابد أنهما كانا يبدوان ثنائياً غريباً. في تلك الأثناء، على بعد آلاف الأميال إلى الشرق، ومع شروق الشمس فوق بغداد في صباح يوم السبت، كان السوبر اثنا عشر قد سلَّموا صدام إلى المشنقة من أجل إعدامه. وقد أراد ميدلتون الخروج من المنزل وفعل شيء ما احتفالاً بالمناسبة، ولهذا السبب اتصل بعدد من أصدقائه ليرى إن كانوا يريدون المجيء وتناول مشروب برفقته. لكنهم كانوا مشغولين جميعهم، لذا توجَّه هو وابنه إلى البار وطلب من الساقي تغيير المحطة على إحدى شاشات التلفزيون من مباراة كرة قدم إلى السي إن إن ليطّلع على الأخبار العاجلة.

عندما كان يشاهد السي إن إن، كانت هناك مشاعر متضاربة تعتمل في داخله، لكن التعاطف مع صدام لم يكن ضمنها. بينما كان السوبر اثنا عشر واقفين بالقرب من موقع الإعدام في ذلك الصباح البارد في بغداد يصارعون فكرة أنهم سلَّموا للتو رجلاً كهلاً لطيفاً إلى موته، كان ميدلتون جالساً بجانب البار ويشرب بيرته على مهل. لم يكن يساوره الشك، بل كان يحس بشعور محرِّر ببلوغ الأمور نهايتها وخاتمتها. لقد لعب دوراً جوهرياً في استجواب أحد أبرز الطغاة في القرن، وبسبب ذلك، كان يحنُّ لبعض من الأشهر الأخيرة من حياة زوجته الشابة. كان فخوراً بمساعدته في جمع الأدلة التي أفضت إلى الحكم بالإعدام على صدام. وفقاً لمنظور ميدلتون، إنه لم يتخذ القرار بالذهاب إلى الحرب، لكنه نفّذ بأمانة مهمته في التحقيق بجرائم بحق الإنسانية، وساعد في تقديم المرتكب للعدالة.

قال في نفسه: بعد بضعة أيام سيدخل العام 2007، وهو سيكون عاماً جيداً. لم يكن حتى متأكداً من السبب الذي جعله يقتنع بذلك، ولكن بينما كان شريط «الخبر العاجل» يمر عبر شاشة البار معلناً موت صدام، انتاب ميدلتون نوعاً من الشعور بالتحرر. لقد مات أخيراً شخص فظيع تسبَّب بالبؤس والمعاناة لشعبه على مدار عقود. قاده مزاجه الحسن إلى أفكار سعيدة أخرى، مثل اللقاء الثاني القريب الذي سيستمتع به مع امرأة قابلها مؤخراً. بعد وفاة باربرا، استغرق ميدلتون وقتاً طويلاً

للتفكير في مقابلة امرأة أخرى، لكنه بينما كان ينظر إلى ابنه، الذي كان قد أنهى كأس شرابه غير الكحولي، لم يستطع إلا أن يشعر بأنه وأولاده يستحقون بعض السعادة.

سوف يتزوج ميدلتون المرأة كان يفكر فيها عند البار في تلك الليلة، وسيشعر بالفخر حقاً لرؤية ابنته تنضم إلى البحرية، وابنه إلى الجيش. في هذه الأيام، ما يزال ميدلتون يستمد سعادة مازوشية من الجري لمسافات طويل. وهو يستمتع بصفة خاصة في المشاركة بسباق الـ 120 ميل تتابع، الخاص بالعاملين في مؤسسات تطبيق القانون من مدينة بيكرزفيلد إلى لاس فيغاس، حين يشق طريقه بتصميم عبر المنطقة الصحراوية في نيفادا الغربية، تواجهه نفس الشمس القاسية التي عذَّبته سابقاً خلال جولات الجري الوحيدة التي كان يقوم بها في فترة العصر في أرجاء القاعدة في بغداد، بيد أنها لا تفلح في ردعه، بل يواصل جريه شرقاً نحو الشمس بعيداً عن الظلال.

آدم روجرسون

علم جيف روجرسون أن ابنه تغيَّر على نحو جوهري فور عودته إلى المنزل. كان بوسعه رؤية ذلك في وجهه. «أنت تعرف أولادك. باستطاعتي معرفة أن هناك خطباً ما بمجرد النظر إليه، مثلما أستطيع أن أعرف إذا كان متعباً».

صُدم جيف، وتفاءل في الوقت نفسه، عندما جاء ابنه آدم ذو السبعة عشر ربيعاً إلى أحد مواقع عمله في البناء قبل عدة سنوات ليخبر أباه بأنه التحق بالجيش. اعتقدَ بأنه ذلك سيفيد ابنه الذي -وإن كان شاباً قوياً- كان ما يزال «غير قادر على إيجاد مؤخرته بيديه قبل التحاقه بالجيش». كان آدم بذلك يواصل تقليداً عائلياً في الخدمة العسكرية، فقد حاز جده صليب الطيران المتميز لخدمته في سلاح الجو في الحرب العالمية الثانية وخدم جيف في اللواء الجوي المحمول الثاني والثمانين.

بيد أن جيف لم يكن باستطاعته أن يتخيل طبيعة المهمة التي ستوكَل إلى آدم والتأثير الذي ستخلِّفه فيه.

بعد ساعات لا تُحصى أمضاها في التعرُّف على صدام في السرداب أسفل قاعة المحاكمة وعلى الصخرة، يقول روجرسون إن الإعدام كان «أشبَهَ بفقدان فرد

من العائلة». ولأنه يدرك كم يمكن أن يبدو هذا غريباً بالنسبة لشخص لم يشاركه تجربته، يفسِّر الأمر بقوله: «أنت تطلق النار على شخص على جسر في المعركة، وتتابع طريقك، من يبالي. تبالي لثانية واحدة ومن ثم يكون الأمر مثل 'اقضِ على التهديد، وتابع التقدُّم'«. ولكن، أن تعرف شخصاً ما وتصبح قريباً منه ... مع مرور الوقت، لا يتحسَّن الأمر بالنسبة لي أبداً».

بدأ روجرسون على مهل يلاحظ إشارات توتر نفسي بينما كان يتكيَّف من جديد على الحياة في أميركا. لم تكن الأعراض فورية، ولعلها أُرجئت بفعل فورة النشاط الأولية التي أعقبت عودته من العراق واستئنافه واجباته كشرطي عسكري في قاعدة فورت كامبل، حيث أُعيد بسرعة للخدمة في نوبات منتظمة مدة كل منها أربع وعشرين ساعة. ولم يبدأ بالاشتباه بوجود مشكلة ما إلا عندما هدأت الأمور وأُتيح له الوقت للتفكير.

وازدادت صعوبة العودة إلى المنزل بعد تلك المهمة الشاقة من الناحية السيكولوجية بفعل الأوامر التي تلقاه بعدم إخبار أحد بشأنها. لم يعلم والده نفسه ما الذي يصدقه عندما بدأ آدم أخيراً – بعد سنوات من عودته إلى المنزل- بالتحدُّث عن تفاصيل تتعلق بمهمة صدام. قبل ذلك الحين، كان آدم يحرص دائماً على اختراع قصص للتغطية على ما حدث حقاً في المهمة.

يقول روجرسون: «أكاد أشعر بأنني مجرم. كأنني قتلت شخصاً كنت مقرَّباً منه».

في هذه الأيام، استُبدل الرياضي الشهير الواثق من نفسه في المدرسة الثانوية برجل هادئ منزوٍ يمضي الوقت في المنزل مع زوجته وابنته ذات السنوات السبع وابنه البالغ من العمر سنة واحدة. إنه يداوم على مواعيد أسبوعية في مركز للعناية بالمحاربين حيث يتلقى علاجاً لاضطراب ما بعد الصدمة، الذي شُخِّصت إصابته به واعتُبر معاقاً بسببه. لا يتذمَّر روجروسون من حالته، ولا يطلب تعاطفاً أو اهتماماً من أحد، لأنه يعرف أنه مجرد واحد من كثيرين عادوا إلى الوطن من الحرب ووجدوا أنفسهم مجبرين على التصارع مع آثاره.

بيد أن الوضع ليس سيئاً إلى هذه الدرجة، فروجرسون يقدِّر الفرصة التي

سنحت له لقضاء مزيد من الوقت مع زوجته وولديه الصغيرين. كما يستمتع برفقة حميه، الذي يحب أن يلعب معه رمي حدوات الحصان ورشق السهام. كما أنه يأمل باستئناف تدريب خط الدفاع في فريق شقيقه الصغير نصف المحترف لكرة القدم، لورين نايتميرز.

نادراً ما يتحدث روجرسون مع رفاقه السابقين من السوبر اثني عشر، ويعتقد أن هذا يعود إلى عدم رغبته «في إعادة الذكريات». لقد التقى مؤخراً بالصدفة بالرقيب توم فلاناغان – الذي كان يكنُّ له هو وبقية السوبر اثني عشر احتراماً كبيراً- في أحد الأنفاق المؤدية إلى أماكن جلوس الجماهير في مباراة لفريق كيلفلاند براونز، ودُهش من الارتباك الذي شاب اللقاء. لقد عانى الرجلان لإيجاد ما يقولونه لبعضهما رغم كل ما مرّا به معاً. تعانقا، وأعربا عن شوقهما، وتبادلا رقمي هاتفيهما.

لكن أياً منهما لن يتصل بالآخر.

حول هذا الأمر يقول روجرسون: «أنا أهتم بنفسي نوعاً ما. ربما يوماً ما إذا نظَّمنا نوعاً من لمِّ الشمل سأتحدّث مع الرفاق، أما في الوقت الحالي فإن الأمر لا يزال يبدو طرياً جداً، رغم مرور عشر سنوات».

ستيف هتشينسون

يقول ستيف هتشينسون: «حتى يومنا هذا، ما زلت أسمع ذلك الغطاء المعدني اللعين يُفتَح بقوة. كنت أؤمن بكل ما فعلتُه في الجيش، في اللحظة التي فُتحت بها تلك الأرضية، علمتُ بأنني انتهيت من الخدمة، مع أنني كنت سأواصل ارتداء الزي الرسمي حتى انتهاء مدتي».

يقسِّم هتش وقته الآن بين إدارة عمل يتعلق بالتدريب على الأسلحة النارية والتدريب التكتيكي في جورجيا، وبين تنفيذ عمل تعاقدي أمني دوري خارج البلد. تحثُّه زوجته على التركيز على العمل ضمن ولايته كي يمضي مزيداً من الوقت في المنزل بعد أن عاشا متفرِّقين خلال جزء كبير من السنوات الأربع عشرة الماضية. يعترف هتش بأن الوقت حان للتفكير في التخفيف من سرعة نمط حياته المجازفة، التي خلَّفت آثاراً نفسية وجسدية. إنه يستيقظ أحياناً مرتجفاً خلال الليل، متوقعاً رؤية

صدام. وفي أكثر من مرة فحصت زوجته – وهي ممرضة- ضغط دمه ووجدت أنه يبلغ 155 على 90. إن التوتر الذي وَسَم المهمة، والذكريات، ومشروبات الطاقة «مونستر»، والسجائر، كلها تركت آثارها عليه.

لقد قطع هتش شوطاً طويلاً من الحارس الليلي الثمل الذي التحق بالجيش بعد موجة الشعور الوطني التي سادت البلد عقب هجمات 11/9- لقد انتهت أيام الثمالة الآن بعد أن أصبح أباً فخوراً لثلاثة أطفال. لكن مثاليته المتفائلة انتهت أيضاً.

يقول هتش: «أحسستُ بالواجب للخدمة العسكرية بعد 11/9، وسواء أحببتُ المهمات أم لم أحبها، لكنني لم أشكِّك فيها أبداً خلال كل خدمتي». ويقول أيضاً إن القتال لم يكن يزعجه بحد ذاته، متذكِّراً بدون اكتراث المتمردّين الذي انتهت حياتهم بواسطة طلقات من عيار 5.56 أطلقها هو وآخرون. ولكن، تغيَّر كل شيء عندما قاد الرجلَ الكهلَ الذي توطّدت معرفته به إلى إعدامه وأُرغم على الوقوف جانباً بينما كانت حرمة جثته تُنتَهَك.

في صباح 30 كانون الأول 2006، «قررتُ ألا أكون ذلك الساذج ثانيةً، بالسماح للحكومة بليِّ إيماني». أما بالنسبة للمهمة الأميركية بصورة إجمالية في العراق، فيقول هتش: «كم عدد السنوات التي كرَّستُها من حياتي من أجل ذلك؟» يصمتُ قليلاً، «أتمنى لو كانت النتيجة أفضل».

إن ساعة ريموند ويل التي خلعها صدام حسين من معصمه وأعطاها لهتش عشية إعدامه ترقد بهدوء في خزنة في منزله الجميل في جورجيا، ولا تزال تُحصي مرور الزمن بثبات منذ أن انتهى زمن صدام نفسه.

صدام حسين

مضى على موت صدام حسين عقد من الزمن الآن. والوجه الذي كانت نظرته تثير الهلع في نفوس أشجع الرجال تَحلَّلَ منذ زمن طويل. بيد أنه لم يجد الراحة حتى في الموت. خوفاً من محاولة الميليشيات الشيعية المقتربة تدنيس قبر زعيمهم، أخرج أفراد من عشيرته البوناصر بقاياه ونقلوها إلى موقع سري في 2014.

كانت مخاوف العشيرة صحيحة.

ففي نهاية المطاف، سيقتحم أفراد ينتمون لميلشيات شيعية قبر الرئيس السابق – الذي كان قد تحوَّل إلى ما يشبه المزار- ويدمّرون كل ما فيه، ويحرقونه بأكمله.